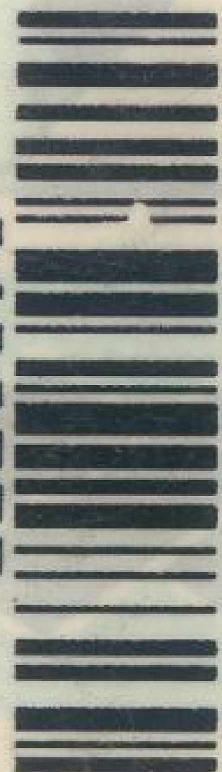
الأيام العصيبة

للكاتب الإنكليزي

تشارلز ديكنز

نقلها إلى العربية
نادیا أسعد

نقحها وصححها
محمد حمامي



دار القلم العربي بحلب

تشارلز ديكنز

الأيّام العصيبة

نقلها الى العربية
ناديا أسعد

صحّحها ودقّقها
محمّد حمّامي

منشورات دار القلم العربي
حلب - سوريّة

مقدمة المؤلف

ولد تشارلز جون ديكنز في ٧ شباط ١٨١٢ في (بورتس ماوس) في انكلترة ،كان الثاني ضمن ثمانية أطفال من أم تدعى أليزبيت وأب يدعى جون ديكنز وهو محاسب فقير .

ومنذ أن كان عمره مابين سنتين وخمس سنوات عاش مع عائلته في لندن حيث علمته والدته الانكليزية واللاتينية ،ومابين السادسة والعاشرة من عمره عاشت عائلته في (تشاثام) حيث دخل تشارلز الى مدرسة يديرها (وليم جيلز) وانتقلت العائلة سنة ١٨٢٣ الى لندن حيث أمضى تشارلز معظم أوقاته في استكشاف الشوارع التي أصبحت بعد ذلك مشاهد في رواياته .

عندما عجز جون ديكنز عن مواجهة ديونه المتصاعدة قررت زوجته انقاذه بفتح مدرسة خاصة للأطفال الصغار،ولكن محاولاتها باءت بالاخفاق. فذهب تشارلز للعمل في الصباغة وذلك عندما بلغ الثانية عشرة من عمره. وفي أوائل ١٨٢٤ سجن والده بسبب ديونه في (مارشال سي) وانضمت اليه زوجته وأولاده الستة بينما بقي تشارلز بغرفة في لندن يعيل نفسه بعمله اليومي الذي كان يمارسه أمام نافذة بمرأى من الناس ،وكان ذلك يشعره بالارتباك والاشمئزاز مما ترك في نفسه أعمق الأثر وظهر واضحا في أعماله .

انّ معظم شخصياته الهامة كانت من الأطفال ممن كانت

طفولتهم تعسة .

وفي خلال عمله في مصنع الصباغة كان نؤمه مؤمنا ، أما الأمور الأخرى فكان عليه أن يدبّر نفسه فيها بمبلغ ٦ شلنات في الأسبوع، وبما أنه لم يكن يملك المال الكافي للذهاب الى أي مكان،وكان عمله قليلا فقد كان يمضي أوقات فراغه متجولا في لندن . وفي رواياته لم يصف ديكنز الأماكن الجميلة والمؤثرة فقط ولكنه وصف أيضا الأزقة الخلفية القذرة كوصفه لمنزل الرجل النذل الخائف في قصته (أوليفر تويست) .

أما السائد في رواياته فهو الجانب الأسود من حياة لندن، أي الشوارع القديمة المزدحمة المتسخة ولاسيما في روايته (البيت الكئيب) ولحسن حظه أطلق سراح والده بعد ستة أشهر من توفية ديونه اثر ارث ورثه ،وتشاجر ديكنز وصاحب مصنع الصباغة وطرد من العمل

عاد يكنز الى المدرسة سعيدا في أكاديمية (ولينغتون) . وقد وصفه أحد رفاقه بقوله : انه شاب أنيق مليء بالحياة والمرح .

في خلال هذا الوقت بدأ بكتابة القصص وبقراءتها على رفاقه ، وكان مولعا بالمسرح،ورافقه ولعه هذا طوال حياته . وكان يقدم بعض العروض الخاصة لأهله وأصدقائه . وكان طموحه أن يصبح ممثلا محترفا . وكان يمكنه تحقيق هدفه هذا عندما كان في العشرين من عمره لو لم يصب بانفلونزا حادة منعته من الذهاب لمقابلة مدير المسرح في (كوفنت غاردن/ ،في ذلك الوقت بدا ينجح في

الصحافة فتخلى عن فكرة التمثيل .

بعد مغادرته المدرسة تحوّل طموحه الى أن يصبح صحفيـــــا ، وبتصميم وارادة بدأ يوءهل نفسه لذلك بتعلم الاختزال مساء في المتحف البريطاني، ونتيجة لذلك حصل على وظيفة كاتب اختزال في محكمة رجال القانون، وهنا عاود ديكنز الاستعانة بتجاربه فـــي كتابة الروايات، ففي (قصة مدينتين)و(التوقعات الكبيرة) استخدم قاعات المحكمة .

عندما أصبح في الثانية والعشرين من عمره فكر في أنّ عملـه صحفيا متنقلا سيكون أكثر متعة ،فحصل على وظيفة في صحيفـــة (تاريخ الصباح) مقابل خمسة جنيهات أسبوعيا ،وانتقل عبر المـدن من (ادنبرغ الى اكستر) وتمتع بكل لحظة لأنه خلال طفولته كـــان يعاني من الجوع والبرد، أما الآن فانه يستطيع أن يصل في الليـــل الى فندق مريح ويطلب وجبة دسمة ،واستراحة أمام المدفأة. ولكـن حياة الصخفي في تلك الأيام لم تكن كلها لهوا ولعبا فديكنـــز كان يعمل بضمير حي،وكان عمله يأتي في المقام الأول .

كانت عادة ديكنز أن يرسم شخصياته بألوان من الحيـــاة ، فكثير من المشاهد المثيرة الموجودة في رواياته مستمد مــــن تجاربه من حيث هو صحفي،فاذا قرأت وصفه لمشهد دمار السفينـــة في روايته (ديفيد كوبر فيلد) فسوف تلاحظ قدرته الصحفية ،هـــذه الحقيقة لم تكن لتخفى عن روءسائه ،فكانوا يرسلونه بمهمات هامة،

وكانت تقاريره الصحفية كرواياته فيها وضوح ومتعة وفكاهة،

وتختلف كليا عن التقارير الصحفية الرتيبة التي كانت موجودة في صحف تلك الأيام .

نشرت روايته الأولى عام ١٨٣٣ في المجلة الشهرية وهي (عشاء خلال شجر الحور) ،ونشر مقتطفات آخرى في المجلة نفسها وفي مجلتي (تاريخ الصباح)و(تاريخ المساء) . وجمعت هذه المقتطفات سنة ١٨٣٦ ونشرت تحت اسم (مقتطفات بوز) .

وبين عامي ١٨٣٦و١٨٣٧ وباشراف دار (شابمان وهول) للنشر كتب ديكنز قصة (أوراق بكويك) وهي قصة هزلية نالت شهرة واسعة .

كان ديكنز يكتب دائما عن تجربة ببلدته ومعرفة عميقة بها ،وكان مراقبا دقيقا وشاملا،فاذا لم تتوافر له معلومات وافية حول قصته لم يكن يدخر جهدا للحصول على أوراق التفاصيل، فقبل كتابة قصته (نيقولاس نيكلباي) التي نشرت سنة ١٨٣٨ تثبت من حقائق القصة بسفره الى (يوركشاير) حيث زار عددا من المدارس الداخلية بحجة أنه يبحث عن مدرسة لابن صديقه ،وخلال زياته لهذه المدارس وجد أنّ مدير احدى المدارس الداخلية سجن بسبب قسوته وترك ذلك أثرا في وصفه لهذه القصة .

تزوّج في نيسان سنة ١٨٣٦ من (كاثرن هوغرت) ،وكان والدها ناقدا موسيقيا ورئيس تحرير مجلة (تاريخ المساء) ،وفي عام ١٨٣٧ من تلك الحقبة كتب ديكنز روايته (أولنيفر تويست) اضافة الى كتب أخرى عدة .

ومابين سنتي ١٨٤٤و١٨٤٦ عاش ديكنز وعائلته التي أصبحت

مؤلفة خمسة أفراد متنقلا بين ايطالية وفرنسة وكتب في هذه المرحلة (صور من ايطالية) وقصة (دنبي وولده) وهاجم فيهاعبادة المال .

ومنذ عودته الى انكلترة سنة ١٨٤٧ نظّم فرقة مسرحية وكان مديرا لها وممثلا رئيسا فيها، وانضم اليها سنة ١٨٥١ (كولنز) وهو مؤلف روايات أصبح صديق ديكنز الحميم وشريكه. أماروايته (ديفيد كوبر فيلد) فقد عكست سيرة حياته الشخصية وتدرجه من العدم الى الشهرة. وتمثّل هذه الرواية تقدما فنيا للكاتب .

أقام ديكنز عددا من الأمسيات الأدبية لمساعدة الطبقة العاملة لاكتساب المزيد من الثقافة، وكان يشترط أن يكون ثمن الدخول قليلا حتى يتمكّن العمال من الحضور والتمتع بالأمسيات .

زار ديكنز مدينتي (ستراتفورد، مكان ولادة شكسبير، وليتشفيلد مكّان ولادة د.جونسون)، ومرة كان هناك مع بعض الأصدقاء حيث أمضوا مدة طويلة نفد خلالها مالهم، فرهنوا ساعاتهم الذهبية لدى أحد الصاغة، واذ انزعج رفاقه من ذلك راح هو يضحك لذلك طويلا. فقد كان ذلك يؤثر فيه أيام فقره، أما الآن مع الثروة والشهرة فالأمر مجرّد دعابة .

وعندما كان صبيا في (تشاثام) كان يحلم بشراء منزل (غادشل) قرب (روشستر) وقد استطاع أن يحقق حلما من أحلام طفولته مرة أخرى فاشتراه سنة ١٨٥٦ وعاش فيه منذ ١٨٦٠ حتى مماته .

وكان هذا المكان مزدحما دائما بالناس والمرح والضحك،واشترى بعد ذلك مرجا كبيرا خلف المنزل وجعل منه ملاعب رياضية ونظم مباريات رياضية عدة ،ووزع جوائز كثيرة . ولم يكن يدخر جهدا في سبيل عمل جيد ونبيل. ولكن هذا المنزل كان شوء ما عليه ،فقد انفصل عن زوجته ١٨٥٨ وتولت ابنة أخته شوء ون منزله حتى وفاته.

ألقى ديكنز الكثير من المحاضرات العامة مابين سنتي ١٨٥٩و ١٨٦٨ في لندن وأمريكة واسكوتلندة،وزاد ذلك من دخله كثيرا.

آخر رواية مكتملة له كانت (صديقنا المشترك) ١٨٦٤ – ١٨٦٥ وهي قصة نقدية اجتماعية ، أتبعها بقصتين قصيرتين (عطلة رومنسية)و(شرح جورج سيلفرمان) سنة ١٨٦٨ .

عاد الى منزله سنة ١٨٧٠ حيث بدأ العمل بقصة مشوقة ،وبعد انهاء الفصل السادس منها سقط في غرفة الطعام في منزله وتوفي صباح اليوم التالي وهو في الثامنة والخمسين من العمر ودفن في (ويست منستر آبي) ولم يراع طلبه أن يدفن في قبر بسيط قرب منزله .

ولم تمض سنوات على وفاته حتى توطدت العلاقة بين شخصياته الروائية وبين القرّاء. فقد أعطانا ديكنز عالما دافئا غنيا وواقعيا. عالما مليئا بالجيد والسيء ولكنه دائما مليء بالأمل في المستقبل . لقد كان رجلا من عامة الشعب وتحدّث عن عامة الشعب وأعطاهم عالما غنيا بالخيال

الأيام العصيبة

الفصل الأول الشيء الضروري الوحيد

انّ ما أريده الآن هو الحقائق،لاتعلموا الفتيان سوى الحقائق . فالحقائق فقط هي المطلوبة في الحياة. لاتزرع شيئا سواها واقلع أي شيء آخر. تستطيع أن تكيّف الحيوانات العاقلة بالحقائق فقط . لاشيء آخر سوف يفيدهم. هذه هي القاعدة التي أنشأت عليها أطفالي وهؤلاء الأطفال ثبتوا على الحقائق ياسيدي ...

المشهد غرفة في مدرسة عبر سرداب رتيب عار ومستو،والمتكلم الذي هو صاحب المدرسة يؤكد بسبابته ملاحظاته بوضع خط تحت كل جملة هامة،هذا التأكيد يظهره فم المتكلم الذي كان عريضاومنظما تنظيما صعبا،وصوته الذي كان جافا وجامدا وديكتاتوريا. وشعره الذي كان منفوشا على رأسه الأصلع كزرع من الأشجار لمنع الريح عن سطحه المشع،مما أوحى بكتلة عقد كغلاف فطيرة الخوخ،وكان رأسه مستودعا للحقائق الصعبة المخزنة بداخله .

فشكل المتكلم العنيد،وساقاه المربعتان،وكتفاه المربعتان ، وربطة عنقه الملتفة التفافا عنيدا غير مريح،كل ذلك يساعده على تأكيد ملاحظاته .

في هذه الحياة لانريد شيئا سوى الحقائق ياسيدي والحقائق وحدها فقط .

تراجع المتكلم ومعلم المدرسة والشخص الآخر الموجود قليلا وأصبحوا جاهزين للحصول على الحقائق من هؤلاء الأطفال الموجودين في المدرسة ممّن عبثوا بالحقائق أقصى العبث .

الفصل الثاني قتل الأبرياء

(توماس غراد غرند) ياسيدي هو رجل الحقائق، رجل الحقيقة والحسابات . الرجل الذي يؤكد المبدأ القائل: اثنان زائد اثنين يساوي أربعة ولاشيء أكثر،وهو لايسمح بأي تجاوز قطعيا (توماس غراد غرند) أنه قطعيا توماس ،توماس غراد غرند ذو مسطرة وكفتي ميزان وآلة حاسبة هي دائما في جيبه ياسيدي ،وهومستعد أن يزن ويقيس أي جزء من الطبيعة الانسانية ويخبرك بدقة ماذا ينتج منها ،وهذا التصرّف ماهو الّا مجرّد قضية حسابية بسيطة بالنسبة اليه .

ربما تتمنى أن توصل بعض المعتقدات غير المنطقية الى رأس جورج غراد غرند،،أغسطس غراد غرند أو جون غراد غرند أو جوزيف (كلها افتراضات لأشخاص غير موجودين) أما الى رأس توماس غراد غرند فكلا ياسيدي .

والسيد توماس دائما يقدم نفسه بذكاء سواء ضمن دائرة معارفه الخاصة أو الى العموم بشكل عام،ومن دون شك فهو يريد أن يجعل الموجودين ممتلئين ومشبعين بالحقائق كليا .

فالغرفة التي يوجدون فيها وشكل توماس ونظرته للموجوديـــن ببريق متحمّس أمور جعلته يبدو أشبه ببارود مشحون بالحقائق في فوهة مدفع ستنفجر لتنظفهم من رواسب مرحلة الطفولة ،وبدا وكأنه جهاز كهربائي مشحون بقدرة ميكانيكية ناسفة لأحلام الشبـــــان وتخيلاتهم .

أشار السيد غراد غرند بأصبعه وقال :

الفتاة رقم ٢٠، أنا لاأعرف تلك الفتاة من هي؟ أجابت رقم ٢٠ وهي خجلة تقف بانحناء :

(سيسي جوب) ياسيدي

سيسي . ليس باسم ،قال السيد غراد غرند ،لا تسمي نفسك سيسي، سمّي نفسك سيسيليا .

أجابت الفتاة بصوت مرتجف وبحيرة :

والدي أسماني سيسي .

اذن ليس من شأنه أن يفعل ذلك، أجابها غراد غرند .قولي له يجب ألا يفعل ذلك. سيسيليا جوب ،دعيني أر من والدك؟ قالت :

انه يعمل في السيرك .

عبس السيد غراد غرند وآشار بيده اشارة اعتراضية :

لانريد أن نعرف أي شيء عن ذلك هنا. يجب ألا تخبرينا بشأن ذلك الموضوع هنا ،والدك يروّض الخيل أليس كذلك؟

عندما يحضرون أي حواد من أجل الترويض يفعلون ذلك فـــي الحلبة ياسيدي .

أجابها :

يجب ألاّ تخبرينا عن الحلبة هنا. حسنا اذن صفي لنا والدك مادام مروّضا للخيل. أعتقد أنه يداوي الخيول المريضة أليس كذلك؟

بلى ياسيدي .

حسنا اذن هو طبيب بيطري ومروّض خيول ومهرّج،عرّفي لي الحصان. شعرت سيسي بقلق كبير ازاء هذا الطلب .

قال السيد غراد غرند:

الفتاة رقم ٢٠ لاتستطيع أن تعرّف الحصان .

الفتاة رقم ٢٠ لاتملك أية حقائق حول واحد من أكثر الحيوانات المألوفة . أريد تعريف الحصان من أحد الفتيان ، ما تعريفك يا (بيتزر) .

وبذلك انتقلت سبابته من هنا الى هناك واستقرت فجأة على بيتزر،ربما لأنه كان مصادفة يجلس قبالة أشعة الشمس التي كانت تندفع عبر احدى النوافذ العارية للغرفة المطلية . كانت سيسي تقف على زاوية من الجانب المشمس وكان بيتزر يقف على الطرف الآخر، وبما أنّ الفتاة كانت ذات عينين غامقتين وشعر غامق فقد بدت وكأنها قد حصلت على لون أكثر تألقا عندما سطعت أشعة الشمس عليها .

أما بيتزر فكان لون عينيه فاتحا وشعره فاتحا ،مما جعل أشعة الشمس تبدو وكأنها تنطلق منه ،أما عيناه الباردتان فقد كان يصعب أن تكونا عينين،ولكن رمشيه بمقارنتهما السريعة مع شيء أشحب منهما يعبّران عن شكلهما من حيث هما رمشان .

شعره القصير هو امتداد للنمش المتناثر على جبينه ووجهه

وبشرته الشاحبة اللون حتى لتظننّ عدم وجود الدم تحتها .

قال السيد غراد غرند:

ماتعريفك عن الحصان يابيتزر؟

له أربع أرجل،يأكل العشب ،له أربعون سنا هي أربعةوعشرون طاحنا، أربع أسنان في الفك العلوي واثنا عشر قاطعا. حوافره قاسية ولكنها محورية. عمره يعرف بوساطة علامات في فمه .

قال السيد غراد غرند:

الآن يافتاة رقم ٢٠ هل تعرفين لي ما الحصان ؟

انحنت ثانية واحمرت خجلا أكثر من ذي قبل، أما بيتزر وبعد أن نظر خلسة وسريعا الى توماس غراد غرند بعينيه فقد وضع يده على جبينه وجلس ثانية .

تقدّم الآن الرجل الثالث ،وهو رجل جاف وجارح لمشاعر الآخرين . كان موظف حكومة وملاكما محترفا يتدرّب دوما ،وهو مستعد دوما لقتال كل انكلترة والدخول في أي موضوع مستعملا يمناه ،ثم يتبع يسراه بها ،يتوقف ،ويعبس ،ويزعج معارضيه ويجرّهم الى الحبال وينقض عليهم انقضاضا متقنا .

حسنا ،قال هذا الرجل وهو يبتسم ابتسامة خفيفة ضاما يديه. كان ذلك تعريف الحصان .

الآن دعوني أسألكم أيها الفتيان والفتيات ،هل تستطيعون توريق غرفة بحضور جياد؟

بعد مدة من الصمت صاح النصف الأول من الأطفال صيحة جماعية:

نعم ياسيدي. بينما أجاب النصف الآخر بعد أن رأى تعابير على وجه الرجل توحي بأنّ الجواب خطأ:

كلا ياسيدي.وكالعادة في هذه الامتحانات ،قال الرجل :

بالطبع لا ولكن لماذا لاتستطيعون؟

مدة صمت أخرى ثم غامر أحد الفتيان البدينين وهو يتنفس محدثا صوتا كالأزيز :

لأنه لن يورق الغرفة أبدا بل سوف يدهنها .

قال توماس غراد غرند :

يجب أن تورق الغرفة سواء أحببت ذلك أم لم تحب .

لاتقل لنا انك لن تورقها . ماذا تعني ياولد؟

قال السيد:

سوف أشرح لكم اذن لماذا لاتورقون الغرفة بحضور الجياد؟ هل رأيتم في حياتكم جيادا تمشي ذهابا وايابا في الغرف حقيقة؟ هل رأيتم؟ النصف منكم أجاب : نعم ياسيدي،والنصف الآخر أجاب:لا.

طبعا لا،قال السيد وهو ينظر غاضبا الى النصف الخاطىء ،لماذا اذن لاترون في أي مكان ماترونه في الواقع؟ ماندعوه الذوق هو في الواقع اسم آخر للحقيقة .

أومأ توماس رأسه استحسانا.

قال السيد :

هذه قاعدة جديدة ، اكتشاف ، اكتشاف عظيم ، الآن سوف أجربكم ثانية . افترضوا أنكم تريدون فرش غرفة ،هل تستخدمون سجادة مرسوما عليها أزهار؟

كان هناك اقتناع عام هذه المرة بأنّ الجواب هو لا ياسيدي ، وهذا هو الجواب الصحيح بالنسبة الى السيد ،وكان مجموع من قال : لا كثيرا جدا. أصوات قليلة فقط أجابت نعم ،وكان صوت سيسي جـوب من بينها .

قال السيد وهو يبتسم ابتسامة الهادىء القوي بالمعرفة :

- الفتاة رقم ٢٠. احمرت سيسي خجلا ووقفت . اذن ســوف تفرشين غرفتك أو غرفة زوجك اذا كنت شابة وعندك زوج،بسجادة مرسوم عليها أزهار. آليس كذلك؟ لماذا؟

أجابت الفتاة :

- آنا معجبة جدا بالأزهار ياسيدي .

أجابها السيد :

ولهذا تضعين المناضد والكراسي على الأزهار وتسمحين للناس أن يدوسوا عليها بأحذيتهم الثقيلة .

أجابت سيسي :

- ذلك يوءذي الأزهار ياسيدي،فهي لن تتحطم أو تذبل لأنها صور عن أشياء جميلة وممتعة ،وأنا أتخيّل ...

صاح الرجل وهو مزده بالوصول الى هدفه :

- هيه هيه ... ولكن يجب ألاّ تتخيلي. هذه هي الحقيقة يجب الاّ تتخيلي آبدا.

أعاد توماس غراد غرند القول :

- يجب ألا تفعلي أمرا كهذاياسيسليا جوب .

قال السيد :

ـ الحقيقة ـ الحقيقة ـ الحقيقة .

وكرر توماس كذلك :

ـ الحقيقة ـ الحقيقة ـ الحقيقة . فقط من دون تخيّل ،فالخيال يجب أن يكون معدوما ،ويجب التركيز على الواقع .

قال السيد :

يجب أن تكونوا منظمين في كل شيء ومنضبطين بالحقيقة . نتمنى أن يكون عندنا وقبل وقت طويل لجنة مؤلفة من هيئة للحقائق يجبرون الناس على أن يكونوا أناس حقائق ولاشيء سوى الحقائق .

عليكم الغاء كلمة التخيّل نهائيا لأنكم لاتستطيعون أن تفعلوا بها أي شيء. يجب ألا يكون أي موضوع مهما يكن مزينا أو مزخرفا مناقضا للحقيقة . فأنتم في الحقيقة لاتمشون فوق الأزهار ولايسمح لكم بأن تمشوا فوق الأزهار الموجودة على السجاد. لذا يجب دائما أن تستعملوا أشكالا حسابية مليئة بالبراهين والاثباتات .

هذا هو الاكتشاف الجديد ،هذا هو الذوق،هذه هي الحقيقة .

انحنت الفتاة وجلست وبدا عليها الخوف من مفهوم الحقيقة .

قال السيد :

الآن أود أن يسمح الأستاذ (المدرّس) بأن يعطي درسه الأول الآن،وسوف أكون مسرورا يا أستاذ غراد غرند في أن أرد على طلبك بمراقبة تصريفه وأسلوب تدريسه .

بدأ الأستاذ بأفضل أسلوب يملكه . والأستاذ

تعرّض لاختبارات كثيرة وأجاب (Mr. M'Choakusm child) عن الكثير من الأسئلة المرتبطة بالعلوم المختلفة كعلم الفلك والجغرافية وضبط التهجية وعلم النحو وعلم العروض وعلم الأحياء وعلم وصف الكون والجبر والموسيقا الصوتية ... وتخرّج بأعلى الدرجات ،وهو على المام تام بالأمور كافة كتاريخ الشعوب وأسماء الأنهار والجبال وعادات البلاد الأخرى وأخلاقها ،ولكنني أرى أنه لو كان قد تعلّم أقل من ذلك لكان حتما سيعلّم أفضل لو بدأ باعطاء درسه وهو يتطلّع الى هذه العقول الصغيرة الجالسة أمامه واحدا تلو الآخر حتى يرى ماتحويه .

ولكن ألا تعتقد أيها الأستاذ أنك اذ تحشو هذه الرؤوس بالحقائق سوف تقضي على الخيال الموجود في الداخل أو تعمل على اتلافه .

الفصل الثالث المنفذ

مشى السيد غراد غرند من المدرسة الى منزله وهو في حالة من الزهو والرضى الكلي،فالمدرسة مدرسته كان يهدف الى جعلها نموذجية . وكان يهدف الى جعل كل طفل فيها مثاليا كما كان أولاده الخمسة مثاليين(بحسب اعتقاده) . كان عنده كما ذكرنا خمسة أطفال كل منهم كان مثالا بحد ذاته ،وقد علّمهم كل شيء منذ نعومة أظفارهم عندما أصبح باستطاعتهم السير بمفردهم كان أول مافعلوه هو الركض الى غرفة الدرس ،وأول موضوع كان لهم علم به هو لوح أسود

ضخم مرسوم عليه غول شاحب اللون. هذا لايعني أنهم كانوا يعرفون بالاسم أو بالطبيعة أي شيء عن الغول، ولكنني استخدمت هذه الكلمة لأعبّر عن وجود غول في هذا المنزل المليء بالدروس التي تزيد حدة الجو القاتم والصارم الذي يخيّم على المنزل وعلى الأسلوب الجسدي الملتزم الذي يتبعه صاحب المنزل في تربية أطفاله حتى لقد وصل الى حد مزعج، فقد قيدت الطفولة ولم تنطلق انطلاقتها الطبيعي. لم يتعلّم أحد من أطفاله الأغنية المشهورة التي يعرفها كل الأطفال (تألقي، تألقي، أيتها النجمة الصغيرة، كم يعجبني ما أنت عليه) وذلك لأنهم عندما بلغوا الخامسة من العمر كانوا على المام بالتحليل والتشريح وبكل شيء عن النجوم، مثلهم مثل البروفسور (أون) وهو المعروف بعلم التشريح، وكانوا يقودون الجرافة مثل أي سائق آلة متنقلة .

لم يسمح غراد غرند لأي واحد من أطفاله بالذهاب الى الحقل ليشاهد عن كثب البقرة بقرونها المجعدة التي تقذف الكلب الذي يخيف القطة التي تقتل الفأرة التي تأكل الشعير، وكذلك فانهم لاعلم لهم بالبقرة الأكثر شهرة من السابقة التي ابتلعت يد توم. انهم لم يعرفوا هذه الأشياء لكن كل ماعرفوه عن البقرة أنها تأكل العشب وتجتر الطعام ولها أكثر من معدة .

اذن فأطفاله كانوا بعيدين عن البراءة وكانوا يتصرّفون بطريقة توحي بأنهم في عمر أكبر من عمرهم وذلك نتيجة تربية والدهم اياهم، البعيدة عن الخيال والمركزة على الحقائق .

(ستون لودج) كان يوجه كل تصرّف ويديره بدقة مدروسة ،وكان قد تقاعد عن عمله في التجارة قبل بناء منزله هذا وبدأ يتطلع الى فرصة مناسبة للدخول الى البرلمان .

كان(ستون لودج) يقع على أرض منبسطة على بعد ميل أو ميلين من البلدة،وكانت تسمى بلدة.(كوك) ،وكان يمثل منزله هذا مرآة لأبنية البلدة ، وكان منزله ضخما ذا مدخل مغطى يحجب الضوء عن النوافذ الرئيسة ،كما كانت حواجب سيد المنزل الكثيفة تظلل عينيه . ست نوافذ كانت على جانب أحد .الأبواب وست على الجانب الآخر .

اثنتا عشرة نافذة في هذا الجناح وفي الجناح الآخر اثنتا عشرة أخرى. يحيط بالمنزل مرج أخضر وحديقة ،وطريق محفورة بين صفين من الأشجار فضلا عن ذلك مما وصفه صاحب المنزل ثمة مصرف لتصريف المياه ،ومكان لتهوية الغاز،وأعمدة ثابتة في الأرض، وآلة ضد الحريق،ومشد من الحديد،وكلها من أجود الأنواع .

واضافة الى مصاعد نقل الخدم وكل أدواتهم. فقد كان ثمة في هذا المكان كل مايشتهيه القلب . كل شيء؟ حسنا أعتقد ذلك. فقد كان عند صغار غراد غرند كل شيء حتى غرف خاصة بكل علم وحده . كان عندهم غرفة صغيرة لعلم الأصداف ،وأخرى لعلم المعادن وأخرى لاستخراج المعادن ...

فماذا بحق الله يريد هؤلاء الصغار أكثر من ذلك ؟ ترى الام يطمحون أكثر ؟

لاشيء سوى العلم ـ الحقيقة . أما الخيال والمرح فمعدومان تماما .

تابع السيد غراد غرند مشواره والسرور باد عليه وذهنه متفتح. كان والدا عاطفيا ،ولكن لو أراد أن يصف نفسه لقال : " انه أب حقيقي ورفيع الشأن "،وكان لعبارة رفيع الشأن وضع خاص عنده . فقد كان على ثقة بأنّ أي اجتماع عام في البلدة مهما يكن موضوعه سيلمح فيه واحد من أهل البلدة صديقه الرفيع الشأن غراد غرند. وهذا مايسره دائما ،وهو يعلم أنّ ذلك هو مايستحقه، وكان يقبل هذا الاستحقاق .

كان السيد غراد غرند قد وصل الى أرض محايدة خارج البلدة، عندما سمعت أذناه أصواتا موسيقية ،وكانت هذه الأصوات تتصاعد من السيرك حيث تتجمّع الخيول المستريحة في سرادق خشبي، وعلى صوت الضربات القوية أخذت الخيول تنهق كالحمير بصوت واحد وقد علّق علم على العمود كتب عليه (سيرك سليري) وكان سليري رجلا بدينا يحمل دائما علبة لجمع النقود. وأما ابنته جوزفين فكانت طويلة ونحيلة تساعده في أعمال السيرك .(أما سيفيور جوب) وهو والد سيسي فقد كان يقوم بألعاب بهلوانية صعبة تجعل الحاضرين يطلقون الصيحات الحماسية .

لم يعر توماس غراد غرند هذه السخافات أي اهتمام بالطبع ، ولكنه مشى مشية رجل موزون،وكان يحاول أن يزيل هذه الأصوات المزعجة من سمعه اما بالغائها واما بتحويل مصدرها الى مكان للاصلاح. فقد كان السيد غرند يعد هذه الألعاب اضاعة للوقت . وفي

طريق العودة الى منزله مرّ من خلف دكان متنقل فوجد مجموعة من الأطفال محتشدين يحاولون التسلل عبر الطاقات للتفرّج على السيرك، توقف وقال :

فلأفكر بهؤلاء الأشرار الذين يأخذون الصغار من مدرسة نموذجية الى أماكن كهذه .

كان هناك مسافة من الأعشاب الفتية والنفايات تفصل بينه وبين هؤلاء الصغار،لذا خلع نظاراته وأخذ ينظر لعله يستطيع التعرّف على هؤلاء الأطفال ويأمرهم بالابتعاد عن هذا المكان .

كان ثمة حوادث لاتصدق فعلا على الرغم من أننا نراها رؤية واضحة .

ترى ماذا رأى السير غراد غرند سوى ابنته لويزا المولعة بدراسة المعادن وهي تتسلل بكل قوتها عبر فتحة صغيرة،وابنه توم الذي يتمرغ على الأرض .

لقد أصيب بالذهول والدهشة ووصل الى المكان الذي يقف عليه الأولاد شأن كل ولد مخطىء وقال :

لويزا ،توم .

وقف كلاهما خجلا ومرتبكا ،ولكن ابنته نظرت الى الوالد بشجاعة أكثر من توم. بالطبع لم ينظر توم الى والده ولكنه ترك نفسه ينقاد كالآلة الى البيت . ثم قال السيد غراد غرند وهو يقودهما متعجبا ومدهوشا :

ماذا تفعلان هنا ؟. أجابت لويزا :

نريد أن نرى ماذا يبدو في السيرك •

ماذا يبدو ؟

نعم يا أبي •

بدا الطفلان يسيطر عليهما جو من الكآبة ظهر على الفتاة أكثر مما ظهر على الطفل توم، اضافة الى عدم الرضى، وكان يشع من وجهيهما ضوء لايستقر على شيء، وثمة مخيلة متقدة بالحياة تأتلق بتعابير مختلفة، ولكن ذلك الألق ليس الفرح المتفائل، بل المشاعر غير المستقرة الغاضبة المملوءة بالألم، والمشابهة المتغيّرات على وجه أعمى يستدل على طريقه •

هي طفلة الآن بين الخامسة عشرة والسادسة عشرة من عمرها، ولكن بين ليلة وضحاها سوف تصبح امرأة، هذا ما فكر فيه والدها وهو ينظر اليها. كانت جميلة، ولها ارادة مستقلة •

أما أنت ياتوم، فعلى الرغم من أني أرى الحقيقة أمامي لكنني أجد صعوبة في أن أصدق أنك بثقافتك وذكائك تحضر شقيقتك الى مشهد كهذا. أجابت لويزا سريعا :

أنا أحضرته يا والدي، أنا طلبت اليه القدوم• أجاب الأب : أنا متأسف لسماع ذلك، ألا يجعل هذا موقف توم أفضل ويجعل موقفك أسوأ يا لويزا ؟

نظرت لويزا الى والدها مرة ثانية ولكنها لم تسقط أية دمعة •

أنت ياتوم وأنت يا لويزا المفتوحة أمامكما دائرة العلوم،

أنتما اللذان يمكن أن يقال: انكما مملوءان بالحقائق، أنتمـــا المتدربان على الدقة الحسابية، أنتما... ـ صاح الوالد غراد غرندـ بهذا الوضع المخزي ... أنا مدهوش.

أجابت لويزا:

لقد تعبت. تعبت منذ مدة طويلة.

أجابها والدها متعجبا:

ممّ تعبت؟

قالت:

أنا لاأعرف ممّ؟ من كل شيء كما أعتقد. قال والدها: لاتتفوهي بكلمة أخرى

أنت طفلة، لن أسمع شيئا اضافيا. ولم يتكلم ثانية الا بعد أن مشى صامتا نصف ميل، عندئذ هب قائلا:

ماذا سيقول أعز أصدقائك يا لويزا؟ ألا تحسبين لهمحسابا؟ ألا تقيمين لهم وزنا...؟ ماذا سيقول السيد (باوندر باي)؟ وحين ذكر اسمه ضحك وفكرفيشخصيته القوية والباحثة. لم يعلق بأي شيء. وقبل أن ينظر الى ابنته كانت قد حوّلت نظرها عنه. عاود القول:

ماذا سيقول السيد (باوندر باي)؟. كرر ذلك خلال الطريق أكثر من مرة وهو يقود الطفلين المذنبين بسخط شديد الى المنزل.

الفصل الرابع السيّد باوندرباي

ترى من السيد باوندر باي؟ انه الصديق الأقرب الى السيد غـراد

غرند،وكان رجلا مجرّدا من العواطف تربطه علاقة روحية بالسيد غراد غرند الذي كان مثله مجرّدا أيضا من العواطف ،وبقدر ماكان قريبا منه كان بعيدا عنه. كان رجلا غنيا ،صاحب مصرف ،تاجرا، صاحب مصنع ،ما الذي كان ينقصه ؟

انه رجل ضخم صوته جهوري،وضحكته كانت ثابتة وفولاذية. كان خشنا ،ذا رأس منتفخ وعروق منتفخة في جبينه ،وكانت بشرته مشدودة الى وجهه ،ومن كثرة الشد كانت عيناه جاحظتين دائما وحواجبه مرتفعة. وكان مظهره العام منفوخا كالبالون. وهو يتبجح دائما بأنه رجل عصامي،وكان يعلن دائما عن جهله وفقره القديمين. كان يصغر صديقه غراد غرند بسنتين،وكان يبدو أكبر من عمره الذي يتراوح مابين ٤٧ سنة و٤٨،ويمكنك أن تضيف الى عمره من ٧ الى ٨ سنوات دون أن يفاجأ أحد بذلك . أما شعره فكان خفيفا حتى ليخيّل اليك أنه قد انتزعه ولكن ماتبقى كان موزعا من دون انتظام. كان يقف على سجادة في غرفة الاستقبال في(ستون لودج) وهو يدفىء نفسه أمام المدفأة ،ويحدث السيدة غرند عن ظروف مولده . كان يقف أمام المدفأة لأنّ عصر ذلك اليوم كان باردا ،على الرغم من شروق الشمس لأنّ(ستون لودج) كانت دائما مسكونة بشبح الرطوبة .

لم أكن أملك حذاء أو جوارب ،ولم أكن أعرف شيئا عنها حتى الاسم. كنت أمضي النهار في حفرة ،والليل في مكان قذر. هكذا أمضيت طفولتي في سن العاشرة. ولكن هذا لايعني أنّ الحفرة كانت

جديدة بالنسبة اليّ، لأنني ولدت في حفرة . سألته السيدة غرند وهي امرأة صغيرة نحيلة شاحبة ذات عينين ثاقبتين ويبدو عليهـــا الضعف عقليا وجسديا ،وكانت تتناول الدواء دائما دون أن تتأثـر به ،قائلة :

وهل كانت الحفرة جافة ؟

أجابها السيد باوندر باي:

بل كانت رطبة جدا رطوبـة كافية لأن تسبّب الأنفلونزا ،كان هذا هو استنتاج السيدة غرند .

أجابها السيد باوندر باي:

انفلونزا ... لقد ولدت مصابا بالتهاب في الرئتين والتهاب في كل شيء آخر ،فأنا طوال سنوات عدة مضت ياسيدتي كنت من أتعس البائسين الصغار ،كنت مريضا جدا وأتألم دوما ،كنت قذرا جدا حتى ليتعذّر عليك لمسي ولو بملقط .

نظرت السيدة غرند بضعف الى الملقط وهذا دليل قاطع علـى غبائها .

قال السيد باي متابعا :

كيف قاومت ذلك لا أعرف،كنت عقدت العزم وأصبحت شخصية مصممة وصاحبة قرار في الحياة ،وها أنذا الآن ياسيدة غرند ،على كل حال، لا أحد يستحق الشكر على وجودي هنا سوى نفسي .

تمنت السيدة غرند برقة وضعف أن تكون أمه ،قد...(ولم يدعها تكمل استفسارها) .

أمي هربت ياسيدتي. دهشت السيدة غرند كعادتها.

قال السيد باي: تركتني والدتي لجدتي،واعتمادا على أفضل ماتبقى في ذاكرتي فقد كانت جدتي أحقر وأسوأ امرأة عجوز، فهي اذا حصلت على أي فردتي حذاء كانت تأخذهما وتبيعهما من أجل الحصول على خمرة. فقد علمت أنّ جدتي كانت تستلقي على سريرها وتشرب نحو أربعة عشر قدحا من الخمر وذلك قبل الافطار.

تبسمت السيدة غرند بضعف ،ولم تبد أي شيء آخر من الحيوية، وبدت كما تبدو دائما مثل خيال امرأة صغيرة معدومة الشفافية ومن دون أي ضياء.

تابع باي: كانت جدتي تملك دكانا لبيع الشموع ،وكانت تبقيني في علبة بيض. وهذا كان سرير طفولتي،علبة قديمة للبيض ،ولكن عندما أصبحت كبيرا بالقدر الذي يسمح لي بالهرب هربت طبعا وأصبحت متشردا صغيرا ،وعوضا عن أن أجوع وأتعذب على يد امرأة واحدة عجوز أصبح أي امرىء من الناس جميعا يجيعني ويضربني مهما يكن عمره. انّ الناس محقون. فلم يكن لهم من عمل سوى ذلك،وقد كنت مزعجا ،بل كنت وباء، أنا أعرف ذلك تماما. كان عليّ أن أقاوم ياسيدة غرند. سواء أكان عليّ أن أفعل ذلك أم لا ياسيدتي فقد فعلت. لقد قاومت على الرغم من أنّ أحدا لم يرم لي حبلا للنجاة. كنت خادما متشردا،وعاملا متشردا ،وعتالا ،ومحاسبا ،وشريكا صغيرا ثم مديرا رئيسا ،وأصبحت بعد ذلك السيد(جوزيه باوندر باي) المقيم في (كوك تاون) ،هذا

هو ماسبق من حياتي ياسيدة غرند،وهذا ماوصلت اليه الآن،فقد تعلمت من الحياة ،فالثقافة التي اكتسبتها لايستطيع أي امرىء اكتسابها .

عندما وصل الى هذا القدر كان قد تحمس جدا ،وتوقف عن الحديث في الوقت نفسه الذي دخل فيه صديقه الحميم وهو يرافق الصغيرين المذنبين الى الغرفة . عندما رآه السيد غرند توقف ونظر الى لويزا نظرة توبيخية تقول صراحة :

انظري الى باوندر باي .

قال السيد باوندر باي متبجحا :

حسنا ،ماالموضوع؟ لماذا يبدو توم ساكتا هكذا؟ وكان باي يتكلم على توم وينظر الى لويزا . أجابت لويزا بتكبّر : كنا نسترق النظر الى السيرك ووالدي قبض علينا .

قال زوجها بأسلوب متكبّر :

ياسيدة غراند،كنت أتوقع أن أرى طفليّ يقرآان الشعر في هذا الوقت .

همست السيدة غرند :

يالهي! كيف استطعتما أيها الولدان عمل شيء كهذا، أنا متعجبة منكما . انكما تجعلان الانسان يندم أن يكون عنده عائلة . لكم أود القول: اني أتمنى أن لايكون عندي عائلة . والآن أود أن أعرف ماذا فعلتما؟

يبدو أنّ السيد غرند لم يكن مسرورا من هذه الملاحظات الشديدة ،فقد كان يعبس ضجرا .

قالت السيدة غرند:

بما آنّ رأسي في وضعه الحالي متعب أفلا تستطيعان الذهـــاب والنظر في الأمور الموؤ منة لكما بدلا من الذهاب الى السيرك،فأنتما تعلمان،كما أعلم أنا أيضا آنّ لا أحد يحضر معلمين من أجل دراسة السيرك وآنّ لا أحد يحضر دروسا تتحدث عن السيرك، اذن ماذا تريــدان آن تعرفا عن السيرك؟ أنا متأكدة آنّ عندكما الكثير مما ترغبـان في عمله ،لا أستطيع تذكر أشياء كثيرة وأنا في وضعي الحالي عــن نصف الحقائق التي يجب أن تعرفاها وتواظبا عليها .

قالت لويزا متجهمة :

هذا هو السبب ...

أجابتها السيدة غرند:

لاتقولي لي: انّ هذا هو السبب ،فذلك غير ممكن، اذهبي وافعلي أي شيء معقول حالا.

لم تكن شخصية السيدة غرند علمية ،وغالبا ماكانت تصــرف ولديها الى دراستهما بهذا التنبيه العام. والحقيقة آنّ مخــزون السيدة غرند من الحقائق كان ناقصا. ولكن السيدة غرند بتحميلها هذه المسوؤلية كانت تنطلق من سبب أنها خالية من القدرة علــى التعامل عن طريق الخيال،ولم تكن تعرف الكثير عن الحياة التـــي تعيش فيها. فهي امرأة بسيطة وغير ذكية .

قال السيد غرند وهو يقرّب كرسيه الى جانب المدفأة :

باوندر باي، أنت دائما تهتم بطفليّ الصغيرين وخاصة لويزا،

ولذا لاأجد مانعا من اخبارك أني مغتاظ من فعلتهما هذه .وأنت تعلم أنني وقفت نفسي لتعليم الثقافة المنطقية لعائلتي .

فالمنطق - كماتعلم- هو القوة الوحيدة التي يجب أن توجّه اليها الثقافة ،وعلى الرغم من ذلك - يا باوندر باي - يبدو أنّ ماحدث اليوم يعد من الظروف السخيفة غير المتوقعة ،وكأنّ أحدا ما قد تسلل الى عقلي توم ولويزا فأثر فيهما من دون أن يترك فرصة لهما للتفكير تفكيرا منطقيا .

أجابه السيد باي:

يجب ألا ننظر باهتمام الى هذه المجموعة من المتشردين،فأنا عندما كنت متشردا لم يهتم بي أحد .

وهنا تساءل الأب :

أنا أعرف ذلك،ولكن كيف برز عندهما هذا الفضول تجاه الأشياء العامة ؟

أجابه باوندر باي :

أنا أقول لك كيف،بالتخيّل الكسول .

أجابه السيد غرند:

لاأتمنى ذلك،وعلى كل حال أنا أعترف أنّ الريبة قد ساورتني حول هذا الموضوع وأنا في طريق العودة الى المنزل .

التخيّل الكسول - يا غراد غرند- عاود باي قوله هذا. انه شيء سيىء جدا لأي شخص ،وهو لعنة بالنسبة الى فتاة كلويزا. أعتذر من السيدة غرند لاستخدامي هذه التعبيرات القوية ،ولكنها تعرف جيدا أنني لست بالشخصية المهذبة ،ومن يتوقع مني التهذيب

فسوف يصاب بخيبة أمل،فأنا لم أتلق نشأة مهذبة.

قال السيد غرند وهو يضع يديه في جيوبه ويحدّق بعينيه الواسعتين في النار:

أي خادم أو معلم اقترح على الأولاد شيئا كهذا؟ أو ربما قرأ توم أو لويزا شيئا عن هذا؟ وربما ـ علىالرغم من كل الاحتياطات المتبعة ـ تسربت قصة من هذا النوع الى المنزل؟ ففي عقول دربت على القانون والنظام هكذا يبدو أنه أمر يدعو الى الغرابة وعدم التصديق .

صاح باوندر باي:

توقف قليلا،وكان لايزال واقفا كل هذا الوقت في موقعه السابق نفسه ،ولكن عندك في المدرسة أحد هؤلاء الأطفال المتشردين .

قال السيد غرند وهو يحدق بصديقه:

اسمها سيسيليا جوب .

وعاود السيد باي الصياح قائلا:

والآن كيف وصلت هذه الفتاة الى هناك؟

أجابه السيد غرند:

الحقيقة أنني رأيت الفتاة أول مرة الآن فقط ،فهي لاتنتمي رسميا الى بلدتنا ،نعم أنت محق،يا باوندر باي،أنت محق .

عاود باوندر باي الصياح مرة أخرى:

توقف لحظة ،هل رأتها لويزا عندما أتت؟

أجابه غرند: طبعا رأتها ،لكني لاأشك في أنها رأتها بحضور زوجتي .

قال السيد باي:

أرجوك ياسيدة غرند،ماذا حدث ؟

أجابت السيدة :

آه يا لصحتي الضعيفة ، أرادت الفتاة أن تدخل الى المدرسة ، وأراد السيد غرند أن ندخل الفتيات الى المدرسة ،وتوم ولويزا قالا معا : انّ الفتاة تريد أن تأتي،وكيف كان يمكن معارضتهما.

قال باوندرباي:

الآن سوف أقول لك ماتفعله ياغرند، اطرد هذه الفتاة فورا، وتلك ستكون النهاية .

أجابه السيد غرند:

أنا من رأيك .

افعل ذلك فورا ،قال بايوتابع :

انّ ذلك كان شعاري دائما منذ كنت طفلا،فعندما فكرت في أن أهرب من جدتي فعلت ذلك فورا ، افعل مثلي، افعل ذلك فورا.

سأله السيد غرند:

هل أنت ذاهب ؟ لديّ عنوان والدها ولعلك لاتمانع أن تذهب معي الى البلدة ؟

أجابه السيد باي:

بالطبع لاأمانع مادمت ستفعل ذلك حالا.

رمى السيد باي قبعته سريعا على رأسه ،وكان يفعل ذلك دائما وكأنه يريد أن يوحي بأنه رجل مشغول ببناء نفسهولايجد متسعا من الوقت ليتعلم كيفية ارتداء قبعته. وخرج الى القاعة

وافعا يديه في جيوبه.

بينما كان السيد غرند في الطابق العلوي يحضر العنوان فتح السيد باي غرفة دراسة الأولاد. كانت لويزا تنظر نظرة واهنة عبر النافذة دون النظر الى أي شيء،بينما كان توم الصغير ينظر نظرة حاقدة قرب المدفأة. اضافة الى لويزا وتوم كان للسيد غراد غرند ثلاثة أطفال آخرين وهم آدم سميث ومالتوس والصغيرة جين التي كانت تنام والدموع تبلل خديها وهم يحضرون الدروس.

قرر السيدان غرند وباي طرد سيسي من المدرسة لأنهما توقعا أنها توءثر في نفسية لويزا وتوم.

قال السيد باي:

كل شيء على مايرام الآن يا لويزا ويا توم،لن تفعلا ذلك مرة أخرى،سوف أسوي الأمر مع والدكما. حسنا يا لويزا ذلك يستحق قبلة أليس كذلك؟

تستطيع أن تأخذ واحدة ياسيد باي، أجابت لويزا وهي تمشي ببطء في الغرفة وقد رفعت خدها نحوه بامتعاض وأدارت وجهها.

أنت دائما محبوبتي أليس كذلك يا لويزا؟ الى اللقاء..

ذهب في سبيله ولكنها بقيت واقفة في المكان نفسه وهي تمسح خدها من قبلته بمنديلها بعنف حتى أصبح مشتعلا من الاحمرار،وبقيت على هذه الحال خمس دقائق.

سألها أخوها،ماذاتفعلين يا لو؟ سوف تحفرين فجوة في خدك.

تستطيع يا توم أن تقطع مكان القبلة بسكينك اذا أحببت ولن أبكي أو أشعر بألم.

الفصل الخامس بلدة كوك تاون

انّ كوك تاون البلدة التي يسير اليها الآن السيدان غرند وباي كانت ،في الحقيقة ،بلدة الحقائق ولايوجد فيها آي لمحة خيال ، مثلها في ذلك مثل السيدة غرند نفسها. كانت بلدة من القرميد الأحمر. بلدة الآلات والمدافىء المرتفعة آي انها صناعية يتصاعد منها دوما سحائب من الدخان الأسود غير المحدود. أما النهر الذي يجري فيها فلونه أرجواني قاتم وذلك من الصباغ. ويمكننا أن نشاهد أكواما فسيحة من المباني المليئة بالنوافذ حيث ثمة جلبة وضوضاء طوال النهار اضافة الى صوت مكبس البخار الذي يعمل عملا متواصلا،هذه البلدة مليئة بالشوارع الصغيرة المتشابهة ويسكنها أشخاص متشابهون يدخلون ويخرجون في الساعات نفسها ويحدثون الأصوات ذاتها على الأرصفة نفسها من أجل العمل نفسه. حيث انّ كل يوم هو مثل سابقه ومثل مابعده وكل سنة نسخة مماقبلهاومن السنة التي تليها .

هذه الصفات ملازمة لكوك تاون وكان يقابلها هناك حياة الرفاهية الموجودة في العالم. لاترى شيئا في كوك تاون سوى العمل القاسي. كتبت كل الأسماء العامة في البلدة كتابة متشابهة بالأبيض والأسود،كما آنّ الأبنية فيها كلها متشابهة فأنت لاتستطيع أن تفرّق بين السجن وبناء مأوى العجزة الاّ بعد قراءة اللافتة .

فالسجن يمكن أن يكون مأوى العجزة والعكس صحيح. الحقيقة .

الحقيقة ،الحقيقة . موجودة ومخيّمة في كل شيء في البلدة ،فالمدرسة كانت حقيقة ومدرسة الرسم والتصميم كانت حقيقة ،والعلاقات بين الناس كانت واقعية .

هل كانت هذه البلدة المليئة بالاثباتات والحقائق تسير سيرا طبيعيا؟ بالطبع لا. لأنّ كوك تاون كانت مليئة بالغموض المدهش فقد كان من الغريب جدا أن تسير عبر الشوارع صباح الأحد لأنّ أجراس الكنائس تدق،وكان الناس ينظرون الى ذلك وكأنّ هذا الأمر لايعنيهم وهم غير مبالين به ،فقد كانوا غير متدينين وقد شكلت لجنة من أهل البلدة لاجبار السكان على القيام بالشعائر الدينية بالقوة .

وتبرز جماعة لاتشرب الخمر وتتذمر من ادمانها ،وترى أنّ المدمنين مستمرون في ذلك. وهناك جماعة من المدمنين يوضحون أنهم يشربون الأفيون في حال عدم وجود الخمر. وأخيرا يظهركاهن السجن وهو يقول بسطحية : انّ هوءلاء الأشخاص سوف يلجأون الى مأوى وضيع ،هربا من عيون العامة لسماع غناء وضيع ،ومشاهدةرقص وضيع .

في هذه الأثناء كان السيدان غرند وباي يسيران بهذه البلدة وكانا معا لايتوانيان عن اعطاء انطباعات سطحية منبثقة من تجربتهما الشخصية والحقيقة انهما كانا سيئين. فمهما فعلت لهما فلن يكونا مسرورين منك أو شاكرين لك. فقد كانا سيدين متبرمين لايعرفان ما يريدان. وكانا يعيشان أفضل من كثير من البشر وعلى الرغم من ذلك كانا غير راضيين وأفضل مايمكنآن يقال فيهما تلك الحكمة التي قيلت على شكل قصة للأطفال .

كان هناك امرأة عجوز وكانت تعيش على الماء والزاد فقط . وعلى الرغم من ذلك لم تكن تسكت قط وتتبرم دوما. قال السيد غرند:

والد سيسيليا يعيش في مكان يدعى(بوداند).وأنا لاأعرف بالضبط هذا المكان فأين هو يا باي؟

وباي كذلك لم يكن يعرف المكان معرفة محددة لذا فقد توقفا لحظة وأخذا ينظران حولهما. في هذه الأثناء رأيا فتاة تركض من زاوية الشارع بخطوات سريعة وهي تنظر خائفة. تعرّف عليها السيد غرند فقال مرحبا: توقفي الى أين أنت ذاهبة؟

عندئذ توقفت الفتاة رقم ٢٠ وقلبها يخفق بشدة. وسألها السيد غرند:

لماذا تهرولين في الشارع بهذه الطريقة غير اللائقة؟

كنت ملاحقة يا سيدي وأردت الهرب . أجابت الفتاة وهي تلهث.

ملاحقة .من يلاحقك؟

جاء الجواب فجأة بقدوم الصبي الأصفر اللون بيتزر وهو يركض بسرعة قصوى ومن دون أن يستطيع الوقوف وجد نفسه يصطدم بالسيد غرند ويلتصق بصدريته.

ماذا تفعل ياولد؟ وكيف تجرؤ على أن تصطدم باي بهذه الطريقة؟ التقط بيتزر قبعته واعتذر بقوله:

لقد كان حادثا.

هل كان هذا الولد يركض خلفك ياجوب؟ سألها السيد غرند.

نعم ياسيدي . صرخ الولد:

كلا لم أكن أطاردها ياسيدي ليس قبل أن تهرب مني لأنّ العاملين في السيرك لايأبهون لمايقولونه ياسيدي. لأنهم معروفون بعدم مبالاتهم بمايقولون وكما هو معروف في البلدة فهم لايجيدون جدول الضرب .

قالت الفتاة :

لقد أخافني كثيرا بوجهه القاسي.

صاح بيتزر :

ألست واحدة منهم أنا لم أنظر اليها قط ياسيدي،سألتها فقط ان كانت ستعرف كيف تعرف الحصان غدا وقد عرضت عليها أن أعلمها ذلك ولكنها ركضت فركضت وراءها حتى أعرفها الاجابة .

ولو لم تكوني تعملين في السيرك لما فكرت في مثل هذه الأشياء المؤذية .

قال السيد باي :

يبدو أنّ أسلوبها قد عمم على الطلاب ففي خلال أسبوع يمكن أن تجد كل أطفال المدرسة وهم يتلصصون في صف طويل .

أجاب السيد غرند:

في الحقيقة أنا أعتقد ذلك.

ثم وهو ينظر لبيتزر ويقول له :

اذهب حالا الى منزلك واذا سمعت مرة أخرى أنك تصرّفت بهذه الطريقة فسوف يكون حسابك عند أستاذ المدرسة . وأنت تعرف ما أعني، أما أنت يا جوب فابقي هنا مدة .

نظر الولد الى البنت ثم استدار راجعا الى منزله .

والآن أيتها الفتاة خذينا الى والدك .

سألها السيد باي :

ماذا تحملين في الزجاجة التي بيدك؟ ويسكي؟ آوه كلا يا سيدي انها نوع من الزيوت .

سألها السيد باي:

ماذا؟

نوع من الزيوت لأدلك والدي به .

ضحك السيد باي ضحكة عالية وقصيرة وقال:

بحق الشيطان لماذا تدلكين والدك بالزيوت ؟

أجابت الفتاة وهي تنظر من خلف كتفها للتأكد من أن بيتزر قد ذهب ،

هذا مايستعمله الناس عندنا ياسيدي عندما يصابون بأي أذى في الحلبة . فهم في أحيان كثيرة يوءذون أنفسهم .

أجابها السيد باي:

اذن اخدميهم جيدا لأنهم كسولون،بينما نظرت اليه بدهشة وخوف .

تابع السيد باي قوله :

عندما كنت أصغر منك بأربع سنوات أو خمس أصبت بجروح لم يكن يشفيها أي نوع من الزيوت . فأنا لم أداو جراحي بأعمال اصطناعية ،ولكن كنت أضرب لم أكن أرقص على الحبال بل على الأرض العارية وكنت أربط بالحبل .

على الرغم من قسوة السيد غرند فهو لم يكن يملك قسوة السيد

باي فشخصيته لم تكن غير لطيفة ،وكان يمكنه أن يكون لطيفـــا جدا لو كان هناك بعض الأخطاء في العملية الحسابية لتركيـــب حياته .

قال السيد غرند بلهجة تأكيد عندما وصلا الى شارع ضيّق :

هذا هو المكان المحدد الذي نقصده ياجوب . أليس كذلك ؟

بلى ياسيدي هذا هو المنزل .

وقفت بالقرب من منزل عامي وضيع صغير مضاء بأنوار قاتمة ويبدو عليه الوسخ .

أرجو انتظاري هنا لحظة حتى أحضر شمعة واذا سمعت صـــوت كلب ياسيدي فسيكون (ميري لك) وهو ينبح فقط .

قال السيد باي وكان آخر من دخل وهو يضحك ضحكته الفولاذية :

(كلب وزيوت) آه هذه بداية جيدة لرجل عصامي.(الكلب ميــري لك) كان لوالدها . وكان يصاحبه دوما في كل خطوة يخطوها .

الفصل الثامن فروسية «سليري»

سليري هو صاحب السيرك الذي يعمل فيه والد .(سيسي جوب) . أما اسم المنزل العام الذي ينزل فيه العاملون في السيرك فهو (بينـــا سوس ارمز)وكان اسم الفندق مكتوبا بالحروف الرومانية .

تبع السيدان الفتاة الى الطابق العلوي من دون أن يقابـــل أي منهم أحدا ووقفوا في الظلام بينما ذهبت الفتاة لاحضار شمعــــة وكانوا يتوقعون نباح الكلب في أية لحظة . والى أن ترجع الفتـــاة

وهي تحمل الشمعة لم يحدث ماتوقعوه .

قالت الفتاة بوجه فيه الكثير من الدهشة :

والدي ليس في غرفتنا ياسيدي، أرجو أن تدخلا وسأجده فورا . دخل السيدان وبعد جلوسهما على كرسيين وضعتهما لهما ، انصرفت بخطوات خفيفة وسريعة . كانت الغرفة وضيعة ووسخة وفيها سرير.

كان غطاء رأس والد سيسي الليلي المزيّن بريشتي طاووس على مسمار في الجدار هو الشيء الوحيد الظاهر في هذه الغرفة .

سمعا أصوات الأبواب والغرف تفتح وتغلق فسيسي كانت تنتقل من واحدة الى أخرى وهي تسأل عن والدها كما سمعا أصواتا تعبّر عن الدهشة . ونزلت وهي تقفز بسرعة كبيرة وفتحت صندوقا قديما وجدته فارغا وأخذت تنظر حولها ويداها مكبلتان ووجهها مليء بالخوف .

لابد أنّ أبي قد ذهب الى الدكان المتنقل ياسيدي، انني لا أدري لماذا عليه الذهاب الى هناك،ولكن يجب أن يكون هناك وسوف أحضره خلال دقيقة . وذهبت فورا وشعرها الطويل الأسود مسترسل من دون شريطة .

قال السيد غرند:

كيف ستعودين خلال دقيقة والمكان يبعد أكثر من ميل؟ وقبل أن يرد عليه السيد باي دخل شاب وقدم نفسه لهما:باذنكما أيها السيدان .

قال ذلك وهو يضع يديه بجيوبه . كان وجهه نحيفا وشاحبا ويغطي رأسه شعر كثيف أسود. كانت رجلاه قويتين جدا ولكنهما

أقصر ممايـنبغي أن تكونـا عليه . أما صدره وظهره فعريضـــان . وكان يلبس معطفا جديدا وبنطالا مناسبا ويضع شالا حول رقبتـــه تخرج منه رائحة الزيت وكان يبدو نصف انسان ونصف حيـوان (أي مزيجا من الاسطبل والمسرح) كان هذا الشخص يدعى السيد (شيلدرز) .

قال شيلدرز وهويتحدث في الغرفة :

باذنكما أيها السيدان، أنتما كما أعتقد اللذان يودان رؤية جوب ؟

نعم

قال السيد غرند :

ذهبت ابنته للبحث عنه ولكني لاأستطيع الانتظار ،ولذا أرجو أن تعطيه الرسالة التي سأتركها له معك. تدخل السيد باي وقال :

أنت ترى ياصديقي أننا من النوع الذي يعرف قيمة الوقت أما أنتم فمن النوع الذي لايعرف قيمة له .

قال السيد شيلدرز بعد تأملهللمتحدث من رأسه حتى قدميه :

لم يحصل لي شرف المعرفة بك،ولكن اذا كنت تعني أنـــــك تستطيع الحصول على مال أكثر عند استغلالك لوقتك أكثر منـــي فعليّ أن أعترف ، استنادا الى مظهرك أنك محق .

وهنا قال(كيوبد)وهو(بمثابة الابن للسيد شيلدرز الذي يرافقه دوما وقد كان شيلدرز وكيوبد من العاملين في السيرك ؛

عندما تحصل على المال فأعتقد أنه يمكنك المحافظة عليه .

أوقف ذلك يا (كيدر منستر) وهو اسم كيوبد الثاني .

فصرخ كيوبد قائلا :

لماذا يأتي الى هنا ويحدثنا بوقاحة اذن؟

قال ذلك وقد أصبح مزاجه عصبيا نزقا .

رد عليه السيد شيلدرز بصوت مرتفع :

قلت لك أوقف ذلك .

ثم وجه كلامه الى السيد غرند قائلا :

انّ والد سيسي قد فقد مهارته .

تساءل السيد غرند ماذا فقد ؟

لم يستطع فعل ماطلب اليه وقد قصر في قفزه وكان سيئا في ألعابه البهلوانية .

ضحك السيد باي الضحكة المعهودة وقال: زيوت . كلب . فقدان مهارة . أعلام وألعاب بهلوانية . نموذج غريب من الرفاق لرجل قد أبرز نفسه .

جاوبه كيوبد :

اذن تواضع قليلا من دون خجل،كان عندنا شاب صغير نودّأن تقابلاه وذلك لو عرفنا أنكما قادمان الينا ومن المؤسف لم تعذرونا مسبقا مع انكما دقيقان جدافيمواعيدكما. أنتما متماسكان أليس كذلك؟

رد عليه السيد غرند بقنوط :

ماذا يعني هذا الولد غير المهذب بكلمة متماسكان؟

رد عليه شيلدرز وهو يدفع ابنه خارج الغرفة بطريقةهمجية :

لاتهتما بذلك، كنت ستعطيني رسالة لجوب .

نعم كنت اذن ـ تابع السيد شيلدرز سريعا لن يحصل عليها

أبدا. هل تعرفان الكثير عنه؟

لم أر الرجل في حياتي .

أنا أشك في أنكما ستريانه ،بصراحة أقول لكما انه قد رحل .

هل تعني أنه قد هجر ابنته؟

أومأ السيد شيلدرز برأسه قائلا:

انه قد فعلها. فقد يئس ولم يعد يحتمل .

سأل السيد غرند وهو يجبر نفسه على الكلام باشمئزاز:

لماذا أصبح هكذا؟

أجابه شيلدرز:

انّ مفاصله أصبحت قاسية ولم تعد تساعده على العمل بالرغم من أنّ كلامه البهلواني لايزال كماهو. ولكنه لن يستطيع العيش بذلك .

لقد عز عليه كثيرا في الحقيقة ياسيدي، أن تدرك ابنته حالته هذه .

قال باي لصديقه غرند:

جيد،هذا جيد أن يوجد رجل مفتون بابنته افتتانا يدفعه الى أن يهرب بعيدا عنها،سوف أقول لك أيها الشاب شيئا سيدهشك سماعه ،فأنا هربت أمي مني .

جاوبه شيلدرز :

انه لم يفاجأ قط بسماع ذلك .

قال باي:

حسنا لقد ولدت في حفرة وهربت أمي مني،هل أعذرها لذلك ؟ هل سأعذرها مستقبلا؟ لا طبعا. ماذا سأقول عنها؟ انها أسوأ

امرأة في العالم هي وجدتي السكيرة . لا أحس بفخر نحو عائلتي . لا أحس احساسا عاطفيا مزيّفا ،فأنا واقعي أقول عن الرفش انه رفش وأقول عن آم باي بدون خوف ما أقوله عن آم أي شخص آخر . اذن بالنسبة الى هذا الرجل فهو متشرد ومحتال وهارب باللغة الانكليزية. هذا هو تعريفه .

آجابه شيلدرز :

أنا لايهمني ماهو سواء أكان ذلك بالانكليزية أم كان بالفرنسية فأنا أخبر صديقك الحقيقة فقط .

واذا لم تكن تحب سماعها فانك تستطيع آن تعرض نفسك للهواء الطلق . فلقد تكلمت بمافيه الكفاية فاكمل كلامك في بيتك على أقل تقدير .

تابع من ثمّ سخريته :لاتعد للتكلم اذا لم يطلب اليك ذلك .

ضحك السيد باي وهو يجيب :

ربما هذا هو الصحيح .

اذن

قال شيلدرز :

تكلم في بيتك لأنّ هذا البناء غير قوي . وكلامك الكثير سوف يهدمه . وبعد آن حدق في السيد باي من رأسه الى قدميه ثانية استدار نحو السيد غرند،وتابع قوله :

انّ جوب أرسل ابنته في مهمة منذ ساعة ،ومن ثم غادروقبعته فوق رأسه وحزمته ملفوفة يحملها بيده. وهي لن تصدق أبدا تصرفه هذا ،ولكنه هرب وتركها .

قال السيد غرند:

ولكن لماذا لن تصدق أنه تصرف كذلك ؟

لأنّ هذين الاثنين كانا واحدا فهما لم يفترقا قط وقد كان حتى هذا الوقت شفوقا عليها .

قال شيلدرز ذلك وهو يتقدم خطوة أو اثنتين للنظر في الصندوق الفارغ. السيد شيلدرز والسيد كيوبد كلاهما يمشي بطريقة غريبة فخطواتهما أوسع من الخطوة العادية لأي رجل . ومن المفروض أنهما كانا يعانيان من تجفاف في الركب وهذه المشية كانت معروفة لدى كل الأعضاء في سيرك سليري وكانت تعبّر عن أنهم موجودون على ظهر الحصان .

مسكينة سيسي كان عليه أن يهتم بها حتى هذه الساعة .

هذا ماقاله شيلدرز.

أما الآن فقد تركها من دون شيء تهتم به. فقد كان والدها - تابع شيلدرز ومتجاهلا وجود السيد باي - مصمما على تعليمها بكل مايستطيع ولا أعرف كيف دخلت هذه الفكرة الى رأسه ،لا أستطيع القول، انّ ما أستطيع قوله فقط هو أنّ الفكرة لم تعد تخرج من رأسه قط،فقد كان يعلمها القليل من القراءة هنا والقليل من الكتابة هناك. خلال السنوات السبع الماضية .

سحب السيد شيلدرز احدى يديه من جيبه وأخذ يضرب على وجهه وذقنه وينظر بكثير من الشك والقليل من الأمل الى السيد غرند . فقد كان منذ البداية يفكر في أن يصالح السيد غرند من أجل

مصلحة الفتاة. وتابع يقول عندما دخلت سيسي الى المدرسة عندكم كان والدها مسرورا جدا،ولم أستطع معرفة السبب بنفسي،لأننا لم نكن مقيمين هنا بل كنّا نذهب ونجيء في كل مكان. ومهما يكن من أمر فأعتقد أنه كان خفيف العقل. واذا كنت قد حضرت الليلة ياسيد غرند من أجل اخباره بأنك تريد مساعدة ابنته فأعتقد أنّ الوقت مناسب جدا.

أجابه السيد غرند:

بل على العكس ،جئت الى هنا اليوم لاعلامه أنّ وجودها في المدرسة أمر غير مرغوب فيه ،ولكن اذا كان والدها قد هجرها فعلا ومن دون أي سبب يا باي فدعني أحدثك بكلمة على انفراد.

بتهذيب انسحب السيد شيلدرز الى الباحة الخارجية وسمع بعض العبارات تخرج من باي مثل(كلا).

(أنا قلت كلا) (أنا أنصحك بألا تفعل ذلك).

وسمع السيد غرند يقول بصوته المنخفض :

(ولكن لندعها نموذجا من أجل لويزا حتى نرى الام سينتهي الأمر). (فكرفيذلك يا باي من وجهة النظر هذه).

في هذا الوقت دخل العاملون في السيرك وهم يتكلمون بصوت منخفض الى الغرفة يرافقهم شيلدرز وكان بينهم امرأتان أو ثلاث، شابات وأنيقات مع أزواجهنّ اضافة الى أمهات وأطفال صغار يتراوح عددهم مابين الثمانية والتسعة والجميع كانوا يقومون بأعمالهم في السيرك.

وكان يوجد نوع من الطفولة والوداعة لدى هوءلاء الناس فقد

كانوا مستعدين تماما ودوما لمساعدة بعضهم بعضا. ظهر أخيرا السيد سليري وهو رجل بدين ذو عين سليمة وأخرى عاطلة، وصوته اذا استطعنا تسميته صوتا مثل الخوار، رأسه مترهل ومشوش ويبدو وكأنه غير صاح، وغير سكير .

قال السيد سليري الذي كان يلدغ بحرف السين ولايفسر كلامه، وموجها كلامه الى السيد غرند:

لاشك في أنك سمعت عن المهرج الذي هرب ؟ فجاوبه :

نعم. هل في نيّتك تقديم أي شيء لابنته؟ أجابه غرند:

سوف أعرض عليها موضوعا عندما تعود.

قال السيد سليري :

أنا مسرور لسماع ذلك، ولكن هذا لايعني أنني أريد التخلّص من الطفلة ولكنني لاأريد الوقوف في طريقها. وبينما كان غرند والسيد سليري يتحدثان قالت جوزفين ابنة سليري وهي وفتاة جميلة ذات ثمانية عشر ربيعا وكانت أمنيتها أن تدفن قرب حصانين صغيرين عندما تموت قد ربيت مع الأحصنة مذ كانت في الثانية من عمرها :

آبي وصلت سيسي

وكانت سيسي قد دخلت وهي تركض الى الغرفة، وعندما رأت الجميع مجتمعين ورأت نظراتهم ووالدها غير موجود بدأت تبكي بصوت مرتفع ورمت نفسها على صدر سيدة كانت تعمل في السيرك فانحنت هذه عليها وأخذت تبكي معها .

قال السيد سليري :

لعمري انّ هذا الشيء محزن وموءسف .

كانت سيسي تنتحب وتقول :

يا والدي الحبيب والحنون الى أين ذهبت ؟ لقد ذهبت من آجل مصلحتي أنا أعرف ذلك وكم ستكون تعسا من دوني .

وكان سماع ذلك محزنا جدا ولاسيما وأنّ وجهها كان يتطلّع الى أعلى ويداها ممدودتان كأنهما تحاولان وقف خياله المغادر . وكانت ترسل القبلات لهذا الخيال غير المرئي ولم يتفوّه أحد بكلمة حتى تولى الأمر السيد باي الذي فقد بصره .

قال انّ هذا الآن أيها الناس الطيبون اضاعة للوقت . دعوا الفتاة تفهم الحقيقة واذا أحببتم فسأقول لها ماجرى بنفسي . الآن ما اسمك؟ لقد ولّى أبوك هاربا وهجرك وعليك ألاّ تتوقعي روءيته ثانية ماحييت .

هوءلاء الناس (العاملون في السيرك) لم يكن لهم اهتمام بالحقيقة المجردة فبدلا من أن يتأثروا بمنطق المتكلم شعروا بغضب شديد ، فالرجال تمتموا صائحين: يا للعار .

آما النساء فقد قلن هاتفات : وحشية .

آما سليزي فقد عقب سريعا بالملاحظة الآتية وهو يوجهها الى السيد باي وهو منفرد به :

انّ جماعتي طيبون جدا ولكنهم سريعون في حركتهم فنصيحتي لك أن تختصر الموضوع وتتوقف عند هذا الحد،واذا لم تعمل بنصيحتي فسوف يوءذونك .

وبعد أن حوصر السيد باي بهذا الاقتراح وجد السيد غرند

مدخلا للتحدث في هذا الموضوع قائلا:

سواء توقعت عودة هذا الشخص في أي وقت أو عدم عودته فهو الآن قد رحل،ولايوجد توقع حالي لعودته ،وأعتقد أنّ ذلك يوافق عليه الجميع .. وأنا الذي أتيت لاعلامه بأنّ هذه الفتاة المسكينة غير مرغوب فيها في المدرسة. وذلك بسبب وجود بعض الاعتراضات التي لامجال لذكرها الآن . انني في هذه اللحظة مستعد لرعايتك وتثقيفك يا جوب . أما الشرط الوحيد (فوق تصرفك وسلوكك الجيد) الذي أضعه فهو أن تقرري الآن وحالا اما مرافقتي واما البقاء هنا. واذا ماررافقتني الآن فمن المفهوم أن لاتتصلي بأحد من أصدقائك الموجودين الآن. انّ هذه الايضاحات كافية للمسألة .

وهنا قال السيد سليري:

وأنا يجب أن أقول كلمتي: اذا أحببت ياسيسي أن تبقي معنا فأنت تعرفين طبيعة عملنا وتعرفين رفقتنا ،فالسيدة التي أنت في حضنها الآن ستكون بمنزلة الأم بالنسبة اليك وجوزفين كأختك. أنا لا أتظاهر بأنني ملاك .

ردّ السيد غرند .انّ الملاحظة الوحيدة التي سأوجهها لك ياسيسي هي أنه من المرغوب فيه جدا أن تنالي ثقافة واسعة ومناسبة فوالدك نفسه (بحسب مافهمت) يتمنى أن تكوني كذلك. كان للكلمات الأخيرة التي تفوه غرند بها تأثير خفي فيها ،فتوقفت عن البكاء ، ونظرت الى السيد غرند بكل قوتها حتى لقد لاحظ كل الحاضرين قوة تغيّر وجهها وتنفسوا عميقا وقالوا :

سوف تذهب .... حذرها السيد غرند بقوله :

كوني متيقنة مماتقرربن سا حوب ولن أغبف شيئا آخر .

قالت الفتاة والدموع تترقرق محددا في عينيها :

عندما يعود والدي كيف سيجدني اذا ذهبت ؟ أجابها السيد غرند بهدوء قائلا :

في هذه الحالة سوف يجد والد السيد ... سليري هو اسمي وأنا لاأخجل منه فهو معروف فى كل انكلترة والطريق مفتوحة أمامه دوما. تابع السيد غرند.

سوف يجد السيد سليري الذي سيعلمه أنك ذهبت . وأنا لاأملك السلطة على ابقائك برغم ارادته ولن يجد أية صعوبة فيأي وقت من الوصول الى السيد توماس غرند فأنا معروف جيدا .

صادق السيد سليري على قول السيد غرند بأنه معروف تماما. وبعد لحظة صمت قصيرة تابعت الفتاة قولها:

أعطوني ثيابي ودعوني أذهب قبل أن ينفطر قلبي أسى .

بدأت النسوة بجمع الثياب سريعا ووضعت في سلةطالمارافقتهنّ في سفرهنّ .

كانت سيسي تجلس طوال الوقت على الأرض وهي تبكي وتغطي عينيها ،بينما وقف السيد غرند وصديقه السيد باي قرب الباب مستعدين لأخذها. وقف السيد سليري في منتصف الغرفة وحوله النساء وكأنه واقف في منتصف الباحة وابنته جوزفين تقدم استعراضها الذي لايحتاج الآ الى سوط واحد .

رتبت السلة بصمت وأحضرت النساء لها شريطة شعرها ومشطنّ هذا

الشعر المبعثر ثم انحنين عليها يقبلنها ويحضننها بعطف شـــم أحضرن الأطفال لوداعها فقد كنّ مجموعة من النسوة ذوات القلـــوب البسيطة والطيبة .

قال السيد غرند:

الآن يا جوب اذا صممت فتعالي .

ولكن كان عليها أن تقول : وداعا لمجموعةالرجال الموجودين وكان كل واحد من الجميع يوّد اعطاءها قبلة الوداع ماعدا السيـد كيوبد الذي كان من طبيعته كره الناس ،فقد اختفى وانسحب بحـزن وكان آخر من ودعها السيد سليري الذي أخذها بين يديه ،ووقفـــت أمامه تبكي .

قال سليري : الى اللقاء ياعزيزتي وأتمنى لك السعادةوأعدك بألا يزعجك أحد من رفاقك .

ثم قبلها وهو يهز رأسه وسلمها للسيد غرند. وهتف الجميـــع الى اللقاء ياسيسي،الى اللقاء بحماية الرب ياعزيزتي .

وكانت الأصوات متنوعة تخرج من كل أنحاء الغرفة. ولكن السيد سليري لاحظ أنّ زجاجة الزيوت كانت لاتزال معها فقال :

اتركي الزجاجة هنا ياعزيزتي فهي كبيرة ولن تفيدك في شيء الآن أعطنيها لي .

كلا ! كلا .

كان ردها وهي تبكي دعني أحتفظ بها الى وقت عودة والـــدي فهوسيحتاج اليهـا عند عودته. فهو لم يكن يفكرفي الذهاب عندمـا أرسلني لاحضارها فيجب أن أحتفظ بها،هذا ما أرجوه .

حسنا يا سيسي الى اللقاء وكلمتي الأخيرة لك هي : ابقي على وعدك ولاتتذكرينا ،أما عندما تكبرين وتتزوجين وتمرّين أمام السيرك فتذكرينا ولاتنسينا .

وسأعطيك فلسفتي في هذه الحياة . افعلي دائما الأفضل في هذه الحياة وليس الأسوأ .

الفصل السابع السيّدة سبارست

بما أنّ السيد باي كان عزبا فقد كان هناك سيدة مسنة تقوم على خدمته لقاء راتب سنوي. كانت تدعى السيدة سبارست وكانت هذه السيدة من عائلة محترمة وكان لها عمّة غنية تدعى السيدة سكاد جرس . وكان زوجها المتوفى قريبا لعمتها الغنية التي كانت عجوزا مصابة بنهم غريب لأكل اللحوم وكان لها قدمان غريبتان لم يغادرا الفراش منذ أربعة عشر عاما وقد دبرت زواجهما في سن مبكرة من دون أن يكون لهما وعي كاف . ولقد ورث السيد سبارست من عمه ثروة محترمة ولكنه دفعها دينا قبل أن يتمتع بها ،وعندما توفي لم يترك لأرملته التي هجرها بعد قليل من شهر العسل امكانية العيش في ظروف ميسورة . أما زوجته التي كانت تكبره بخمس عشرة سنة فقد وقعت في نزاع مع قريبتها السيدة سكاد جرس ولكي تستطيع اغاظتها وتعيل نفسها بدأت تعمل وهاهي ذي الآن بحاجبَيها السوداوين الكثيفين وأنفها المميّز تقدم الشاي للسيد باي وهو يتناول افطاره . لو كان السيد باي عزبا وكانت

السيدة. سبارست أميرة أثيرة عنده، لم يكن يعاملها بتفخيم كمعاملته لها الآن،فكان من دواعي سروره. أن يحقر أصله ويعظم أصله السيدة سبارست ولم يكن يدع فرصة تفوته الا ويمجد شخصيتها ،ويبرز كيف كانت طريقها مفروشة بالورد ثم يقول : كيف انقلبت الأمور بعد كل ذلك؟ وكيف هي الآن تقوم على خدمة السيد باوندر باي .

قالت السيدة سبارست للسيد باي :

ليس من عادتك أن تكون بطيئا في تناول الافطار ياسيدي ؟

أجابها : أنا أفكر ياسيدتي في نزوة غرند .

وكان باي يتكلم مراوغة وهو يقول نزوة توم غرند ياسيدتي باحضاره هذه الفتاة المنهارة . (توم هنا تصغيراسم توماس) .

قالت السيدة سبارست : الفتاة تنتظر الآن لمعرفة احتمال ذهابها مباشرة الى المدرسة أو الى بيت السيد غرند. أجابها باي: عليها أن تنتظر ياسيدتي حتى أعرف نفسي،فأنا أعتقد أنّ السيد غرند سيحضر الآن واذا كانيريد أن يبقيها هنا مدة يوم أويومين فهل باستطاعتها ذلك ياسيدتي .

طبعا تستطيع اذا أردت ذلك ياسيد باي . فرد باي :

لقد قلت لتوم البارحة يمكنك ابقاؤها هنا حتى تقرر هل يمكنها أن يكون هناك أي احتكاك بينها وبين لويزا.

هذا تصرّف حكيم منك ياسيد باي .

قال باي :

من الصعوبة أن أفهم كيف يمكن الهرة الصغيرة الحصول على أي

فائدة من رفقة كهذه .

هل تتكلم يا سيد باي على الآنسة غرند ؟

نعم ياسيدتي أتكلم على لويزا .

ولكن ملاحظتك المحددة بالهرة الصغيرة لم توضح أي منالفتاتين المقصودة . أعاد السيد باي قوله :

لويزا . لويزا . لويزا .

قالت السيدة سبارست وهي ترشف قليلا من الشاي :

أنت بمنزلة الأب الثاني للويزا .

أجابها السيد باي:

لو قلت انني أب آخر لتوم الصغير لكنت قد اقتربت من الهدف أكثر ولسوف آخذ توم الصغير الى العمل عندي في المصرف وسوف يكون تحت اشرافي ياسيدتي .

ولكنه ياسيدي مازال صغيرا على ذلك أليس كذلك ؟

وكانت بتفخيمها للسيد باي بقولها ياسيدي تهدف الى وضع نفسها بالحسبان وليس تشريفه هو .

لن آخذه قبل أن ينهي تعليمه، وسوف يحصل على الكثير من العلم خلال حياته .

عندما كنت في سنه لم أكن أفقه شيئا ،وكنت أجد صعوبة في التكلم في موضوعات مختلفة مثال ذلك، كنت أتكلم معك صباح هذا اليوم عن المتشردين،وأنت ماذا تعرفين عن المتشردين فأنت ذات مستوى عال فقد كنت تخرجين من الأوبرا الايطالية ياسيدتي وأنت ترتدين المجوهرات والساتان الأبيض وكنت مشرقة بينما لم يكن

يمكنني الحصول على مشعل لانارته لك .

آجابته السيدة سبارست بهدوء موزون :

كنت بالطبع ياسيدي أحضر الأوبرا الايطالية في مرحلة سابقة من هذا العمر .

آجابها باي: كنت ياسيدتي آفترش الأرض فراشا قاسيا ، آؤكد لك ذلك. فأناس مثلك معتادون منذ طفولتهم على التمدد على ريش ناعم ليس لديهم فكرة عن مدى صعوبة النوم على حجر. لاجدوى من حديثي معك عن المتشردين بل يجب آن آتكلم على السادة والسيدات والشرفاء والراقصين الأجانب .

ردت السيدة سبارست بأدب :

ليس من الضرورة أن تفعل شيئا من هذا فقد تعلّمت أن آقلم نفسي من تغيرات الحياة .

حسنا ياسيدتي. ربما سوف يسر بعض الناس لسماع قصة عذابي ولكن عليك أن تعترفي آنك قد ولدت في حضن الرفاهية . هيا ياسيدتي أنت تعلمين آنك ولدت في حضن الرفاهية آنا لاأنكر ذلك ياسيدتي .

اضطر السيد باي الى الوقوف والتطلّع نحوها وتابع حديثه بقوله:

وكنت في مجتمع ذي مستوى عال .

هذا صحيح ياسيدي .

قالت ذلك وهي تتظاهر بالخضوع .

وآخذ السيد باي يضحك عندما آعلن عن وصول السيد غرند والآنسة ابنته واستقبلهما بمصافحة السيد وتقبيل الآنسة .سأله

السيد غرند هل يمكنني طلب جوب الى هنا ياباي؟

بالطبع .

ولمّا حضرت انحنت للسيد باي وللسيد غرند وللويزا ولسوء حظها غفلت عن الانحناء للسيدة سبارست فعلّق السيد باي على ذلك بقوله: الآن يافتاتي سوف أذكر لك اسم هذه السيدة : السيدة سبارست وهي مدبرة المنزل وهي سيدة محترمة وذات مستوى راق . واذا دخلت مرة ثانية الى غرفة في هذا المنزل فلن تبقي مدة طويلة فيه اذا لم تتصرفي تجاه هذه السيدة بكل احترام،فأنا لاأكترث أي اكتراث مهما قلّ مقداره بكيفية تعاملك واياي لأنني لاشيء فلقد أتيت من زبدة الأرض وأما تجاه هذه السيدة فأنا أهتم كثيرا بأن تعامليها باحترام والا فلاتأتي أبدا. قال السيدغرند وهو يحاول التوفيق :

أعتقد ياباي انها سهوة .

رد باي :

ياسيدة سبارست صديقي غرند يرى أنها مجرّد سهوة ،ولكنني لاأسمح ولو بمجرّد سهوة تجاهك .

أجابت السيدة سبارست وهي تهز رأسها: أنت جيد جدا ياسيدي فالأمر غير جدير بالتحدث عنه .

وقفت سيسي خلال كل هذا الوقت والدموع تملأ عينيها تتطلع باهتمام الى السيد باي .

بينما وقفت لويزا ببرود تتطلع الى الأرض .

قال السيد غرند:

ياجوب لقد قررت آخذك الى منزلي وعندما لاتكونين في المدرسة تعاونين السيدة غرند المتوعكة صحيا ولقد شرحت للويزا النهاية التعسة والطبيعية لظروفك،وعليك آن تفهمي تماما آنّ الموضوع قد انتهى ومن الآن سيبدأ تاريخك الحديد،وآنت في الوقت الحاضر جاهلة أنا أعرف ذلك .

نعم ياسيدي كثيرا. آجابته الفتاة بانحناءة.

ثم تابع قائلا لها : سوف آثقفك ثقافة كلية،وسوف تكونين برهانا حيا لكل من يتصل بك حول فائدة التمرينات التي سوف تتلقينها. سوف يتم اصلاحك .

كنت معتادة آن تقرئي لوالدك وللجماعة الذين وجدتك بينهم أعتقد ذلك؟ وكان قد قرّبها منه واختفى صوته .

فقط لوالدي ياسيدي على الأقل آعني لوالدي بينما كلبه كان دائما موجودا.

غير مهم الكلب ياجوب ـ قال السيد غرند وهو يعبس ـ آنا لا آسألك عنه. آنا فهمت منك انك معتادة آن تقرئي لوالدك آليس كذلك ؟

بلى ياسيدي آلاف المرات . وكانت من آسعد الأوقات التي قضيناها معا.

وكانت المرة الأولى التي نظرت فيها لويزا اليها وذلك بعد آن بدا عليها الحزن الشديد. تابع السيد غرند بصوت منخفض :

وماذا قرأت لوالدك ياجوب ؟

قرأت له ياسيدي عن الساحرات الأقزام. الأحدب والجنيات

آجهشت و ....

اسكتي اسكتي .

قال السيد غرند:هذا كاف . لاتتنفسي بكلمة عن هذه السخافات مرة أخرى .

يابابي هذه حالة من التمرينات القاسية وسوف أوليها الاهتمام الكافي .

أجابه السيد باي:

لقد أعطيتك رأيا مسبقا،وأنا لا أفعل مثلما تفعل أنت ولكن حسنا بما أنك اعتمدت .... وهكذا أخذ السيد غرند وابنته سيسيليا جوب معهما الى (ستون لودج) وخلال الطريق لم تتفوه لويزا بأية كلمة جيدة أو سيئة،وذهب باي الى أعماله اليومية بينما جلست السيدة سبارست تتأمل وهي تحيك الشياب قرب المدفأة .

الفصل الثامن لاتعجب ولاتدهش

دعونا نعد قليلا الى الوراء قبل أن نتابع . فعندما كانت لويزا أصغر بست سنوات مماهي عليه الآن أجرت محادثة وشقيقها في أحد الأيام وقالت : ياتوم أنا أعجب .

وما ان تفوهت بهذه الكلمة حتى تقدم السيد غرند الذي كان يستمع اليهما وقال لها:

لويزا لاتعجبي أبدا هنا ينشأ غموض تثقيف المنطق،وميكانيكية الفن من دون خضوعه للعواطف والاحساسات .لاتعجبي فبالجمع والطرح

والقسمة والضرب كل شيء يكون مركزا. من دون حاجة الى الدهشة والتعجب .وكما قال أستاذ المدرسة: أحضر لي طفلا في بداية خطواته وأنا سوف أضمن أنه لن يدهش أبدا. فاضافة الى عدد من الأطفال هم في بداية خطواتهم الآن يوجد في (كوك تاون) عدد كبير من الأطفال يمشون عكس الوقت نحو العالم غير المحدود طوال عشرين سنة أو ثلاثين أو أربعين أو خمسين أو أكثر. هؤلاء الأطفال مخلوقات مضطربة ،وغير قادرة على التسلل في المجتمع الانساني ولاتعرف الدهشة . فالشخص الأول يقول: عليهم أن يعتمدوا على الثقة . والشخص الثاني يقول: يجب أن يعتمدوا على الاقتصاد السياسي. والشخص الثالث كتب قصصا صغيرة قاتمة لهم يعبّر بها كيف أنّ الطفل الذي ينشأ تنشئة جيدة يؤمّن مستقبله ، أما الذي ينشأ تنشئة سيئة فيتشرد. وكل الأشخاص اتفقوا معا أنّ على هؤلاء الأطفال عدم الدهشة أبدا. كان يوجد في (كوك تاون) مكتبة وكان الدخول اليها سهلا،وكان السيد غرند يشغل فكره دائما بمايقرأ هؤلاء الناس في هذه المكتبة . وكانت حقيقة محزنة بالنسبة اليه وهي أنّ هؤلاء القرّاء يصرّون على الدهشة فهم يدهشون بالطبيعة الانسانية والعاطفة الانسانية، والآمال والمخاوف الانسانية، والصراعات،والنصر ،والهزيمة ،والأفراح،والأتراح،والحياة ،والموت، والرجال والنساء. وهؤلاء أحيانا وبعد خمس عشرة ساعة من العمل المتواصل يجلسون ويقرأون قصصا خرافية حول رجال ونساء مثلهم وحول أطفال مثل أطفالهم كانوا يقبلون على الأعمال الخيالية أكثر من الأعمال الواقعية .

نعود الآن الى الغرفة التي توجد فيها لويزا وأخوها تـــــوم الصغير. عندما قال لها أخوها أنا سئمت حياتي يا لو، أنـــــا أكرهها كثيرا وأكره الأشخاص كلهم ماعداك.

ولكنك لاتكره سيسي يا توم ؟

رد توم بحزن :

أنا أكره أن أكون مجبرا على مناداتها جوب ،وهي تكرهنـــي كذلك .

كلا ياتوم هي لاتكرهك وأنا متأكدة من ذلك .

يجب عليها ذلك ــ قال توم ــ:

عليها أن تكره وتحتقر كل مايمّت الينا بصلة فهم ســـــوف يتعبون رأسها فهي قد أصبحت شاحبة كالشمعة وبليدة مثلي تماما. كان توم يعبّر عن مشاعره وهو جالس أمام المدفأة ويداه الى الخلف ووجهه كئيب وكانت شقيقته في الجانب المظلم قرب المدفأة . تنظر اليه تارة وتارة أخرى الى النار المشتعلة . قال توم :

أما بالنسبة اليّ فأنا حمار وعنيد مثله تماما وغبي،فأنـــا أحصل على المتعة نفسها التي يحصل عليها وأحب أن أرفس مثلـــه تماما .

أجابته لويزا :

أتمنى ألاّ أكون أنا ياتوم من ترفسني؟

كلا يا لو،فأنا لن آوءذيك فقد استثنيتك منذ البداية .

هل صحيح ياتوم أنك تعني ذلك؟

طبعا أنا أعني ذلك،وأضاف:فأنا لاأعرف كيف يمكنني العيـــش

في سجن كهذا من دونك .

أجابته لويزا :

كلما كبرت أكثر جلست أعجب وأفكر كيف أنني لم أستطـــع لسوء الحظ أن أصالحك وهذا المنزل أفضل من الآن،فأنا لا أعرف مـــا تعرفه الفتيات الأخريات ،فلا أستطيع مثلا أن أعزف وأغني لـك ،ولا أستطيع أن أتحدث معك في أمور تفرح ذهنك فلم أشاهد قـــط أي مناظر مسلية ، أو أقرأ أي كتب شيقة تكون بمنزلة المتعة والراحة لك خلال المحادثة عندما تكون متعبا . أجابها توم :

أنا لست أفضل منك بل أنا سيء بنسبتك نفسها في هذا المجال وعنيد كالحمار ،ولكنك لست كذلك،واذا كان أبي قد قرر أن يجعلني حمارا أو مغرورا وأنا لست مغرورا لذا كان من المنطق أن أكون حمارا وهذا هو الواقع فعلا. لقد كان يتكلم بيأس . أجابت لويزا:

هذا مثير للشفقة ياتوم ،وهذا من سوء حظنا معا . قال تـــوم:

أوه أنت فتاة يالويزا ،والفتاة تخرج من ذلك أفضل من الولد ،أنت المتعة الوحيدة لي فأنت تستطيعين اضفاء بريق حتى على هـــذا المكان ،وتستطيعين قيادتي كماتشائين .

أجابته لويزا :

أنت شقيق عزيز ياتوم . وعندما تفكر أنه يمكنني فعل أشيـاء كهذه فأنا لا أكترث بأن أعرف أكثر،وعلى الرغم من أنني أعـــرف أفضل ياتوم ،فأنا متأسفة لذلك كثيرا .

ثم تقدمت وقبلته وعادت الى زاويتها مرة ثانية .فقال لهـا توم :

أتمنى أن أجمع كل الحقائق التي سمعناها وكل الأشكال والناس الذين أوجدوا هذه الحقائق وأتمنى أن أضع آلاف الشحنات المتفجرة تحتهم وتحتها معا لأنسفهم واياها. ومهما يكن من أمر فعندما أذهب للعيش مع السيد باي العجوز سوف أنتقم .

تنتقم ياتوم؟

أنا أعني أنني سوف أمتع نفسي قليلا سأرى وأسمع أشياء جديدة . سوف أبدأ ثانية بداية مختلفة عمّا أنشئت عليه .

ولكن ياتوم السيد باي يفكر بطريقة أبيك نفسها وهو أقسى منه كثيرا ووالدنا ألطف منه .

ضحك توم وأجابها :

أنا لا أكترث بذلك فسوف أعرف تماما كيف أدبر باي العجوز وأجعله ليّنا .

ماطريقتك لذلك ياتوم؟ هل هو سر؟

أجابها :

لو كان سرا فانه لم يعد كذلك فخطتي هي الانتشار لأنك قطته الصغيرة والمفضلة عنده . وسوف يفعل أي شيء لك،وعندمايقول لي مالا أحبه فسوف أقول له : ستنزعج أختي لو وتحزن ياسيد باي فهي دائما تخبرني أنك ستكون متساهلا معي أكثر من ذلك،هذا ما سوف ينفع معه ولاشيء غير ذلك .

وبعد أن انتظر ردا منها ولم يحصل على شيء،تطلّع فجأة وسألها :

هل استغرقت في النوم يا لو؟

قالت :

كلا ياتوم أنا أنظر الى المدفأة. أجابها توم :

يبدو أنك تجيدين أشياء أكثر مما أجيد أنا خلال النظر الى المدفأة، وهذه ميّزة أخرى لك كونك فتاة .

وسألها بهدوء وبلهجة فضولية :

هل تتطلعين الى أي تغيير بالنسبة الى السيد باي؟ ثم تابع وهو يدفع الكرسي ويقف هناك :

الحل الوحيد هو الخروج من المنزل .

أعادت لويزا ماقاله : نعم الحل الوحيد هو الخروج من المنزل .

رد توم قائلا: مايؤسفني هو أن أتركك في هذا المنزل، ولكن عليّ أن أذهب وأنت تعرفين ذلك سواء أحببت ذلك أم لم أحببه ، ومن الأفضل أن أذهب الى مكان يوجد فيه بعض الفائدة من خلال دعمك أفضل من الذهاب الى مكان أخسر فيه كل شيء ، آلا ترين ذلك؟

بلى ياتوم.

تأخرت كثيرا قبل أن ترد عليه على الرغم من أنّ ردها جاء دون تردد، مما حدا بتوم أن يتقدم نحو الكرسي الذي يجلس عليه ويتأمل النار التي تتأملها قائلا:

ماذا ترين في هذه النار، لاأظن أنك تشاهدين نقطة نظرك فقط من دون كونها نارا، لاتبدو بالنسبة اليّ الا فارغة وغبية .

أجابته لويزا :

بالتحديد لاأرى فيها ياتوم، ولكن خلال نظري اليها كنت أعجب حول نمونا نحن .

أجابها توم:

تعجبين ثانية ؟

فقالت :

عندي أفكار كثيرة ومعقدة وتثير الدهشة.

قالت السيدة غرند التي فتحت الباب دون أن يسمعها أحد: اذن أتوسل اليك يالويزا. أتوسل اليك مجددا ألا تفعلي شيئا من ذلك الوصف بحق الاله، فوالدك سيغضب كثيرا، من المخجل ياتوم حقا أنّ ولدا أنشىء تنشئتك وثقافته كلّفت الشيء الكثير أن يشجّع أخته على التعجّب وهو يعرف أنّ والده منعها من ذلك .

نفت لويزا أن يكون أخوها فعل شيئا من هذا القبيل، ولكن والدتها وقفتها بالجواب الحازم:

لويزا لاتقولي لي وأنا بهذا الوضع الصحي، أنه لو لم يشجعك أحد فمن المستحيل جسديا ونفسيا أن تفعلي شيئا كهذا.

لم يشجعني ياوالدتي سوى هذه الجمرات الحمر التي تخرج من النار ثم تبيضّ وتموت . فجعلتني أفكر بعد كل ذلك، ما أقصرحياتي وما أضعف الأمل في أن أفعل أي شيء خلال هذه الحياة .

قالت السيدة غرند بقوة: هذا هراء.هراء لاتقفي هكذا وتخبريني بهذا اللفظ بعد كل مافعلناه لأجلك، وبعد كل الدروس التي حضرتها والتجارب التي شاهدتها، وبعد أن سمعتك بنفسي تتكلمين على الجمر والنار، ألم أكون عائلة فقط . وعندئذ كنت ستعلمين ماذا سيحدث من دوني .

الفصل التاسع تقدم سيسي

لم تمض سيسي وقتا سهلا فبين أستاذ المدرسة والسيدة غرنــد كان هناك دوافع قوية لهروبها خلال الأشهر الأولى من اختبارهـا. كانت تشبع بالحقائق اشباعا قاسيا في خلال اليوم كله ،وكانــت الحياة مفتوحة أمامها مثل كتاب الشيفرة عدا المفهوم والمعقـد، وكان من المؤكد لها أن تهرب لولا مانع واحد وهو اعتقادها أنّ والدها لم يهجرها وهي تعيش على أمل عودته وكانت مؤمنة أنـه سيكون سعيدا أكثر ببقائها في هذا المكان. كانت سيسي متعلّقـة بهذا الأمل بجهل تعس . وكان رفضها للفكرة المنطقية التي تقول : انّ والدها كان متشردا كانت تملأ السيد غرند بالشفقة عليها .ولكن ماالعمل؟ أستاذ المدرسة أخبره آنّ لها ذهنا سميكا تجاه الأشكال وكان استيعابها للدروس محدودا جدا. وأنه بعد ثمانية أسابيـع من دراسة أساليب الاقتصاد السياسي،ويوم أمس ذاته ابان سؤالهـا عن المبدأ الأول لهذا العلم كان جوابها هو: أفعل مع الآخرين ما أحب أن يفعلوه معي. هنا لاحظ السيد غرند آنّ الأمر سيء،وأنه يجب ملاحقتها دوما وهذا ماحدث ،ولكنه أدى الى هبوط معنوياتهاوعدم تحسنها ذهنيا .

وفي احدى الأمسيات وبينما كانت لويزا تحاول مساعدتها في حـــل بعض الدروس وتوضيحها استعدادا لليوم التالي قالــت سيسي :

كم هو جميل أن أكون اياك يا آنسة لويزا؟

أجابتها لويزا:

هل تعتقدين ذلك؟

نعم كنت سأعرف أكثر يا آنسة لويزا، فكل مايصعب عليّ الآن كان سيكون سهلا لو كنت مكانك، ولكن لعله يمكنك أن لاتكوني الأفضل ياسيسي.

أذعنت سيسي بعد لحظة تردد بسيطة، لن أكون السوأى يا آنسة لويزا.

وكان جواب لويزا: أنا لاأعرف ذلك.

كان الاتصال محدودا جدا بين لويزا وسيسي لأنّ الحياة في (ستون لودج) كانت تسير رتيبة كالآلة، وبسبب وضع سيسي السابق كانت، ماتزالان غريبتين. كانت سيسي تتطلع بعينيها السوداوين بحيرة في وجه لويزا وهي غير متأكدة من أن تتابع الحديث أو تبقى صامتة؟ قالت لويزا:

أنت أكثر فائدة لوالدتي وأكثر انسجاما واياها مني، وأكثر انسجاما ونفسك مما أنا فيه.

ولكن يا آنسة لويزا. أوه أنا غبية. غبية جدا.

فردت عليها لويزا وهي تضحك ضحكة برّاقة أكثر من المعتاد قائلة: انها سوف تصبح برّاقة أكثر رويدا رويدا. أنت لاتعرفين قالت سيسي وهي نصف باكية: ما أشد غباشي ففي خلال ساعات المدرسة أرتكب أخطاء كثيرة، فأستاذ المدرسة وزوجته دائما يوجهان الأسئلة اليّ وأنا لاأستطيع الرد عليهما ردا جيدا.

سألتها لويزا: أعتقد ياسيسي أنّ الأستاذ وزوجته لايرتكبان أخطاء أليس كذلك؟

كلا وهما يعرفان كل شيء. أخبريني ببعض أخطائك .

أجابتها سيسي باشمئزاز:

أنا أشعر بالخجل،فاليوم مثلا كان السيد (شوكم شايلد) أستاذ المدرسة يشرح لنا عن الازدهار الطبيعي.

علقت لويزا بقولها:

أنت تعنين الازدهار الوطني أليس كذلك؟

أجابت سيسي ثم قالت بحياد:

بلى صحيح ولكن أليس الوطني والطبيعي يؤديان المعنى نفسه .

فأجابتها لويزا بتحفظها:

من المستحسن أن تقولي الوطني كما قال الأستاذ.حسنا الازدهار الوطني وتابع الأستاذ قوله: انّ هذا الصف أمة وفي هذه الأمة يوجد خمسون مليون ليرة . أليست هذه الأمة مزدهرة؟ يافتاة رقم ٢٠ أليست هذه أمة مزدهرة؟ وألست في وضع مزدهر؟

سألتها لويزا: وبم أجبته؟

أجبته : أني لاأعرف ،فكرت أنني لاأستطيع معرفة هل هي أمة مزدهرة أو لا وهل أنا في وضع مزدهر أو لا. الآ اذا عرفت من حصل على المال واذا كان أي جزء من هذا المال يخصني. ولكن هذا لم يجد .

قالت سيسي ذلك وهي تمسح عينيها .

عقبت لويزا بقولها: كان هذا خطأ عظيما منك ياسيسي.

نعم أنا أعرف ذلك يا آنسة لويزا.

ثم قال الأستاذ: انه سيحاول معي مرة أخرى وقال: انّ هذا الصف هو قرية كبيرة فيها مليون مواطن فقط خمسة وعشرون ألف منهم يموتون جوعا في الشوارع كل سنة فما تعليقك على هذه النسبة؟ وكان تعليقي، وهو أفضل ما استطعت التفكير فيه، انّ الصعوبة هي نفسها وبمقدار كبير على هؤلاء الذين يموتون جوعا سواء أكان الآخرون مليونا أم كانوا أكثر، وكان جوابي أيضا خطأ.

بالطبع كان كذلك.

ثم قال الأستاذ: انه سيختبرني مرة أخرى وقال هنا ـ ولفظت سيسي كلمة بطريقة مخطئة صححتها لها لويزا بقولها:

هنا فن وضع التقويم.

نعم يا آنسة لويزا. قال الأستاذ:

انه في وقت محدد ذهب مائة ألف شخص الى البحر في رحلات طويلة وغرق منهم خمسة آلاف فقط أو أحرقوا حتى الموت فما النسبة؟ وأجبته ـ وأجهشت سيسي بالبكاء اعترافا منها بخطئها الكبير ـ وقلت له لا شيء.

لاشيء ياسيسي.

لاشيء يا آنستي بالنسبة الى علاقات الأشخاص الذين قتلوا وأصدقائهم فلن أتعلّم أبدا وأسوأ من كل ذلك أنه على الرغم من أنّ والدي كان يتمنى كثيرا أن أتعلّم، وعلى الرغم من أنني أرغب في التعلّم لأنه يرغب في ذلك فأخشى من أني لن أحب ذلك.

وقفت لويزا وهي تنظر الى الرأس الجميل الخجول ثم سألتهـا :

هل كان والدك يعرف الكثير حتى كان يود أن يعلمك أيضا ياسيسي؟

ترددت سيسي قبل الجواب ،وكانت حذرة جدا وكأنها كانت تدخل أرضا محرّمة مماجعل لويزا تضيف :

لاأحد يسمعنا واذا سمعنا أحد فأنا متأكدة من أنه لايترتب أي أذى على سوء ال بريء كهذا.

أجابت سيسي: كلا ياآنسة لويزا، أبي كان يعرف القليل جدا ممايكفي لأن يكتب وكان الناس يجدون صعوبة في قراءة مايكتبه ، مع أنه كان يبدو سهلا بالنسبة اليّ .

ووالدتك ؟

كان أبي يقول: انها كانت متعلمة ولقد توفيت عندما ولدت . كانت ــ قالت سيسي بعصبية ــ راقصة .

هل كان والدك يحبها ؟

كانت لويزا تسأل هذه الأسئلة بدهشة قوية وباهتمام بالغ .

نعم كان يحبها بشغف مثلما يحبني فأبي أحبني أولا من أجلها .

أخذني معه منذ كنت طفلة ،ولم نفترق منذ ذلك الوقت .

ولكنه تركك الآن ياسيسي.

تركني فقط من أجل مصلحتي فلاأحد يفهمه ويعرفه مثلي. فهو عندما غادر كان قلبه يقطر آسى وهو لن يكون سعيدا ولو دقيقة واحدة حتى يعود.

سألتها لويزا:

أخبريني أكثر عنه ولن أسألك مرة أخرى، أين كنتم تسكنون؟

كنا نسافر حول البلدة ولم يكن لنا مكان ثابت نعيش فيه ،فأبي كان ـ قالت سيسي ذلك هامسة ـ كان مهرجا .

فسألتها لويزا بذكاء :

من أجل اضحاك الناس ؟

نعم ولكن في بعض الأحيان كانوا لايضحكون وهنا كان أبي يبكي وفي الأيام الأخيرة وفي أغلب الأحيان لم يعودوا يضحكون قط،فكان يعود الى البيت وهو في حالة يأس شديدة ،فأبي ليس مثل الكثيرين ممن لايعرفونه جيدا ولايحبونه مثل محبتي له ،لقد كانوا يعتقدون أنه لم يكن على حق كانوا يمارسون عليه أحيانا بعض الحيل،ولكنهم لم يعرفوا قط كيف كان يشعر ويتحمّس عندما يجلس وحيدا معي،فقد كان وديعا أكثر ممايظنون.

أجابتها لويزا :

وكنت أنت راحته الوحيدة ضمن كل شيء ؟

أومأت سيسي برأسها والدموع تترقرق على وجهها :

نعم وأبي كان يقول لي ذلك ولقد أصبح خائفا جدا لأنه كان يشعر أنه فقير،وضعيف ،وجاهل،ورجل فاقد للأمل (هذه كانت كلماته) لذا كان يريدني أن أعرف الكثير وأن أكون مختلفة عنه . كنت أقرأ له لأنعش نفسه وأقوي شجاعته وكان مسرورا جدا بذلك. ولكن نوعية الكتب كانت خاطئة ،عليّ ألا أتكلم على نوعية هذه الكتب هنا ولكننا لم نكن نعلم أنها تشكل أي أذى .

فسألتها لويزا :

وهل كان يحب هذه الكتب ؟

قالت ذلك وهي تنظر نظرة استكشافية الى سيسي طوال الوقت :

نعم كثيرا فقد كانت تبعده وقتا طويلا عمّا يسبّب له أذى حقيقيا ،وكانت تنسيه متاعبه وهو يخمّن هل سيدع السلطان السيدة تكمل القصة أو سوف يأمر بقطع رأسها قبل أن تنهي الرواية *.

سألتها لويزا:

وهل كان والدك دائما لطيفا وحتى النهاية ؟

دائما ،دائما ، أجابتها سيسي ألطف مما أستطيع قوله ،ولكنه غضب في ليلة واحدة فقط،ولكن ليس عليّ بل على كلبه .

لماذا ؟

بعد أن عاد والدي مع كلبه من العرض طلب من الكلب أن يقفز من على ظهر كرسيين وأن يقف عليهما وكانت هذه اللعبة احدى لعباته البهلوانية ،ولكن الكلب نظر الى والدي ولم يقم بالعمل وكان كل شيء في نظره خاطئا في ذلك اليوم بالنسبة الى والدي،ولم يكن قد قام بما يرضي الجمهور آنذاك،فصرخ وهو يقول : انّ كلبه يعرف أنه مخفق،ومع ذلك لايرأف به أبدا وقد ضرب الكلب ضربا مبرحا فخفت عليه ،وقلت له : والدي أرجوك لاتؤذ هذا المخلوق الذي يحبك كثيرا ،لتسامحك السماء ،توقف يا أبي .

وتوقف بعد أن آدمى الكلب وسقط والدي يبكي على الأرض والكلب بين يديه يلحس وجهه . رأت لويزا أنّ سيسي كانت تبكي فذهبت اليها وقبلتها وأخذت يدها ،وجلست بجانبها قائلة : أنهي حديثك ياسيسي باخباري كيف تركك والدك؟

قالت سيسي وهي تغطي عينيها وتبكي :

* يقصد المؤلف بالرواية هنا " ألف ليلة وليلة ".

أتيت ياعزيزتي من المدرسة الى البيت بعد الظهر ورأيت والدي المسكين قد وصل توا الى المنزل أيضا قادما من الدكان المتنقل ، وجلس قرب المدفأة وبدا وكأنه يتألم فقلت له : هل آذيت نفسك ياوالدي؟ وقال :

قليلا ياحبيبتي .

وعندما اقتربت منه ،ونظرت في وجهه رأيته يبكي،وكلما تكلمت معه خبأ وجهه وكان جسمه كله يرتجف ولم يقل شيئا في البداية سوى ياحبيبتي ويا حبي .

وبينما كانتا مستغرقتين في الكلام دخل توم متكاسلا ونظر اليهما ببرود وبدا غير مهتم بشيء سوى نفسه . تحدثت اليه لويزا بقولها :

أنا أسأل بعض الأسئلة ياتوم وبما أنك لن تذهب فلا تزعجنا للحظة ياعزيزي .

حسنا ــ أجابهاــ

لكن والدي قد أحضر معه الى المنزل باي العجوز وأريدك أن تدخلي الى غرفة الجلوس لأنه في حال حضورك فالفرصة كبيرة كي يدعوني باي العجوز للعشاء أما اذا لم تأت فلن أتلق الدعوة . قالت لويزا : سوف آتي حالا . سأنتظرك حتى أتأكد من قدومك . تابعت سيسي بصوت منخفض وفي النهاية قال والدي: انه لم يعد ثمة أية فائدة ،وانه خجول من نفسه وانني سوف أكون في وضع أفضل من دونه .وقد قلت له كل الكلمات الحنون التي أحفظهابقلبي، وكان هادئا وأنا أجلس قربه أخبره عن المدرسة وما يحدث فيها .

وعندما لم يعد هناك شيء أقوله وضع ذراعيه حول عنقي وقبلني مرات كثيرة ،وطلب اليّ أن أحضر له زيوتا من الطرف الثاني من البلدة ،ثم بعد أن قبلني ثانية تركني أذهب وعندما غادرت ثانية لعلّني أبقى برفقته قليلا ونظرت من الباب وقلت له : أبي الحبيب هل آخذ الكلب معي؟ فهز رأسه وقال:

كلا ياسيسي لاتأخذي شيئا معروفا انه لي ياحبي .

وتركته جالسا قرب المدفأة ولابد أنّ الفكرة كانت قد خطرت له كل ذلك الوقت ،مسكين والدي فلقد غادر كي يحاول فعل شيء لصالحي،وعندما عدت كان قد ذهب . وهنا ذكر توم لويزا بالسيد باي،تابعت سيسي ليس هناك المزيد للقول يا آنسة ولقد احتفظت له بالزيوت جاهزة وأنا متأكدة من أنه سيعود. كلما رأيت رسالة في يد السيد غرند التقطت أنفاسي وفتحت عيني وأنا أعتقد أنّ والدي قد أرسلها لي أو أنّ السيد سليري قد بعث بها بخصوص والدي،فقد وعد أن يكتب لي عندما يسمع عنه شيئا ،وأنا واثقة من أنه سيلتزم بكلمته .

وعاود توم تذكير لويزا بوجود السيد باي وبأنه سوف يغادر اذا لم تحضر. منذ ذلك الوقت ما أكثر ما انحنت سيسي للسيد غرند بحضور عائلته وسألته بلهجة مضطربة أستميحك عذرا ياسيدي في ازعاجك ولكن هل تلقيت أي رسالة بخصوص ؟ وكانت لويزا تنتظر الاجابة بلهفة لاتقل عن لهفة سيسي. وعندما كان يرد عليهاالسيد غرند بقوله :

كلا - كلا ياجوب لم أتلق شيئا. كانت شفتاها ترتجفان ووجه

لويزا يعكس التعبير نفسه وكانت عيناها ترافقان سيسي بعاطفة الى الباب . وكان السيد غرند يعقب أنه لو كانت سيسي قد أنشئت انشاء جيدا منذ سن مبكرة لكانت أثبتت لنفسها عدم جدوى هذه الآمال الوهمية. على الرغم من أنه يبدو أنّ الأمل الوهمي كان ينحى منحى قويا كالحقيقة تماما من دون أن يكون للسيد شيء في ذلك فهو لايرى شيئا من هذا .

الفصل العاشر ستيفن بلاك بول

قرية كوك تاون قبيحة تنخر بالعمل الشاق الذي ينقل لنا صورة كفاح العمال ويوضح النوعية التي نشأت والتي تدعى (الأيدي) فالظروف دفعت بالعمال لأن يكونوا أيدي فقط أو مثل المخلوقات الضعيفة الموجودة على شاطىء البحر أيدي ومعدات فقط،وكان يعيش ضمن هذه المجموعة ستيفن بلاك بول،ويبلغ من العمر أربعين سنة ويبدو أكبر من سنّه لأنه عاش حياة قاسية ،ويقال: انّ كل حياة لها أزهارها وأشواكها ويبدو أنّ هناك خللا في قضية ستيفن فأزهاره اقتناها أحد غيره ،واقتنى ستيفن أشواك غيره ، اضافةالى أشواكه ،وكان الناس يسمونه دائما ستيفن العجوز دلالة على الولاء القاسي لهذه الحقيقة. كان رجلا ذا انحناءة ،حاجباه ملتحمان،وهو ذو وجه مغبرّ، نظراته قاسية ،ورأسه عريض يغطيه شعر رمادي طويل وخفيف . وكان يمكنه أن يكون رجلا ذكيا في ظروفه ،ولكنه لم يكن كذلك، فلم يكن له مهمة ضمن الأيدي التي للذين كانوا

يلقون الخطابات ويحملون الشعارات . فالآلاف من زملائه يستطيعون التكلّم أفضل منه في أي وقت . كان حائك نول في معمل وكان مجتهدا وذا استقامة. ولعلّ مايوجد فيه أكثر من ذلك ماكان قادرا على أن يظهره بنفسه .

الأضواء في المصانع الكبيرة التي تبدو عندما تكون مضاءة كالقصور الخيالية ،قد أطفئت وكان أصحاب الأيدي رجالا ونساء والصبية والفتيات يعودون أسرابا الى منازلهم. وكان ستيفن العجوز يقف في الشارع وصوت الآلات مازال يعمل في رأسه.

قال ستيفن:

ولكنني حتى الآن لم أر (راشيل) ،كانت ليلة رطبة ومجموعة من النسوة تمرّ من أمامه ومناديلهنّ على رؤوسهنّ لمنع تبللهنّ بالمطر. كان يعرف راشيل جيدا ومجرّد القائه نظرة على هذه المجموعة كانت كافية ليعلم أنها ليست ضمنهم. ثم قال بلهجة يائسة: لقد افتقدتها. ولكنه لم يمش أكثر من شارعين عندما رأى مجموعة أخرى تتقدم منه ونظر بانتباه لعلّه يرى خيالها على الرصيف الرطب . وكان يمشي بخطوات سريعة بعدما رأى خيالها مارا حتى وصل قربها وصاح: راشيل. استدارت ورفعت قبعتها قليلا فبدا وجهها البيضوي الناعم مشرقا بعينين لطيفتين وشعر أسود لامع لم يكن وجها في أول تفتحه كانت امرأة في الخامسة والثلاثين من العمر .

قالت وابتسامة تشع من وجهها:

هذا أنت ؟

وأعادت قبعتها وذهبا معا .

هل خرجت باكرا اليوم؟

أحيانا أخرج باكرا وأتأخر بعض الوقت أحيانا أخرى.

نظر اليها وبعض اليأس على وجهه ولكن باقتناع كلي في أنها محقة في كل ماتفعله . وتعبيره هذا لم يخف عليها فوضعت يدها على ذراعه قليلا وكأنها تشكره .

نحن ياستيفن صديقان حقيقيان وقديمان كذلك،وبدأنا نعجز.

كلا ياراشيل،فأنت شابة كما كنت .

مهما يكن من أمر ياستيفن من الخطيئة أن نخفي عن بعضنا أي شيء .

وكانت تتحدث معه بسرور وكأنها على اتصال معه .

قال ستيفن خلال سنوات عدة فعلت لي الكثير ياراشيل،وعالمك مهم بالنسبة اليّ ويشكّل شريعتي،وهو أفضل من الكثير من الشرائع الحقيقية وأجابته سريعا :

لاتغضب بسببها ياستيفن. دع الشرائع كماهي.

أجابها :

نعم لندعها كماهي،فالشرائع تشويش وارباك .

أجابته راشيل:

دائما تشويش ؟

قالت ذلك وهي تلمسه برفق وكأنها تريد أن تعيده من شروره وكان للمستها تأثير سريع فيه فاستداربوجهه المبتسم وقال بعد أن استعاد ضحكته المرحة :

صحيح هذا تشويش فأنا دائما أضع نفسي في مواقف كهذه .
سارا مسافة قليلة واقتربا من منازلهما وصلت هي أولا ،وكان منزلها يقع ضمن شوارع صغيرة . وقفت في الزاوية وسلمت عليه متمنية له ليلة سعيدة .

ذهبت بشكلها النحيف ،وخطواتها الخفيفة ،عبر الشارع المظلم ، وبقي ينظر اليها حتى دخلت أحد البيوت الصغيرة . وكان كل مايصدر عنها ذا أهمية خاصة في عيني هذا الرجل،وكل نبرة بصوتها كان لها صدى بقلبه . وعندما غابت عن بصره اتجه نحو منزله وكان ينظر أحيانا الى السماء ،حيث انقطع المطر وبدا أنه قد استمتع في هذه الليلة .

كان منزله يقع في شارع ضيّق فوق دكان صغير. أخذ شمعة من رف في الدكان ومن دون أن يزعج .عاملة الدكان التي كانت نائمة في غرفتها وصعد الى منزله . كانت غرفة نظيفة فيها بعض الكتب والأوراق على مكتب قديم في الزاوية ،وكانت مفروشاتها كافية ومرتبة . وبينما اتجه لوضع الشمعة على الطاولة اصطدم بشيء ، وعندما نظر وجد امرأة تجلس على كرسي. صاح يا لشفقة الله كيف هدت ثانية . مخلوقة سكرى احدى يديها على الأرض والأخرى تلملم بها شعرها عن شعرها. مخلوقة أقذر من أن تستطيع النظر اليها . بثوبها البالي الملوّث وقذر بسمعتها التي كانت تثير الاشمئزاز لرؤ يتها ،وبعد قسم أو اثنين وبعد .الاشارات الغبية منها لملمت شعرها عن عينيها حتى تستطيع أن تلمحه ثم جلست تهز جسمها وترسم اشارات بيدها العصبية ،وكان أمرها يدعو للضحك على الرغم

من أن وجهها كان أحمق وذابلا من النعس وقالت له :

ماذا تفعل هنا أيها الولد؟ بينما كان رأسها متدليا نحو صدرها. فها أنا ذي قد عدت ثانية نعم وسأعود دائما.ولم لا؟

وقفت وهي تستند الى الحائط وتنظر اليه نظرة احتقار وأخذت تقول :

سوف أبيعك ثانية ومرات كثيرة .

وكان يجلس على جانب الفراش ،ووجهه بين يديه وكانت تريده أن يقوم عن الفراش ،وعندما هجمت عليه تجنبها ،وتنحى الى الجانب الآخر من الغرفة ،ردت نفسها على الفراش بثقل ومضت في سبات عميق بينما غرق هو في كرسيه ولم يتحرّك طوال هذه الليلة سوى مـــرة واحدة ،وكان عليه أن يرمي عليها غطاء وكأنّ يديه لم تكونـــا كافيتين لاخفائها حتى في الظلام .

الفصل الحادي عشر ليس ثمة مخرج

كل مايمكننا الحديث عنه الثورة الصناعية وشبه بلدة (كـــوك تاون) بالقصور الساحرة التي تعج بكل ماهو فظيع ،وبالدخان الكثيـف المتصاعد منها ،ففي هذه البلدة لايسمع سوى أصوات الأحذية المسرعة على الأرصفة وقرع أجراس سريع. أما المصانع فتشبه الفيلة ويتصاعد منها دخان يجلب الموت ،والناس يستنشقون هذا السم يوميا بعراكهم مع هذه الآلات الضخمة من أجل كسب العيش .

انحنى ستيفن على آلتـه صامتا متأملا. وكانت المئات مـــن

الأيدي تعمل في ذلك المصنع ومن المعروف مدى تأثير الآلة في العامل .

انتصف النهار والعمل مازال مستمرا في المصنع والأمطار تتساقط بينما شكل ستار كثيف من الدخان والفحم والرماد في الفضاء ،واستمر العمل حتى جرس الغداء. فازدادت قرقعة الأرصفة وخرج الجميع لاستراحة ساعة من الزمن، وخرج ستيفن من المصنع الحار الى الشارع البارد المبتل وهو شاحب اللون وواهن القوى ممسكا بيده قطعة من الخبز،وهو متجه نحو التلة حيث يسكن رئيسه في العمل السيد باوندر باي، وكان منزله ذا شبابيك بأبواب خشبية خضر اللون وباب أسود يحمل لوحة نحاسية كتب عليها باوندر باي وله قبضة نحاسية أيضا ،(النحاس يدل على شخصية باي التي كانت تشبه النحاس) وكان باي يتناول غداءه كما توقع ستيفن،وأخبرته الخادمة أنّ أحد العمال يطلب مقابلته ،وذكرت له اسم ستيفن بلاك بول،ولم يكن هناك أي اشكال حول هذا العامل،فسمح له بالدخول، وقف ستيفن في غرفة الجلوس بينما كان باي يأكل وكانت هذه هي المرة الأولى التي يلمح فيها ستيفن رئيسه ،وكانت السيدة سبارست تحيك الصوف قرب المدفأة وكان أحد مبادئها ألا تتناول طعام الغداء اذ كانت تعد ذلك ضعفا. قال السيد باي:

الآن ما بك ياستيفن ؟

انحنى ستيفن ولكن انحناءته لم تكن ذليلة ،فالعمال لاينحنون بذل ولو بقوا معك عشرين سنة لن تلاحظ عليهم شيئا كهذا ،وتابع السيد باي بعد آن ارتشف قليلا من الويسكي :

أنت تعلم الآن أننا لم نلاق أية صعوبة معك،ولم تكن قط غير منطقي،ولاشك فأنت لاتتوقع أن تجلس في عربة ،وتطعم اللحم بملعقة ذهبية ،كما يأمل الكثر من العمال. اذ انّ السيد باي يتوقع دائما أن يكون هذا هو موضوع طلب أي عامل .

كلا ياسيدي انني لم أحضر من أجل سبب كهذا.

بدا على السيد باي الدهشة فقال:

حسنا دعني أسمع طلبك،هيا ياولد،قل .

في ذلك الوقت كان ستيفن ينظر الى السيدة سبارست التي قالت :

أستطيع الذهاب ياسيد باي اذا أردت ذلك .

أوقفها السيد باي وقال لستيفن:

أنت تعرف أنّ هذه السيدة الممتازة ذات مستوى عال،ولاتظنن أنها بسبب رعايتها لمنزلي ليست ذات مستوى عال،لذا اذا كان ماستقوله لايمكنك البوح به أمامها فعليك أن تغادر الغرفة. واذا كان ماستقوله يمكنك البوح به أمام سيدة محترمةفستبقى مكانها.

وعندما لم يبد ستيفن أي اعتراض بدأ يتحدث رافعا عينيه عن الأرض وقال:

أنا أتيت من أجل أن أطلب نصيحتك التي أحتاجها،فلقد تزوجت منذ تسع عشرة سنة من فتاة جميلة وعلى الرغم من أنني لم أكن زوجا سيئا بالنسبة اليها فقد بدأت أمورها تسوء.

أجابه السيد باي:

لقد سمعت عن ذلك،فقد بدأت تشرب وتترك العمل،وتبيع المفروشات وترهن الثياب وتدمر كل شيء .

آجابه ستيفن:

كنت صبورا معها جدا وحاولت اصلاحها مرات وبطرق مختلفة ، وما أكثر ماذهبت الى البيت ورآيتها ممددة على الأرض العارية ،وقد حدث ذلك مرات عدة .

كان كل خط في وجهه يكفهر خلال حديثه هذا ،وكان ذلك دليلا على عذابه .

كانت تنتقل من سيء الى أسوآ وكانت تحقر نفسها في كل مكان تحقيرا قاسيا ،وكانت داشما تعود،فماذا أستطيع أن أفعل لوقفها؟ كنت آتمشى عبر الشوارع ليالي طوالا ،وعجزت عن فعل أي شيء .

كانت السيدة سبارست تنظر اليه وتهز برأسها قائلة : الكبير يعرف المشكلات كالصغير تماما .

وتابع ستيفن قوله :

كنت أدفع لها حتى تبقى بعيدة عني طوال السنوات الخمس الأخيرة وعشت عيشة قاسية وحزينة ولكن لم آخجل من تفاصيل حياتي،وفي الليلة الماضية ذهبت الى المنزل ووجدتها مستلقية .

كان ينظر الى السيد باي بتعابير مستفسرة تدل على ذكائه وقلقه فقال له باي:

كان من الأفضل لك آلا تتزوج،على كل من المتأخر جدا آن أقول لك ذلك .

تساءلت السيدة سبارست :

هل كان زواجا غير متكافىء من حيث العمر ياسيدي ؟

قال السيد باي:

سمعت ماسألت السيدة هل كان زواجا غير متكافىء؟

كنت في الواحدة والعشرين بينما هي في التاسعة والعشرين .

قالت السيدة سبارست لباي بهدوء شديد هذا ما أستنتجه من كونه زواجا تعسا. انه العمر غير المتكافىء .

نظر السيد باي الى السيدة سبارست نظرة جانبية قاسية جدا وجرع رشفة أخرى من الويسكي وكان سبب نظرته القاسية تلك كونه كان يريد الزواج من لويزا وهي أصغر منه كثيرا.

حسنا لماذا لاتتابع؟ قال باي ذلك وهو ينظر بنزق الى ستيفن أتيت ياسيدي لسوءالك : كيف أستطيع التخلّص من هذه السيدة ؟

كان ستيفن يتحدث بنبرة حزينة تنعكس على وجهه .

شهقت السيدة سبارست لدى سماعها ذلك وكأنها تلقت صدمة أخلاقية .

قال السيد باي:

ماذا تعني؟ عمّ تتكلم؟ لقد تزوجتها بخيرها وشرّها .

قال ستيفن يجب أن أتخلّص منها لم أعد أتحمّل المزيد ولسوف أجن بسببها.

عقبت السيدة: هو يريد أن يصبح حرا كي يتزوج من سيدة أخرى ياسيدي .

قالت ذلك بنبرة مستاءة من عدم وفاء الناس .

قال ستيفن:

هذا صحيح السيدة تقول الحق أنا آنوي ذلك. فلقد قرأت بعض

الأوراق التي تسمح للأغنياء بالانفصال والزواج مرة ثانية وذلك عندما لايكون ممكنا الوفاق بين طبائع الزوجين وبمقدورهما الانفصال وأن يعيش كل واحد منهما في غرفته في المنزل نفسه ولكن بالنسبة الينا لانستطيع ذلك لأنه لايوجد عندنا سوى غرفة واحدة ،كما أنه يحق لهما الانفصال، على الرغم من أنّ أخطاءهما تكون غير كبيرة كأخطائنا ،ولذا عليّ التخلص من هذه مرأة ولكن لا أعرف كيف أحقق ذلك .

سأل ستيفن السيد باوندر باي :

اذا أذيتها ياسيدي فهل هناك قانون يعاقبني؟

طبعا هناك .

أجابه باي .

اذا هربت منها هل هناك قانون يعاقبني؟

طبعا .

اذا تزوجت سواها هل هناك قانون يعاقبني؟

نعم يوجد .

اذا عشت معها من دون زواج هل يعاقبني القانون عن كل طفل يمتّ اليّ بصلة ؟

بالطبع .

والآن باسم الله ـ قال ستيفن ـ أعطني قانونا يساعدني .

قال السيد باي:هناك نوع من القدسية في هذه العلاقة في الحياة ويجب المحافظة عليها.

لا لاتقل ذلك ياسيدي، لابد من وجود طريقة ما ،فمنذ كنت

طفلا وأنا أعمل في مصنع ،ولكنني أقرأ وأسمع أنه لابد من وجود طريقة لفك الارتباط سواء بالحرب أو القتل أو الموت فأرجو مساعدتي لمعرفة القانون الذي ينقذني .

أجابه السيد باي وهو يضع يديه في جيوبه :

هناك قانون لمساعدتك ولكنه لايناسبك لأنه يكلّف الكثير من المال .

سأله ستيفن بهدوء : كم؟

حسنا عليك الذهاب الى قاعة المحكمة ببزة ،والى قاعة اللوردات ببزة أخرى،والى البرلمان الذي يسمح لك بالزواج مرة أخرى ببزة أخرى وسوف يكلّفك ذلك كما أعتقد من ألف الى خمسة عشر ألفا وربما ضعف هذا المبلغ .

ألا يوجد قانون آخر؟

بالطبع لا.

اذن ياسيدي ـ قال ستيفن وهو ينظر اليه بشحوب ـ :

هذا تشويش ومن الأفضل أن أموت .

حزنت السيدة سبارست مرة ثانية من الحاد الناس .

وقال السيد باي:لاتتكلم ، لاتنقل سخافات كهذه حول أمور لاتفهمها ،ولا تسمّ المؤسسات في بلدتك بأنها مشوشة والا فسوف توقع نفسك في ارباك حقيقي في أحد الأيام ،فالمؤسسات في بلدتك ليست من اختصاصك،وكل ماعليك عمله هو التفرّغ لعملك فقط. فأنت لم تتزوج زواجا سريعا ومؤقتا ولكنك تزوجت مدى الحياة بحلوها ومرها ،فاذا ماتحولت الى حياة سيئة فانّ كل مايمكنك قوله

لعلني أتحول نحو الأفضل .

قال ستيفن،وهو يهز رأسه متجها نحو الباب :

انها ارباكات .

قال السيد باي كلمة وداع له :

آراؤك المدنسة قد أصابت هذه السيدة بصدمة وهي كما قلت لك سيدة راقية ،وما لم أقله لك أنها نكبت زوجها كلفة عشرة آلاف ليرة وأنت كنت دائما حتى الآن عاملا جيدا ،ولكن بدأت تسير في الطريق الخاطئ ،وبدأت تستمع الى بعض الآراء المؤذية ،والأفضل لك أن تخرج من كل ذلك،فأنا أعرف أكثر منك كثيرا .

غادر ستيفن بعد أن شكر السيد باي وتمنى له يوما سعيدا ، تاركا السيد باي والسيدة سبارست تجلس كئيبة بسبب خطايا المجتمع.

الفصل الثاني عشر المرأة العجوز

نزل ستيفن الدرجين الأبيضين التابعين لمنزل السيد باي،بعد أن أغلق الباب الأسود ذا القبضة النحاسية وعبر الشارع وعيناه مسمرتان في الأرض ،كان يمشي حزينا عندما شعر بلمسة على كتفه. لم تكن هذه اللمسة هي التي يحتاج اليها في تلك اللحظة . اللمسة التي كانت ستهدئ روحه المتعبة . كما يمكن يد الحبيبة الجليلة أن تخفف من هيجان البحر (كان محتاجا الى لمسة يد حبيبته) وعلى الرغم من ذلك كانت يد امرأة أيضا . كانت امرأة عجوزا طويلة ، ومنظرها مقبولا على الرغم من كبر سنها . كانت تلبس ثيابا أنيقة

ونظيفة جدا ،وكان على حذائها بعض الوحل كأنها كانت قادمة حديثا من رحلة . كان اضطراب تصرفها ،والمنديل الذي تحمله حول يدها ،والمظلة الثقيلة ،وسلتها الصغيرة وقفازاتها كل تلك الأشياء كانت تتحدث عن امرأة أتت الى كوك تاون لأمر في غاية الأهمية .

نظر اليها ستيفن بوجه يحمل نظرة عميقة ،تنم على تعب وارهاق . سألته السيدة :

عفوا ياسيدي ألم أرك تخرج من منزل ذلك السيد ؟

قالت ذلك وهي تشير الى منزل السيد باي. أنا واثقة أنه أنت ، الا اذا كان حظي السيء قد أخطأ الشخص .

أجابها ستيفن:

بلى ياسيدتي أنا هو ذلك الشخص .

هل أرجو أن تعذر فضول امرأة عجوز،هل رأيت السيد؟

نعم ياسيدتي.

وكيف كان يبدو ياسيدي؟ هل كان مهيبا قويا وصادقا ؟

وبينما كانت تعدل من شكلها حتى يتطابق وكلامها خطرت في فكر ستيفن أنه رأى هذه المرأة من قبل،وأنه لم يحبها كثيرا.

نعم - أجابها- انه كل ماقلت .

وهل هو في صحة جيدة ؟

نعم كان يأكل ويشرب .

قالت المرأة وهي مسرورة جدا :

شكرا لك .

فكر ستيفن أنه حتما لم ير هذه المرأة من قبل،وعلى الرغم

من ذلك كان هناك ذاكرة غامضة في ذهنه ،وكأنه قد حلم أكثر من مرة بامرأة عجوز مثلها ، مشت الى جانبه ،وبدأ يحدثها بلطف قائلا:

كوك تاون مكان مزدحم أليس كذلك ؟

أجابته :

مزدحم جدا .

ثم سألها :

أرى أنك قد أتيت من المدينة ؟

أجابته بالايجاب . أتيت من مسافة أربعين ميلا هذا الصباح وساعود المسافة نفسها هذا المساء . مشيت الى المحطة هذا الصباح مسافة تسعة أميال واذا لم أجد أحدا ينقلني على الطريق فسوف أمشي الأميال التسعة هذه الليلة ،وهذا جيد بالنسبة الى عمري .

قالت العجوز الثرثارة ذلك وعيناها تلمعان بفرح .

ولكنك لاتفعلين ذلك دائما ياسيدتي؟

كلا مرة في السنة . فأنا آتي بانتظام مرة كل سنة لأتجول في الشوارع ،وأرى السادة .

هل لروءيتهم فقط ؟

انه سوءال ستيفن لها ، أجابته :

هذا كاف بالنسبة اليّ فأنا لاأطلب أكثر وقفت على هذا الجانب من الشارع لروءية ذلك السيد – وكانت تعني السيد باي – ولكنه تأخر هذه السنة وخرجت أنت عوضا منه ،واذا ما اضطررت الىأن أعود من دون أن ألمحه فكل ماأريده هو لمحة منك،حسنا لقد رأيتك،

وأنت رأيته وهذا يكفي.

ونظرت الى ستيفن وهي تقول هذا وكأنها تريد أن تثبت ملامحه في ذهنها،ولم تكن عيناها تلمعان كما كانتا من قبل .

هذه الأمور جعلته يشعر بقلق،وبينما كانا يعبران الكنيسة نظر ستيفن الى الساعة وأسرع بخطاه.قالت المرأة وهي تسرع أيضا:

هل كان ذاهبا الى عمله ؟

نعم،فالوقت قد حان وما ان ذكر لها مكان عمله حتى بدا عليها الكثير من الاستغراب،وسألته ألست سعيدا؟ فأجابها:

ليس من أحد لايوجد لديه مشكلات ياسيدتي؟

المرأة كان يبدو عليها أنها تتوقع أنه سعيد جدا ولم يكن يريد أن يخيب أملها فيه،فقد كان يعرف أنه يوجد مشكلات كافية في العالم. سألته:

أنت تعني أنه لديك مشكلات في المنزل؟ أجابها اجابة مقتضبة:

من حين الى آخر. فأجابته:

ولكن العمل باشراف سيد كهذا لابد أنه يمنع أن تلحقك المشكلات الى المصنع .

فرد ستيفن:

كلا لا تتبعني المشكلات الى هناك. كل شيء هناك يسير سيرا صحيحا ودقيقا.

ولكنه لم يتابع قوله: انّ هناك نوعا من الحق المقدس،هناك في المصنع. اقتربا من المصنع،وكان العمال يتوافدون الى الداخل

والجرس يقرع ،والدخان في بداية تصاعده ،والمعمل بدأ يعمل وكانت هذه المرأة الغريبة مسرورة بهذا الجرس ،وكأنه أجمل جرس سمعته في حياتها وصوته جهوري. وعندما توقف ستيفن للسلام عليها قبل دخوله سألته :

منذ متى تعمل هنا؟ أجابها :

منذ اثنتي عشرة سنة .

فقالت :

عليّ أن أقبّل اليد التي تعمل في المصنع الجيد، منذ اثنتي عشرة سنة.

ورفعت يده وهو يحاول تجنّب ذلك ووضعت شفتيها عليها.

ماهذا التناسق المحيط بها اضافة الى عمرها وبساطتها، انه لايعرف ،ولكن حتى في هذا التصرّف الغريب كان يوجد شيء ليس خارج الوقت والمكان،شيء ما وكأنه لاأحد سواها يمكنه أن يفعله بالجدية والطبيعية والجو المؤثر نفسهما .

انكب على نوله مدة نصف ساعة وهو يفكر في هذه المرأة العجوز. وعندما أتيحت له فرصة ترك النول لحظات من أجل ضبطه نظر من النافذة فوجدها ماتزال تنظر الى البناء باعجاب من دون أن تفكر بالدخان والوحل والرطوبة ،وبالرحلتين الطويلتين الشاقتين بالنسبة اليها ،وكأنها كانت تسمع موسيقى ممتعة.

ذهبت المرأة ،وانتهى النهار،وكان وقتا طويلا،قبل أن يعود بأفكاره الى غرفته التعسة ،والى الشخص الثقيل المخزي المستلقي على فراشه ،وهو يرزح بثقل على قلبه. هدأت الآلات وتوقف العمل،صحيح

أنه قد تحدّث الى راشيل الليلة الماضية فقط،وتمشى معها قليلا ، ولكنه يشعر بسوء حظه ،وبأنه لاأحد سواها يستطيع اعطاءه لحظة راحة ،ولأنه يعلم أنه محتاج الى من يخفف غضبه وأنه لاصوت سوى صوتها يوءثر فيه. لقد شعر أنه عليه انتظارها مرة ثانية .

لقد انتظر ولكنها تملصت منه وذهبت ،ولم يكن في أيةليلة محتاجا اليها مثلما هو محتاج اليها اليوم. ورأى أنه من الأفضل ألاّ يكون له منزل يأوي اليه اذا كان على شاكلة منزله التعس في ظروف كهذه ،لقد كان مجهدا فأكل وشرب دون اهتمام بالمضمون ، وبدآ يتجوّل تحت المطر،وهو يفكّر ويفكّر .

لم يجر بينهما حديث حول زواج جديد ولكن راشيل كانت تتعاطف واياه منذ سنوات ولها وحدها فتح قلبه المغلق كل ذلك الوقت ،وكان يتحدّث اليها حول تعاسته ،وكان يعرف تماما أنه لو كان حرّا وطلبها للزواج لكانت ستوافق،وأخذ يفكّر في المنزل الذي كان سيجمعه واياها بسعادة وفخر،وبأنه كان سيكون رجلا مختلفا ولاسيما بالسعادة التي كانت ستغمر صدره المثقل بالهموم .

فكّر في ضياع أفضل مدة من حياته وفي التحوّل الذي يطرأ على شخصيته نحو الأسوأ كل يوم حول طبيعة وجوده التعس بارتباطه بامرأة ميتة وبالعذاب الذي يلاقيه من شكلها وتصرّفاتها ،فكّر في راشيل وفي شبابها عندما التقيا أول مرة في مثل هذه الظروف والام أصبحت الآن.. وفكّر في العدد الكبير من الفتيات والنساء اللواتي تزوجن،وراشيل تراقبهن،كم من البيوت والأطفال في داخلها

شاهدتهم يكبرون حولها ،وكيف تابعت بصمت مسيرتها الطويلة وحيدة لأجله ،وكيف كان يرى أحيانا مسحة من الحزن على وجهها المبارك ٠ وكان ذلك يملأه بالتعاسة واليأس ٠

وضع صورتها أمام الصورة المخزية التي رآها الليلة الماضية وتساءل:

هل من المعقول أنّ شخصا جيدا لطيفا وناكرا لذاته يقهر أمام شخص تعس ومحتقر ٠

عاد الى منزله وهو مليء بهذه الأفكار السوداوية ٠

الفصل الثالث عشر راشيل

دخل ستيفن حزينا الى منزله بخطوات بطيئة ،وكانت الغرفة هادئة وساكنة وكانت راشيل هناك تجلس على السرير أدارت رأسها وأضاء وجهها عتمة قلبه ،وكانت تراقب زوجته وتعتني بها٠ فقد رأى شخصا ما يستلقي على السرير،وعلم أنه لابد أن تكون زوجته ولكن يدي راشيل كانتا كالستارة٠ لذا لم يستطع رؤيتها٠شيابها المقرفة كانت قد استبدلت بها ثياب أخرى تخص راشيل٠ كل شيء كان في مكانه منظما ،وكانت المدفأة الصغيرة مشتعلة ،والأرض ممسوحة منذ مدة قصيرة٠ بدا أنه رأى كل ذلك في وجه راشيل،ولم يكن ينظر الى شيء سواها ،كانت عيناه وعيناها مبللة بالدموع٠ نظرت مرة أخرى الى السرير وتكلمت بصوت منخفض هادىء ومسرور:

آنا مسرورة ياستيفن أنك أتيت أخيرا ،فلقد تأخرت كثيرا٠

كنت أتجول ذهابا وايابا .

أجابها ستيفن .

اعتقدت ذلك ولكن الجو غير ملائم ،فالأمطار تتساقط غزيــــرة والهواء يصفر .

الهواء صحيح،كان يصفر بقوة ولكن لم أكن أشعر بشيء كهذا .

لقد حضرت الى هنا ،ياستيفن،اليوم مرة قبل الآن،فصاحبة المنزل حضرت الى عندي وقت الغداء وأخبرتني أنّ أحدا في هذه الغرفــــة يحتاج الى رعاية وقد كانت محقة ،فزوجتك كانت متعبة جدا وجريحة أيضا أو مرضوضة .

تحرّك ببطء وجلس على كرسي.

حضرت ياستيفن لأعمل مابوسعي لأنني أولا كنت أنا واياهـــا نعمل معا عندما كنّا فتيات ،ومن ثم تزوجتها أنت عندما كنـــت أنا صديقتها .

وضع جبينه العابس بين يده وصدره وأصدر تأوها خافتا . ثم تابعت :

وثانيا لأنني أعرف قلبك،وأنا واثقة من أنك أرحم كثيــرا من أن تدعها تتعذب وهي محتاجة الى المساعدة . فأنت تعرف مـــن قال: (من منكم بلا خطيئة فليرمها بأول حجر) . وأنت لست الرجـل الذي يرميها بآخر حجر ياستيفن،فهي في وضع تعس جدا .

آوه راشيل. راشيل. اذا كنت قد تعذبت بقسوة ،فالسماء سوف تكافئك .

قالت له راشيل بنبرة عاطفية :

وانا صديقتك بكل قلبي وعقلي.

انّ الجروح التي تحدثت عنها في عنق زوجة ستيفن اضطرتها الى أن تصبّ بعض السائل من زجاجة برفق على الجرح. فقد كان يوجد على الطاولة الموضوعة قرب السرير زجاجتان تلك كانت احداهما، وبما أنّ ستيفن كان يتابع ماتفعله يداها بعينيه استطاع أن يقرأ ماكتب على الزجاجة وشعر بخوف مفاجىء. قالت له راشيل :

سأبقى هنا ياستيفن حتى الثالثة اذ يجب اعطاوءها من الزجاجة نفسها الساعة الثالثة ،ومن ثم يمكنني تركها حتى الصباح.

ولكن عليك ياعزيزتي أن تذهبي الى العمل صباحا.

نمت جيدا البارحة وأستطيع الصحو لليال عدة آخرى،وأنت من هو محتاج الى الراحة ،فأنت شاحب ومتعب حاول النوم على ذلك الكرسي بينما أراقبها أنا،فأنت كما أعتقد لم تنم البارحة وغدا عملك أصعب من عملي .

سمع صوت البرق من الخارج وأحسّ بأنّ غضبه قد بدأ يتلاشى فقد امتصت غضبه وهو واثق من أنها تستطيع حمايته من نفسه .

قالت له راشيل:

انها لم تعرفني ياستيفن،كل مافي الأمر أنها حدقت بي وتمتمت بعض العبارات وتكلمت معها كثيرا ،ولكنها لم تلاحظني، وعندما تعود الى رشدها مرة أخرى فسوف أفعل مابوسعي كي تبقى على هذه الحال .

ياراشيل! قال الطبيب : انها ربما تعود الى الوعي غدا.

صعدت عيناه الى الزجاجة ومرت رعشة بجسمه سببت رجفة في كل

أطرافه واعتقدت أنه يرتجف تحت وطأة البرد بسبب المطر .

وقال:

كلا لم يكن ذلك هو السبب .

فلقد كان خائفا.

نعم عندما كنت

أمشي وأفكر...

وقف وهو يمسك شعره بيده .

قالت له وهي تقترب منه :

ستيفن .

ولكنه مد يده لمنعها.

كلا أرجوك دعيني أرى قرب السرير دعيني أرى كم أنت جيدة ومسامحة دعيني أرى وفق الوضع الذي رأيتك فيه عندما دخلت فلا أستطيع أن أراك بوضع أفضل من ذلك أبدا.

ارتجف ارتجافا شديدا وغاص في كرسيه وبعد لحظة ضبط نفسه وكوعه على ركبته ،ويده على رأسه ،واستطاع النظر الى راشيل ، وكانت عيناه مبللتين،بينما بدت راشيل وكأنه ثمة شعاع ممجد حول رأسها، وكان يوء من أنها كذلك .

عندما تتحسّن حالتها ياستيفن يرجى أن تتركك وشأنك مرة ثانية ،وألا تؤ ذيك،هذا مانرجوه الآن. وسأصمت لأنني أريدك أن تنام

أغمض عينيه وكان يود أن يرضيها أكثر من أن يريح رأسه المتعب ،ولكن وبعد أن كان يستمع الى صوت الريح كف من سماعه له وبدأ يتخيّل سماع صوت نوله ،ويسمع أصواتا سمعها في الصباح،ومن

ثم استغرق في نوم عميق وحلم حلما طويلا مزعجا. حلم أنه وحده يحبها كثيرا ،ولكنها ليست راشيل وهذا مافاجأه وهو واقف في الكنيسة يتزوج،وبينما كان الاحتفال قائما ،وبينما تعرّف بين الشهود على بعض من يعرفهم ممن لايزالون على قيد الحياة وكثيرين غيرهم وهو على علم بأنهم متوفون ساد الظلام الكثيف وغطى على الضوء المبهر،ثم مالبث المشهد الذي أمامه أن تغيّر ولم يبق شيء سواه والكاهن،وقد وقفا في ضوء النهار أمام جمع ضخم فاذا ما تجمّع كل الناس في العالم معا فلن يكون عندهم أكثر من هذا الجمع وكانوا كلهم يكرهونه ،ولم تكن هناك عين تنظر في وجهه بعطف وصداقة بين الملايين من المحترمين. وقف على منصة مرتفعة وكان نوله أمامه وهو ينظر الى الشكل الذي يأخذه النول،وكان يسمع لوازم الدفن وطقوسه تقرأ بهدوء ،وكان يعلم أنهم يجرون طقوسا لدفنه وفجأة سقط ماكان يقف عليه واختفى تماما.

عاد الى حياته الطبيعية من حالة الغموض الى الأماكن التي يعرفها ويستطيع التركيز فيها ،عاد الى تلك الأماكن التي عرفها سابقا متعجبا من غير أمل وهو يبحث عن شيء لايعرف ماهو ،وكان يتملكه خوف كبير من نموذج معيّن،وكل ماكان ينظر اليه كان يرمز الى ذلك النموذج .

كانت الرياح تعصف ثانية ،والمطر يهطل قويا ،والمدفأة قد انطفأت ،وبدت راشيل وقد غفت على كرسي قرب السرير بهدوء تام، وكانت الطاولة مستقرة قرب السرير ،خيّل اليه أنه شاهد الشارة تتحرك

تطلع ثانية وتأكد من أنها تحرّكت وشاهد يدا تتقدم ،والمـــرأة
لتي في السرير تجلس بعينيها القاسيتين والبشعتين والواسعتيـــن
تطلعت حول الغرفة ومرت من الزاوية التي ينام فيها على كرسي .
عاودت النظر تتطلع الى تلك الزاوية وتتأمل راشيل. انها زوجته
التي تزوجها منذ ثمانية عشر عاما ،ولكنه لم يصدق قط أنهـــا
المرأة نفسها .

كان وكأنه لعنة منصبة عليه كان من دون حركة ومن دون قوة
كان يراقبها فقط .

جلست بغباء ويداها على آذنيها وأول مرة تركزت عيناهـــا
على الطاولة التي تحمل الزجاجتين أعادت النظر باتجاهه بالتحـــدي
نفسه الذي أبدته الليلة الماضية ،وتحركت بحذر وهي تتساءل أيـــة
واحدة من الزجاجتين تختار ،وأخيرا وضعت قبضتها على الزجاجـــة ،
على الموت السريع ،ومن المؤكد أنّ كل ذلك تمّ أمام ناظريه وقـــد
نزعت السدادة بأسنانها. أهذا حلم أم علم؟ لم يكن له قوة على
التركيز،فاذا كان هذا حقيقة فاستيقظي ياراشيل. نظرت الـــى
راشيل وبهدوء وحذر صبّت من محتوى الزجاجة ،وكانت الجرعة علـــى
شفتيها وفي اللحظة نفسها قفزت راشيل صارخة ،قاومتها الزوجـــة ،
ضربتها ،وشدت شعرها ،ولكن راشيل حصلت على الكأس . انتفض ستيفن
من كرسيه قائلا :

راشيل .. أأنا مستيقظ أم أحلم .

في هذه الليلة المخيفة أجابته :

كل شيء على مايرام الآن. لقد نمت أنا أيضا ياستيفـــن ،

وقاربت الساعة الثالثة أنا أسمع الأجراس .

لقد أدى صوت الريح الى آن تسمع أصوات ساعة الكنيسة قرب النافذة .

نظر ستيفن اليها ورأى كم هي شاحبة ،ولاحظ تبعثر شعرها وعلامات الأصابع الحمر على جبينها ،وتأكد تماما من أنه صاح فقد كانت ماتزال تحمل الكأس في يدها حتى هذه اللحظة .

قالت وهي تسكب محتوى الكأس في حوض :

أعتقد أنّ الساعة الآن هي الثالثة .وأحمد الله أن بقيت حتى الآن،وأفرغت محتوى الكأس كله ، انها تقول :

من الخطر ابقاء ولو القليل منه وكسرت الزجاجة على الأرض ،لم يعد هناك ماتفعله سوى أن تلف نفسها بشالها قبل خروجها في الريح والمطر.

دعيني أمشي معك في مثل هذه الساعة ياراشيل .

كلا ياستيفن دقيقة واحدة وأكون في منزلي .

قال بصوت منخفض وهما يخرجا من الباب :

ألا تخافين أن تتركيني وحيدا معها ؟ وبينما كانت تنظر اليه قالت :

ستيفن ؟

ركع أمامها وقبل نهاية منديلها قائلا :

أنت ملاك الرب يباركك .

أنا كما قلت لك ياستيفن صديقتك المسكينة . فالملائكة ليسوا مثلي. فبينهم وبين امرأة عاملة مثلي مليئة بالذنوب هناك

فجوة عميقة ،ولعل أختي الصغيرة بينهم غير أنها تغيّرت . رفعت عينيها قليلا وهي تقول ذلك ثم أرختهما وهي تنظر اليه بوداعة وحنان.

فقال لها ستيفن:

أنت حولتني من سيء الى جيد،وجعلتني أشعر برغبة في أن أصبح مثلك وأن أخاف أن أخسرك،فأنت ملاك لأنك أنقذت روحي،وهي حيّة .

نظرت اليه وهو لايزال راكعا ومنديلها في يده تابع قوله :

أتيت الى المنزل وأنا يائس من غير أمل،وكما قلت لك ،كنت خائفا من زجاجة السم على الطاولة ،فأنا لم أوذ أي مخلوق حي قط ولكنها فكرة راودتني،كيف أعبّر عمّاكنت سأفعله لنفسي ولها . وضعت يديها الاثنتين على فمه وكان وجهها خائفا ،وكانت تريد وقفه عن التكلّم أكثر فأمسك بيديها قائلا :

ولكني رأيتك ياراشيل جالسة عند السرير،وخلال نومي شعرت أنك مازلت هناك،فلم أعد أفكر فيها الآ وأنت بقربها،ولم أعد أفكر في أي شيء يغضبني.

قبل طرف منديلها مرة ثانية وتركها تذهب بعد أن قالت له بصوت مكسور:

لتصبح على خير .

وخرجت الى الشارع. عصفت الريح وبدأ النهار يظهر بعدأن توقف المطر. وقف برأس عار في الشارع ،وهو يراقب اختفاءها السريع ،وكما النجوم المشعة بالنسبة الى الشمعة في النافذة هكذا كانت

راشيل في مخيّلة هذا الرجل وفي تجارب حياته .

الفصل الرابع عشر صاحب المصنع العظيم

على الرغم من مرور سنوات عدة الا أنّ الوقت مايزال في بلدة (كوك تاون) يسير رتيبا كالآلة .

قال السيد غرند:

أصبحت لويزا امرأة صغيرة والوقت يمر،وأصبح توماس الصغير أطول بنحو قدم عمّارأيته في المرة الأخيرة. انّ توم أصبح رجلا صغيرا وقد حان الوقت لكي يعمل عند السيد باي .

بدأ العمل في بنك السيد باي وبعد أن اطمأن عليه السيدغرند بدأ يفكّر في موضوع سيسي فقال لها:

أخشى ياجوب ألّا تكون ثمة جدوى من متابعتك في المدرسة أكثر من ذلك .

أجابته سيسي،بانحناءة :

هذا ما أخشاه ياسيدي .

أجابها السيد غرند:

لاأستطيع أن أخفي عليك أنّ نتائج معدلك أصابتني بخيبة أمل كبيرة ،فأنت لم تستفيدي من أستاذ المدرسة ،وزوجته المعرفة الكافية التي تطلعت اليها ،فأنت عاجزة عن الاستيعاب ،بل لقد عدت الى الوراء ونتائجك أقل من المعدل .

أجابته :

أنا آسفة ياسيدي ماتقوله صحيح،على الرغم من أنني حاولت بقوة .

فأجابها السيد غرند:

أنا أؤمن أنك جربت بقوة ولاشك عندي في ذلك .

شكرا ياسيدي، ردت سيسي بهدوء.

وتابعت :

فكرت أحيانا في أنني ربما حاولت أن أتعلّم كثيرا ولكن لو حاولت بنسبة أقل ربما.

كلا كلا ياجوب - قال السيد غرند وهو يهز رأسه بأسلوب عميق ومدروس - لاأمل يرجى من ذلك أكثر،كل ماأستطيع افتراضه أنّ الظروف في حياتك المبكرة أدت الى هذا الأمر ويبدو أننا قد بدأنا متأخرين وكماسبق أن قلت لك فلقد أصبت بخيبة أمل .

كنت أود ياسيدي أن أبرهن على تقدم أفضل ولاسيما بعد ماأبديت من لطف نحو فتاة مسكينة مثلي،وحمايتك لها.

لاتذرفي الدمع فأنا لاأتذمر منك فأنت امرأة صغيرة جدا، وعاطفية ويجب أن نستفيد من تلك الميّزات .

شكرا جزيلا ياسيدي .

وانحنت باحترام بالغ .

أنت مفيدة للسيدة غرند وللعائلة جميعها هذا مافهمته من لويزا وهذا مالاحظته بنفسي، ولذا أرجو أن تكوني سعيدة بعلاقاتك في هذا المنزل، لم أكن أتمنى شيئا ياسيدي لو ...

أنا أفهمك - قال السيد غرند- أنت مازلت تفكرين في والدك

وقد سمعت من لويزا أنك مازلت تحتفظين بالزجاجة .

حسنا لو نجحت بالوصول الى النتائج المحددة في العلوم لكنت أكثر فهما في هذه الأمور وأفضل،ولن أتكلم أكثر.

لقد كان يحب سيسي ويتعاطف وإياها،وقد ظهرت تغيّرات على سيسي وتوم في سنة أو سنتين،بينما بدا السيد غرند ثابتا في موقعه من دون أي تغيير سوى أنه قد أصبح عضوا في البرلمان لبلدة (كوك تاون)،وكان أحد الأعضاء المحترمين. في كل هذه الأثناء كانت لويزا ماتزال هادئة في الموقع نفسه إلا أنّ والدها قال وهو مسرور:

لقد أصبحت امرأة شابة .

وبعد اكتشافه هذا بدا عليه طوال أيام عدة تفكيرمتواصل في موضوع واحد.

ففي احدى الليالي وبينما كان خارجا،وكانت لويزا قد دخلت لتسلّم عليه قبل مغادرته لأنه لن يعود الى البيت إلا متأخرا،ولن تراه ثانية حتى الصباح أمسك بها بين ذراعيه وتطلّع اليهابلطف وقال :

عزيزتي لويزا،أنت امرأة .

أجابته وهي تنظر اليه النظرة القديمة السريعةالباحثة نفسها التي نظرت بها اليه عندما وجدها في السيرك ثم خفضت عينيها قائلة :

نعم ياوالدي .

قال السيد غرند:

ياعزيزتي يجب أن أتكلم واياك كلاما جادا ونحن منفـــردان فتعالي غدا الى غرفتي بعد الافطار، أتستطيعين؟

نعم ياوالدي .

يداك باردتان يالويزا، ألست على مايرام؟

بل جيدة ياوالدي وفرحة .

نظرت مرة ثانية بطريقتها الغريبة وقالت :

أنا ياوالدي سعيدة شأني دوما بأن أكون كما كنت دائما .

قال السيد غرند:

هذا حسن .

قبلها وذهب ،وعادت الى ركنها المعهود قرب المدفأة .

هل أنت هناك يا لو؟

قال أخوها ذلك وهو ينظر عبر الباب ، انه شاب صغيـــر الآن ولكنه لم يكن خلابا . أجابته :

عزيزي توم .

ووقفت تقبله .

كم مرّ من الوقت منذ أن رأيتني آخر مرة .

أنت تعرفين يا لو أنني كنت مرتبطا في خلال الأمسيات ،وفي النهار كنت منشغلا بالعمل مع باي،ولكن هل تحدّث والدي اليك فـــي موضوع معيّن اليوم أو البارحة يا لو؟

كلا ياتوم،ولكنه أخبرني الليلة أنه يود محادثتي غدا .

قال توم :

حسنا هو ما أعنيه .

هل تعلمين أين هو الليلة ؟

كان توم يتكلم بتعبير عميق.

كلا .

اذن سوف أخبرك أنه مع باي العجوز فهما يتسامران معا في المصرف الآن. هل تعلمين لماذا في المصرف ؟ حسنا سوف أخبرك ثانية لابقاء آذان السيدة سبارست بعيدة عن الموضوع قدر الامكان. هذا ما أتوقعه .

كانت يداها على كتفي أخيها، وكانت لويزا ماتزال تنظر الى المدفأة وكان أخوها يحدق في وجهها باهتمام أكبر من المعتاد، ثم أحاط خصرها بذراعيه وقرّبها منه بتملّق .

أنت تحبينني كثيرا يا لو أليس كذلك ؟

بالطبع على الرغم من أنه يمضي وقت طويل من دون أن تأتي لرؤية بيتي .

قال توم :

حسنا يا أختي، أنت قريبة من أفكاري ونستطيع أن نكون في أكثر الأحيان معا أليس كذلك ؟

وسوف يكون ذا فائدة كبيرة أن تتخذي قرارك حول موضوع أعرفه جيدا وسيكون مهما جدا بالنسبة اليّ وذا قدرة كبيرة على اسعادي .

لم يستطع ملاحظة شيء على وجهها، قبّل وجنتيها فأعادت له القبلة، وهي ماتزال تنظر الى المدفأة

لقد فكرت يا لو في أن آتي اليك وألمح لك بما يجري، وأعتقد

أنك حذرت ،فأنا لاأستطيع البقاء أكثر لأنني مرتبط ببعض الأصدقاء الليلةولكنك لن تنسي كم تحبينني .

كلا ياعزيزي توم لن أنسى .

الى اللقاء يا لويزا .

وودعته بحنان وخرجت معه الى الباب ووقفت تتطلع الى البلدة وهي تستمع الى خطواته المغادرة .

الفصل الخامس عشر الأب وابنته

انّ غرفة السيد غرند قاتمة وفيها ساعة متينة ساكتة تقيس كل ثانية بخبطة وكأنك تضرب على غطاء كفن. حضرت لويزا في الموعد المحدد صباحا وعندما جلست قرب طاولة والدها بقرب شباك يطل على البلدة رأت المدافىء العالية يتصاعد منها الدخان الكثيف.

قال والدها :

عزيزتي لويزا أحضرتك البارحة من أجل اعطائي انتباهك الجدي للمحادثة التي ستدور بيننا الآن. لقد تعلمت تعلما جيدا ، ويسعدني أن أقول انك لم تكوني مجحفة للمعرفة التي تلقيتها ، ولديّ ثقة تامة بذوقك الجيد. فأنت لست رومنطقية أو انفعالية ، ولكنك معتادة على تقويم كل شيء استنادا الى المنطق والحساب . وأنا أعلم أنك ستنظرين الى الموضوع الذي سأحدثك به من هذه النقطة .

انتظر أن تقول شيئا ولكنها لم تتفوه بكلمة .

تابع السيد غرند

عزيزتي لويزا عرض عليّ موضوع يختص بزواجك ،وانتظر السيد مرة ثانية أن تجيب على كلامه لكنه لم يتلق أي رد منها وهذا ما أدهشه كثيرا ،وأضطر الى أن يعيد برفق .

عرض زواج ياعزيزتي .

واستدارت من دون أن تبدي أية عاطفة مرئية .

أنا أسمع يا أبي وأؤكد لك أني مصغية .

حسنا ـ قال السيد غرند ـ وهو يبتسم بعد أن كان منذ لحظة تائها .

أنت لامبالية أكثر مماتوقعت يا لويزا أو ربما أنك غير مهيأة للاعلان الذي سأقوله . انني لاأستطيع أن أقول شيئا قبل أن أعرف أمستعدة أم غير مستعدة أنت لبحث ذلك .

أود سماع كل شيء منك ياوالدي. من السمتغرب أنّ السيد غرند لم يكن مستجمعا قواه في تلك اللحظة كماكانت ابنته ،فقد أخذ قطاعة ورق بيده ،قلبها وضعها على الطاولة ،ثم أخذها ثانية وهو حائر كيف يكمل حديثه .

ماتقولينه ياعزيزتي لويزا منطقي جدا وسأقول لك مختصرا أنّ السيد باي أخبرني أنه منذ زمن بعيد كان يراقب تطورك باهتمام خاص ،وسعادة ،وكان يأمل في أنّ الوقت المناسب يحين لطلب يدك للزواج. هذا الوقت الذي كان ينتظره منذ زمن، انتظارا ثابتا قد حان وقد طلب اليّ أن أعرض الموضوع عليك وهو يرجو أن تأخذيه بالحسبان والاهتمام .

ساد الصمت بينهما بينما كانت الساعة تدق بثبات وكانت المسافة بينهما سوداء وثقيلة . قالت لويزا :

أبي هل تظن أنني أحب السيد باي؟

فوجىء السيد غرند بهذا السؤال غير المتوقع .

حسنا ياطفلتي أنا في الحقيقة لاأستطيع أن أقول .

تابعت لويزا باللهجة نفسها التي بدأت بها .

أبي هل تطلب اليّ أن أحب السيد باي؟

عزيزتي لويزا كلا أنا لاأطلب شيئا .

فردت لويزا قائلة :

أبي هل طلب السيد باي اليّ أن أحبه ؟

من الصعوبة في الحقيقة ياعزيزتي الجواب عن سؤالك بنعم أو لا .

أبي ...

بالطبع ياعزيزتي لأنه هنا يوجد شيء يجب توضيحه فالاجابة تعتمد على الاحساس الذي نستخدمه في التعبير،فالسيد باي لم يجحف بحقك أو بحق نفسه بالتظاهر بأي شيء وهمي أو خيالي أو عاطفي، فقد رآك تكبرين أمام عينيه ،وهو لايستطيع أن ينسى منشأك الطيّب . ولذا فانّ سؤالك الأخير أعتقد أنه في غير محله .

اذن ياوالدي بم تنصحني بقوله عوضا عن ذلك ؟

قال السيد غرند وقد استعاد هدوءه :

في هذا الوقت أنصحك (بما أنك سألتني) أن تعدي سؤاله هذا كما اعتدت أن تعدي أي سؤال آخر احدى الحقائق المدروسة .

فالناس الجهلة يأخذون موضوعات كهذه بأوهام غير مقبولة ، وبسخافات لاوجود لها، وأنا لا أجاملك عندما أقول انك تعرفين أكثر والآن ماحقائق هذه القضية؟ أنت في العشرين من العمر والسيد باي في الخمسين من عمره، هناك بعض التفاوت بينكما ولكن أسلوبيكما متشابهان ومركزيكما متقاربان، بل على العكس هناك تناسب كبير بينكما وهنا يبرز السؤال: هل يكفي تفاوت واحد لوضع حاجز أمام زواج كهذا؟ وبأخذ هذا السؤال بالحسبان أرى أنّ أكثر حالات الزواج التي حدثت في العالم نجحت على الرغم من تفاوت السن .

كل ما أريده منك هو أن تركزي على حقيقة هل السيد باي قد طلبني للزواج؟ نعم لقد فعل وماتبقى هو السؤال الآتي : هل سأتزوجه؟ وأظن أنه لاشيء أسهل من ذلك .

أعادت لويزا برزانة عميقة :

هل أتزوجه؟

يسعدني ألا تفكري بالطريقة نفسها التي تفكر بها الكثير من الشابات . اجابته :

لا يا أبي أنا لا أفعل ذلك .

والآن أتركك لتأخذي القرار بنفسك . لقد وضحت لك الموضوع كما تمّ توضيح موضوع والدتك وموضوعي عندما كنّا شابين، أما ما تبقى ياعزيزتي فيعود أمر اتخاذ قرار فيه اليك .

منذ البداية كانت تجلس وتتطلّع اليه بثبات، وعندما استقرّ على كرسيه ناظرا اليها، كان يمكنه أن يرى مقدار قلقها ،

ومدى رغبتها في أن ترمي بنفسها على صدره ،وأن تكاشفه بمكنونات قلبها ،ولكن حتى يرى ذلك كان عليه أن يزيل الحواجز الصناعية التي وضعها طوال سنوات عدة بينه وبين أولاده .وبوجهه غير المعبّر أعادها الى الواقع ،واللحظة أعادتها الى الماضي لكي تختلط بكل الفرص الضائعة الخارقة هناك .

أزاحت عينيها عنه وجلست مدة طويلة صامتة ،تنظر نحو البلدة حتى قال لها :

هل تستشعرين بمدافىء المدينة يالويزا ؟

جاوبته بسرعة :

لايوجد شيء هناك سوى الدخان ولكن عند حلول الظلام تبدأ النار تشتعل يا أبي. أبي كنت أفكر كيف أنّ الحياة قصيرة جدا . أجابها :

انها قصيرة من دون شك ياعزيزتي ولكن المعدل العمري لحياة الانسان أثبت ازديادا في السنوات الماضية .

ردت عليه بقولها :

ولكنني أتكلم على حياتي أنا ياوالدي.

أوه بالتأكيد؟

قال السيد غرند :

مهما يكن من أمر فأنا لاأرى حاجة الى اخبارك بأنّ هناك قوانين تحكم الحياة اجمالا . أجابته :

مادامت أنها تنتهي أخيرا فأنا أفعل ماأستطيع ومايناسبني. ماذا يهم .

بدا على السيد غرند وكأنه لم يفهم الكلمات الأخيرة فقال:

ماذا يهم كيف ياعزيزتي؟

تابعت بطريقة ثابتة السيد باي طلبني للزواج والسؤال الذي يجب أن أسأل نفسي اياه . هل أتزوجه ؟ أليس كذلك ياوالدي؟ فأنت من قلت لي ذلك. ألم تقل لي بالطبع ياعزيزتي اذن أنا موافقة على طلبه فقل له متى أحببت أنّ هذا جوابي،وأعد عليه قراري كلمة كلمة اذا استطعت لأني أتمنى أن يعرف ماقلته .

أجابها والدها:

انّ نقطة الصواب ياعزيزتي دقيقة وسوف أجيبك على طلبك هذا . هل لديك أي طلب بالنسبة الى موعد الزواج ياطفلتي؟

كلا ياوالدي فليس ثمة شيء يهم .

أخذ والدها بعد أن اقترب بكرسيه منها ولكن اعادتها هذه الكلمات بدت وكأنها على نزاع مع أذنه ونظر اليها وقال:

من اللائق أن أسألك سؤالا معيّنا ،ولعلّه يجب عليّ فعل ذلك ألم تتلقي بالسر عرضا آخر للزواج؟ أجابته باحتقار:

أبي أي عرض آخر كان بالامكان تقديمه لي؟ فمن الذي أراه ؟ وأين كنت أذهب ؟ وما التجارب التي مرّ بها قلبي؟

أجابها والدها وهو مسرور:

عزيزتي لويزا لقد طمأنتني فقد كنت أتمنى أن أكمل واجبي.

ماذا أعرف ياوالدي؟.

– قالت لويزا بهدوء - عن الذوق والخيال عن الوحي والعاطفة ، أو ماذا أعرف عن ذلك الجزء من طبيعتي التي كان يمكنها أن تغذي بها تلك الأشياء الصغيرة؟ ما الملجأ الذى ذهبت اليه من المشكلات

والحقائق ؟

وبينما كانت تقول ذلك أغلقت يدها من دون وعي،وكأنها تمسك بشيء صلب ومن ثم فتحتها وكأنها تلقي ببعض الغبار.

أجابها والدها:

هذا صحيح،صحيح ياعزيزتي.

تابعت:

وياللغرابة في أن تسألني. انّ مرحلة الطفولة نفسها لم يكن لها المكان البريء والمريح في صدري فقد اهتممت بي كثيرا حتى انني لم أكن أحمل قلب طفلة. علمتني جيدا حتى انني لم أكن أحلم حلم طفل. عاملتني بوعي كلي ياوالدي منذ ولادتي،حتى ساعتنا هذه حتى انني أيضا لم أحس بخوف في طفولتي. قال السيد غرند وهو سعيد جدا بنجاحه وبهذه الشهادة:

عزيزتي لويزالقد كافأت عنايتي فقبليني ياعزيزتي. قبلته ابنته وقال لها:

أؤكد لك الآن ياطفلتي أنني مسرور بالقرار الصائب الذي توصلت اليه،فالسيد باي مميّز والتفاوت البسيط الموجود بينكما اذا كان يوجد تفاوت أصلا فلن يشكّل عائقا أمام عقلك الذكي،لقد كان هدفي دائما أن أعلمك أن تكوني على الرغم من صغر سنك قادرة على التكيّف مع أي عمر،قبليني مرة أخرى يالويزا،ودعينا نذهب لرؤية والدتك.

ذهبا الى غرفة الجلوس حيث كانت السيدة مستلقية كعادتها وسيسي تعمل بجانبها، انتعشت قليلا عند دخولهما وجلست قليلا.

قال زوجها:

السيدة غرند دعيني أقدم لك السيدة باي .

قالت السيدة :

اذن سويت الأمر حسنا أتمنى أن تكون صحتك جيدة . فاذا بدا رأسك ينشق عندما تتزوجين كما حصل معي فلن أستطيع الاعتقاد بأنك ستكونين محسودة. ومهما يكن من أمر فأنا أتمنى لك السعادة وأتمنى آن تطبقي الدروس التي تعلمتها ،يجب أن أقبلك قبلة التهنئة يالويزا ،ولكن لاتلمسي كتفي في الطرف الأيمن لأنه يؤلمني. والآن سوف أفكر صباحا وظهرا ومساء لأقرر مايمكنني أن أناديك به ؟

قال لها زوجها بوقار:

ماذا تعنين ياسيدة غرند؟

أعني ماذا سأنادي السيد باي عندما يتزوج ابنتي،فلن أستطيع تسميته باسمه المجرّد،لأنّ ذلك لايطاق بالنسبة اليّ ولن أستطيع أن أناديه صهري اذن بماذا سأناديه ؟ انّ العلاقة بين لويزا ووالدتها لم تكن متقاربة والثقة لم تكن متبادلة

عندما قدم السيد غرند السيدة باي أدارت سيسي وجهها فجأة وتطلعت بتعجّب وبشفقة وحزن وبشك وبحشد من العواطف نحو لويزا ، وقد شاهدت لويزا ذلك وأحست به من دون أن تنظر الى سيسي ومنذ تلك اللحظة أصبحت متكبرة لا احساس لديها ،وباردة دائما ،تبقى مسافة بينها وبين سيسي،وتغيّرت من ثم ازاءها كثيرا .

الفصل الثامن عشر زوج وزوجته

اضطرب السيد لدى سماعه الموافقة ،وكان لابد له أن يعبّر عن سعادته للسيدة سبارست ،ولكنه لم يقرر الخطوات التي يجب اتباعها، وماذا سيكون رد فعلها آتراها ستغادر راحلة الى عمتها ،أم سترفض مغادرة المنزل؟ هل ستكون حزينة أو تنصرف انصرافا سيئا؟ هل ستبكي أو ستمزق ثيابها؟ هل ستكسر قلبها أو تكسر نظاراتها؟

لم يستطع السيد باي أن يخمّن أي شيء ولكنه لم يكن له خيار في اخبارها أي شيء ،لذا وبعد أن كتب رسائل عدة وأخفق في ايصال مايريده قرر اخبارها وهو يواجهها .

في طريق عودته الى المنزل مساء دخل الى صيدلية واشترى زجاجة للعطس ،قوية التأثير وقال السيد باي: اذا علمت الخبر وأغمي عليها فسوف أضع هذا الدواء على أنفها ثم دخل الى منزله وبدا كأنه كلب قادم توا من مخزن المؤن .

مساء الخير ياسيد باي،مساء الخير ياسيدتي.

واقترب بكرسيه من المدفأة فأرجعت السيدة سبارست كرسيها وكأنها تقول :اقترب الى مدفأتك ياسيدي، فأنا أعترف أنك أحق باستعمالها .

قال لها السيد باي:

لاتذهبي الى القطب الشمالي ياسيدتي(أي لاتبتعدي كثيرا).

أجابت السيدة سبارست :

شكرا لك ياسيدي .

وعادت الى وضعها السابق. نظر اليها السيد باي وهي تشتغل بالحياكة ،وكانت مشغولة جدا اذ مرّت بضع دقائق قبل أن تترك عملها ،وعندما فعلت ذلك لفت السيد باي انتباهها بهزة من رأسه .

قال السيد باي وهو يضع يديه في جيبه وهو يوءكد لنفسه أنّ الزجاجة التي يحملها أصبحت جاهزة للاستعمال. السيدة سبارست لم تتح لي الفرصة بأن أقول لك: انك سيدة ذات منشأ راق ولكنك أيضا امرأة عاقلة . أجابته السيدة.: سيدي هذه ليست المرة الأولى التي تشرفني فيها بتعبيرات مشابهة رأيك الصائب ...

سيدتي سوف أفاجئك .

أجابته متسائلة : نعم ياسيدي ؟

قال: سوف أتزوج ابنة السيد غرند.

أتمنى أن تكون سعيدا ياسيد باي .

قالت ذلك بلطف كبير وبعاطفة قوية تجاهه مما أربكه أكثر مما لو أنها رمت صندوق الخياطة على المرآة ،فمن كان يتصوّر أنها ستتلقى الأمر بهذه الطريقة .

أضافت السيدة سبارست بروح عالية :

أتمنى لك السعادة من كل قلبي على جميع الصعد .

حسنا ياسيدتي.

أجابها باي وبلهجة مستاءة قليلا:

أنا محتاج اليك .

صحيح ياسيدي ،قالت ذلك بلطف كبير .

ولكن من الطبيعي أن تحتاج اليّ. قالت ذلك وهي تتابع عملها.

تابع باي يقول:

حسنا ياسيدتي وبسبب هذه الظروف أتصوّر أنه ليس من اللائق لشخص مثلك أن يبقى هنا رغم أنك على الرحب والسعة هنا.

أوه كلا ياسيدي أنا لم أفكر في ذلك .

قالت ذلك بالروح العالية بنفسها، مهما يكن من أمر ياسيدتي... ثم عرض السيد باي عليها أن تسكن في شقة فوق المصرف الذي يملكه وتكون مشرفة على المصرف ،وأيقنت السيدة سبارست أنه يفعل ذلك فقط بسبب عملها السابق معه ،وعلى الرغم من أنها استاءت من الأمر ولكنها وافقت بعد أن وعدها بأن يؤمن لها خادمة تعنى بها ويوفر لها متطلباتها .

حدّد الزواج بعد ثمانية أسابيع وكان السيد باي يذهب كل يوم الى(ستون لودج) وبدأ يقدم الأساور،وفصّلت الثياب وجهزت لوازم العرس.

كانت عملية الزواج تلك حقيقة من البداية حتى النهاية ،لم تمر الساعات مرورا دوريا كما كان الشعراء الأغبياء يصورون تلك الساعات ،ولم تمر أسرع من الفصول الباقية أو أبطأ وأتى اليوم المحدد كالأيام الأخرى الملتصقة بالواقع ،وتمّ زواج السيد باي من الآنسة لويزا الابنة الكبرى للسيد غرند وأقيمت حفلة الزفاف ،وبعد الافطار الذي تناوله العروسان في بيت العروس قام العريس وألقى الكلمة الآتية :

أيها السيدات والسادة :

أنا جوزيه باوندر باي من كوك تاون،بما أنكم شرفتموني وزوجتي بشرف شرب نخب صحتنا وسعادتنا ،عليّ أن أعترف بأنكم مادمتم تعرفونني وتعرفون من أنا وما أصلي،فانّ صديقي وحماي السيد غرند هو عضو في البرلمان،ووجودي الآن يعكس أنني لم أكن أتصوّر أن أتزوج ابنة السيد غرند عندما كنت صبي شوارع ،لم يكن يغسل وجهه سوى مرة واحدة ،وأنا سعيد جدا الآن لحدوث هذا الزواج فقد كان أمنيتي منذ زمن طويل . لقد راقبتها وهي تكبر،فهي تستحقني وفي الوقت نفسه أنا أستحقها،لذا أشكر لكم نيابة عنّا على النيّة السيئة التي أظهرتموها لنا وأتمنى أن يجد كل عزب امرأة جيدة ،كما وجدت ،وأتمنى لكل عزبة أن تجد زوجا جيدا كما وجدت لويزا .

وبينما كانت العروس تستعد للسفر وجدت أخاها ينتظرها خجلا من شعوره ،فعانقته وكانت قلقة أول مرة في تلك الليلة ،فقال لها باي العجوز: جاهز والوقت قد حان فالى اللقاء وسأكون بانتظارك عند عودتك ، أليس كل شيء سعيدا الآن؟.

الحصاد

لقد زرع السيد باي عـــدم انسانيته وجفافه ،وحصد زواجـــا غير سعيد ،وخسر زوجته . انّ زراعة السيد غرند للمنطق والحقيقة أدت الى وهم كبير ودمار. وحصدت لويزا ببذور الحقيقة والواقع التعاسة أما توم فقد كانت بذور الأثرة بالنسبة اليه قادرة على انتـــاج محصول الوحدة والدمار وأما ستيفن فقد زرع بذور عدم الرضـــى ، وكان أن نبذه رفاقه العمال. الجميع حصدوا محصول أعمالهم الخاصة .

الفصل الأول تأثيرات في المصرف

كان يوما من أيام الصيف الحارة ،وكانت بلدة (كوك تـــاون) تبدو في يوم كهذا مغطاة بضباب كثيف ،لايتأثر بأشعة الشمـــس ، وكان الدخان يتصاعد باتجاه السماء وكانت ليلة حارة جـــــدا ، فالشوارع ساخنة ومليئة بالغبار .

جلست السيدة سبارست في شقتها فوق المصرف ،على الجانب المطل على الشارع الحار ،كانت ساعات العمل قد انتهت ،وفي تلك اللحظـــة من النهار ،وعندما يكون الطقس دافئا ،كانت تجلس في غرفة الجلـــوس قرب النافذة ،وفي هذا المكان كانت تحيي السيد باي عندما يعبـــر الشارع تحية تنم على شفقة ،اذ كانت تعده ضحية . كان قد مضى على

زواجه حوالي السنة ،ولم تكف السيدة سبارست ولو للحظة عن الشفقة عليه . وكان شكل المصرف يشبه شكل منزل السيد باي الموصوف سابقا، ولكنه أكبر قليلا،وكانت السيدة سبارست تقوم بجولة مساء،على محتويات المصرف فقد كانت تعد نفسها حارسة المصرف ،وكان السكان يعدونها العين الحارسة على الكنوز الموجودة . فما هذه الكنوز ؟ كانت معرفتها تتعدى معرفتهم البسيطة ،فقد كان يوجد سبائك فضية وذهبية وأوراق قيّمة وأسرار اذا ما آفشاها أحد فسوف تقود الى دمار مبهم يمس أشخاصا مبهمين. فضلا عن ذلك فقد كانت تعلم أنها ،وبعد ساعات العمل،هي التي تسيطر على مفروشات المصرف وعلى خزائنه المغلقة بقفل حديدي،حيث ينام البوّاب كل يوم وكانت تشرف أيضا على سراديب عدة في الباحة تضم كثيرا من الأشياء المرتبطة بعمل المصرف . كان يتمم سلطنتها خادمة طرشاء،وبوّاب خفيف الظل وكان يشاع أنّ هذه الخادمة كانت تملك ثروة لابأس بها ، وأنها في يوم ما سوف تقتل عند اغلاق المصرف بسبب مالها .

أحضر البوّاب صينية الشاي للسيدة سبارست فقالت له :

شكرا لك يابيتزر .

أجابها البوّاب :

أشكرك ياسيدتي .

وكان بوّابا خفيف الظل كما بدا عندما عرف الحصان بدلا من الفتاة رقم ٢٠ . سألته السيدة :

هل كل شيء ُمغلق يابيتزر؟

نعم كل شيء ياسيدتي.

ومـــا الأخبار اليوم؟

حسنا ياسيدتي لم أسمع شيئا معيّنا. فالجماعة عندنا سيئون ولكن ما يؤسف له أنّ هذه ليست أخبارا جديدة .

سألته السيدة سبارست :

وماذا يفعل العمال البائسون والمتوترون الآن؟

انهم ياسيدتي يتحدون ويتحالفون ويتعهدون بأن يقفوا في صف واحد.

ردت السيدة سبارست بقسوة :

انّ مايؤلم أن يسكت السادة عن تحالفات كهذه .

نعم ياسيدتي .

قالت السيدة :

على السادة أن يتحالفوا ضد أي رجل يتحد مع رجل آخر .

أجابها بيتزر :

لقد فعلوا ذلك ياسيدتي ولكن من دون فائدة .

هنا قالت السيدة سبارست بكبرياء:

أنا لاأتظاهر بأنني أفهم في هذه الأشياء،فأجوائي كانت مختلفة ،أما السيد سبارست فلأنه من عائلة (باولر) فهو بعيد عن هذه النزاعات ،وكل ما أعرفه هو وجوب القضاء الى الأبد على هذه الجماعة الآن .

نعم ياسيدتي .

أجابها بيتزر باحترام بالغ .

وكان بيتزر معتادا كل يوم أن يتحدث الى السيدة سبارست في

مثل هذا الوقت وقد لاحظ أنها تريد أن تسأله شيئا ،فتظاهر أنه يرقب الطاولة التي أمامه بينما تابعت السيدة شرب الشاي،وهي تنظر عبر النافذة الى الشارع. سألته السيدة :

هل كان يوما شاقا يابيتزر؟

كلا ياسيدتي ليس كثيرا.

وكان بيتزر بين الفينة والأخرى يناديها " سيدتي " عوضا عن " أيتها السيدة تأكيدا منه على كبريائها وتقديره لها.

سألته وهي تقضم قطعة من الخبز مغطاة بالزبدة :

وماذا عن المحاسبين هل يعملون باستقامة ودقة ؟

نعم أيتها السيدة ، انهم ملتزمون تماما.

كان بيتزر يعمل جاسوسا ومخبرا في المصرف ،وكان يتلقى نتيجة خدماته تلك هدية في عيد الميلاد تفوق راتبه الأسبوعي وقد أصبح ذهنه متوقدا وأصبح شابا حذرا وكتوما. كان عقله منظما بدقة ولامكان فيه للعواطف والأحاسيس ،وكل ايرادته كانت نتيجة حساباته الباردة والمدروسة ولم يكن رأي السيدة سبارسبت يقرّ بأنه شاب ذو مبادىء ثابتة من دون مسوغ لذلك .

تابع بيتزر حديثه بقوله :

السيد توم أيتها السيدة لاأحب طريقته أبدا.

هنا قالت السيدة بلهجة مؤثرة :

أنا لم أذكر أسماء خلال حديثي معك، أليس كذلك ؟

أنا آعتذر أيتها السيدة.،فالحقيقة أنك أعرضت عن ذكر أي اسم وتجنبت ذلك تماما .

فردت السيدة :

أرجو أن تتذكر أنني محل ثقة هنا يابيتزر لدى السيد باي، وأنا أكنّ له كل احترام لأنه مسوءول عني،ويقدم لي راتبا سنويا ،وهو يكنّ كل تقدير لي ولعائلتي المنحدرة من أصل محترم، وأنا لاأستطيع أن أسمح بذكر أسماء تكون ذات صلة بالسيد باي تحت سقفنا . اعتذر يابيتزر للمرة الثانية .

وتابعت السيدة تقول :

عندما نريد التحدّث عن شخص ما فسوف أسمعك ، أما أن تذكر السيد توم فأرجو المعذرة .

تابعا الحديث فقال بيتزر:

شخص ما أيتها السيدة لم يعد كما كان عندما أتى في المرة الأولى الى المكان،فقد انغمس في الملذات وأصبح كسولا ومسرفا وهو لايستحق مايأخذه ،ولم يكن ليحصل عليه لو لم يكن له صديق وقريب يعينه .

تأوهت السيدة وهزّت رأسها بحزن .

وتابع بيتزر القول :

كل ماأتمناه أيتها السيدة ألاّ يزوّده قريبه هذا بالوسائل التي تشجعه على المتابعة فنحن نعلم من أي جيب تخرج هذه النقود، انه يدعو الى الشفقة ياسيدتي، أجل فأنا دائما أشفق على هذه النوعية المغرورة .

تابع بيتزر وهو يقترب منها ويخفض صوته :

أما بالنسبة الى الفرد فهو مغامر كغيره من المغامرين في

هذه البلدة ،وأنت تعرفين نوع مغامراتهم أيتها السيدة .

سوف يتحسنون يابيتزر اذا اتخذوا منك مثالا .

شكرا ياسيدتي،وبما أنك آشرت اليّ فأرجو أن تنظري نحوي، فانّ الهبة التي آحصل عليها في عيد الميلاد لاأتصرّف بها آبدا ، ولكنني أضيفها الى رصيدي فلماذا لايفعلون مثلي،فما يستطعه شخص يستطع شخص آخر فعله . قصة أخرى أيضا كانت من ضمن قصص بلدة (كوك تاون) فكل رأسمالي عنده ستون آلف ليرة حصل عليهامن رأسمال بسيط لايتعدى القروش الستة دائما يعجب لما لايستطيع أي عامل الوصول الى ماوصل اليه ،فما أستطيع فعله لماذا لاتذهب أنت وتفعله .

قال بيتزر :

انهم يريدون اللهو غير المجدي وآنا لاآريد ذلك،وآنا لاآحبهم على الرغم من أنهم مجموعة كبيرة ،ويستطيعون تحسين وضعهم لو آرادوا ذلك،فهذا هو الاهتمام الأول لكي يصبحوا مخلوقات منطقية وهذا مايتظاهرون أنهم يريدونه .

أجابت السيدة :

انهم يتظاهرون بالفعل .

قال بيتزر:

وهذا الأمر يتضمن عائلاتهم وزوجاتهم ،بينما آنا لاآريد زوجة أو عائلة فلماذا هم خلاف ذلك ؟

آلأنهم مغامرون ؟

أجابته السيدة :

نعم ياسيدي،فاذا كانوا أكثر تعقلا وأقل عنادا،فسوف يقولون مادامت قبعتي تغطي عائلتي،حقا لديّ شخص فقط لاطعامه وهو الذي أحبه أكثر من غيره ٠

وافقته السيدة على قوله هذا٠

أشكرك ياسيدتي وهل تودين أن أحضر لك أي شيء الآن؟

كلا يابيتزر ٠

فأجابها بيتزر:

لم أكن أحب أن أزعجك أيتها السيدةوأنت تأخذين الشاي ٠

قال ذلك وهو يمد رأسه لينظر الى الشارع ٠

ولكن هناك سيداينظر الى ناحيتنا منذ برهة أيتها السيدة وتقدم منّا وكأنه سيقرع الباب ،هاهو ذا الباب يقرع هل تودين ادخاله أيتها السيدة؟

قالت السيدة وهي تجفف فمها:

أنا لاأعرف من يكون ٠

من المؤكد ياسيدتي أنه غريب ٠

أجابته:

وماذا يريد شخص غريب من المصرف مساء الآ اذا كان لديه عمل مهم ،ولكنني أحمل أمانة في هذه المؤسسة ،ولن أحيد عنها ، واذا كان مايريده من ضمن عملي فسوف أراه ،لك حرية التصرّف يابيتزر ٠

أعيد القرع على الباب بصوت مرتفع فأسرع بيتزر يفتح الباب، بينما رتبت السيدة الطاولة ،وصعدت الى الطابق العلوي حتى اذا

مانزلت كانت بكبرياشها كاملة .

قال لها بيتزر:

السيد يود مقابلتك ياسيدتي.

فنزلت مرة ثانية ،ودخلت وكأنها رئيسة ممرضات ترافق قائد جيوش منتصرا. لم يتأثر السيد الذي كان واقفا قرب النافذة بهذا الدخول .

بقي واقفا ببرود وقبعته على رأسه ،والارهاق باد عليه من الطقس الحار،لقد كان سيدا بكل معنى الكلمة.

قالت السيدة :

أعتقد أنك تريد رؤيتي أيها السيد.

نعم أيتها السيدة أرجو المعذرة . دار في خلد السيدة وهي تنحني قليلا،خمس وثلاثون سنة ،حسن المظهر ،شكله جميل، أسنانه منتظمة وكذلك صوته ،ولباسه جيد،وشعره غامق وعيناه شجاعتان ، كل ذلك لاحظته السيدة من حيث هي امرأة .

أرجو أن تجلس أيها السيد .

أشكرك ولكن اسمحي لي.

قال هذا وهو يقرّب لها الكرسي،وبقي متكئا على الطاولة .

لقد تركت خادمي في المحطة يحضر الحقائب ،فالقطار كان قديما والمكان غريبا ،هل تسمحين لي بأن أسألك اذا ماكان دائما أسود هكذا؟

انه في العادة أكثر سوادا.

أجابت السيدة بصلابتها المعهودة ،أعتقد ياسيدي أنك لست من

هذه البلدة ؟

كلا من حسن حظي أو سوئه .

قبل أن أصبح أرملة انتقلت الى مكان مختلف تماما. فزوجي كان من (باولر).

صحيح؟.

قال السيد .

نعم من عائلة باولر.

هنا بدا على السيد الغريب التعب .

من المؤكد أنك تشعرين بالملل هنا ؟

أجابته :

أنا خادمة الظروف أيها السيد وقد عودت نفسي على الظروف التي تحكم حياتي .

أجابها :

كلام فيه الكثير من الفلسفة ،وهو كلام مثالي وصحي.

وكان يتكلم وهو يعبث بسلسال ساعته .

سألته السيدة :

بماذا أستطيع أن أخدمك؟

أجابها :

أنا أحمل رسالة للسيد باي . وبينما كان العمال يحضرون العشاء في الفندق سألت أحدهم عن مقر السيد باي،فدلني على هذا المكان ولا أظن أنّ السيد يقيم في هذا البناء الفخم .

كلا ياسيدي .

آجابـها :

أشكرك فـأنـا لا آنـوي تسليـم الرسالة الآن،ولكنني مررت لـقتــــل الوقت ،ويسعدني أني تعرّفت بسيدة ذات مستوى راق .

كان يتصرّف ببلادة وعدم اكتراث ،وكان يحدثها وهو منحــن نحوها قليلا،وكأنه منجذب بسحر اليها وهو يقول :

الكتاب الذي أحمله هو توصية من السيد غرند الذي تشرّفــت بمعرفته في لندن.

وأعطته السيدة سبارست العنوان فرد عليها شاكرا وقال:

بالطبع أنت تعرفين صاحب المصرف جيدا .

نعم عرفته منذ عشر سنوات .

أعتقد أنه تزوج ابنة السيد غرند؟

نعم .

أجابته وهي تزم شفتيها . كان له شرف ذلك .

سألها : قيل لي انها فليسوفة ؟

أجابته السيدة سبارست :

هل هي كذلك ؟

تابع الغريب اعذري تطفلي،ولكنك تعرفين هذه العائلــــة ، وتعرفين كيف تمر الحياة وسوف أتعرّف على هذه العائلة ،ولربمـا كان لي معها شأن. هل السيدة باي كثيرة التعجرف ؟ فلقد أعطاها والدها سمعة أنها ذات عناد في رأيها ،ولي رغبة حارة فـــي معرفتها .

هي هي بالفعل ذكية ؟

ولكنني أرى من خلال ابتسامتك أنك لاتعتقدين ذلك ،ولقد صبت بلسما على روحي القلقة . أما بالنسبة الى عمرها الآن فهل هي في الأربعين أم في الخامسة والثلاثين؟

ضحكت السيدة سبارست وهي تقول:

لم تتجاوز العشرين عندما تزوجت .

آجابها الغريب وهو يقفز:

انني لم أفاجأ في حياتي كما أفاجأ الآن وأقسم لك ياسيدة باولر على ذلك . وبدا عليه بالفعل الانفعال،وأكد للسيدة أنّ السيد غرند قد هيأ لمقابلة انسانة جامدة ،وناضجة نضج غابة وأنا أشكرك لأنك وضحت لي غلطة كهذه شكرا كثيرا ،وأرجو المعذرة على تطفلي،والى اللقاء .

وبعد خروجه سألت السيدة سبارست بيتزر:

مارأيك بالسيد الغريب ؟

انه من النوع الذي ينفق الكثير على ملابسه ياسيدتي.

فردت السيدة :

ولكن علينا الآن الاعتراف بأنه ذو ذوق رفيع .

آجابها :

نعم مادام الموضوع مرتبطا بالمال،ولكن يبدو لي آنه من النوع المقامر .

آجابته السيدة :

من غير الأخلاق المقامرة .

الفرص تكون دائما ضد المقامر. اذا ماكان الطقس حارا أو كان التعب مرهقا .

لم تستطع السيدة سبارست العمل تلك الأمسية ،وجلست قرب النافذة عندما بدأت الشمس تغرب خلف الدخان،من دون اشعال أية شمعة في الغرفة ،ولم تكن تفكر كثيرا في أصوات المساء ،ونباح الكلاب ،وأصوات العجلات ،وخطوات المارة ،وصياح الأطفال،واغلاق أبواب المحلات ،ولم تفق من حالتها هذه الا على صوت بيتزر يعلن لها أنّ موعد تناول الحلوى قد حان،وعندما جلست وحدها قالت :

أيها الغبي من كنت تعني؟

لم تقل ذلك ولكن من المؤكد أنها لم تكن تعني الحلويات التي ستتناولها .

الفصل الثاني السيد جمس هارث هوس

هذا السيد هو الشخص الغريب الذي قدم الى البلدة محمّلا برسالة توصية من السيد غرند،وهو ذو مظهر جيد،وعمل في مجالات متعددة ، ضجر منها جميعا،وهجرها،ومن ثم أرسل الى كوك تاون حيث أصبح معروفا. ولمّا أوصل الرسالة الى السيد باي حضر باي اليه في الفندق ووجده واقفا قرب النافذة وهو حزين،قال الزائر:

اسمي ياسيدي جوزيه باي من بلدة كوك تاون .

كان السيد جيمس سعيدا جدا لحصوله على هذه المتعة التي توقعها طويلا. تابع باي قوله :

بلدة كوك تاون ياسيدي ليست من النوع الذي أنت معتاد عليه لذا أرجو أن تسمح لي - وحتى لو لم تسمح لي - بأن أقول لك شيئا بخصوصها اذ اني رجل صريح. بدا على السيد جيمس السرور. قال السيد باي :

لاتفرح كثيرا فأولا أنت ترى الدخان المنتشر في كل مكان وهذا يمثل الطعام والشراب وهذا الطعام والشراب المتمثل بدخان المصانع هو موت ودمار للعمال وهو مضر للصحة ولاسيما للرئتين.

أجابه السيد جيمس :

أؤكد لك ياسيدي أنني مقتنع تماما بطريقة تفكيرك .

رد عليه السيد باي:

أنا سعيد لسماع ذلك الآن،فلاشك في أنك سمعت الكثير عن العمل في مصانعنا أليس كذلك ؟ حسنا سوف أقص عليك الحقيقة . انه العمل الأكثر فرحا والأكثر ربحا وسرعة ،وأكثر من ذلك لانستطيع اصلاح المصانع الآ اذا وضعنا سجادا على أرضها ولن نقوم بذلك .

أجابه السيد جيمس :

أنت محق تماما .

قال السيد باي:

فأما أخيرا بالنسبة الى العمال فلاتوجد لدينا أيد عاملة في هذه البلدة سواء كانت لامرأة أو لرجل أو لطفل الآ ولها هدف محدد في هذه الحياة ،وهذا الهدف هو تناول حساء بحري ولحم بملعقة ذهبية ،ولكن الجميع لن يحققوا هذا الهدف ،وأعتقد أنني أعطيتك فكرة كافية عن هذا المكان .

انتعش السيد جيمس انتعاشا كبيرا بهذا الاختصار المكثف عن البلدة .

وتابع السيد باي:

هناك شيء وحيد أريد أن أضيفه قبل أن أؤكد لك سروري البالغ بالرسالة التي تلقيتها بشأنك . فأنت رجل من عائلة محترمة لاتغش نفسك وتعتقد ،ولو للحظة ،أني رجل من عائلة محترمة ،ولكنني من أصل قذر ومنحط .

أجابه جيمس :

انّ ذلك قد يثير اهتمامي كثيرا. تابع السيد باي قوله :

لنتصافح ونحن على قدر واحد من المساواة. أقول قدر واحد، بالرغم من أنني أعلم ما أنا عليه ،وأعلم مدى القاع الذي انتشلت نفسي منه ،وأنني أفضل من أي انسان آخر،ولكنني فخور بنفسي مثلك تماما حيث اني عززت استقلالي بطريقة جيدة ووصلت الى المستوى نفسه الذي ترى نفسك الآن في خلاله. ولعلك تعرف أولا أنني متزوج من ابنة السيد غرند ويسعدني أن أقدمك اليها اذا لم يكن لديك عمل ما.

رد السيد جيمس :

أنت تقدم لي أعز أمنياتي أيها السيد باي .

ثم ذهبا معا الى المنزل ودخلا قاعة الجلوس حيث دخلت الفتاة الأكثر شهرة بالنسبة الى السيد جيمس . كانت صارمة جدا وفي الوقت نفسه غير مبالية ،وكثيرة التحفظ والمراقبة وكثيرة البرود والاعتزاز وكانت تخجل وتشعر بنوع من الحساسية من ذل زوجها المتبجح .

وكانت تشمئز من كل ملاحظة يبديها ،وكأنها تتقطع ضمنيا. كانت ملامحها أنيقة ولكن طبيعتها مغلقة ،ويصعب تخمين تعبيرات وجهها ،فهي لم تكن تعرف معنى الشرود بل كانت في حالة تحفز دائم. وبعد نظرة الى صاحبة البيت ألقى الزائر نظرة على المنزل نفسه ،ولم يكن يبدو عليه أي لمسة تدل على وجود امرأة في الغرفة. فلم تكن هناك ولو زخرفة بسيطة ،أو أي تصميم جميل يدل على ذوقها وتأثيرها في المنزل،وكانت الغرفة باردة غير مريحة وكأن لا أثر لوجود امرأة فيها.

قال السيد باي:

هذه هي زوجتي ياسيدي،وهذا هو السيد جيمس يالويزا. وهو يعمل مع والدك. أنت تعلم ياسيدي أنّ زوجتي أصغر مني سنا ولا أعرف مارأت فيّ حتى تزوجتني،ولكني أعتقد أنها ،لابد،قد رأت شيئا فهي ذات معرفة كبيرة من الناحية السياسية والنواحي الأخرى، واذا أردت أن تستفسر عن شيء ما فلن تجد مرشدا أفضل منزوجتي.

جعل هذا الكلام السيد جيمس يسر ضمنيا. تابع السيد باي:

تعال اذا أردت أن تجامل فلن تجد منافسة لك هنا ،فأنا لم أتعلّم المجاملة ولاأعرف كيف أقدمها ولكنك تختلف عني فأنت سيد محترم وأنا لاأتظاهر بأنني كذلك .فأنا جوزيه باي من بلدة كوك تاون،وهذا كاف بالنسبة اليّ،وأنا لاأتأثر بالأخلاق والمواقف ولكن ربما زوجتي كانت تتأثر بها فهي لاتملك ميّزاتي،ولعله يمكنني القول انها عيوبي،ولكنني أعدها ميّزاتي .

قال جيمس وهو يبتسم وينظر الى لويزا:

السيد باي حيوان نبيل وهو بالمقارنة والظروف الطبيعية حر تماما من أي سد أو عائق يعترض طريقه ،كماحدث لي في أعمالي.

أجابته لويزا:

أنت تحترم السيد باي كثيرا ،وهذا شيء طبيعي.

أجابها:

لقد تعذّب كثيرا ،على الرغم من أنه سيد فاضل رأى الكثير في هذه الدنيا . فماذا عليّ أن أفعل الآن؟

عليك أن توفر نفسك ـ كما قال السيد باي ـ من أجل خدمة بلدتك،وعليك أن تخلّص الأمة من كل الصعوبات التي تعترض طريقها .

فأجاب ضاحكا: انني أقسم بشرفي ياسيدة باي ألآ أتظاهر بذلك،فلقد رأيت الكثير هنا وهناك من فوق ومن تحت . ورأيت أنّ كل ذلك عديم الفائدة اعتمادا على رأي والدك المحترم ومادمت لا أملك الخيار في الرأي.

سألته لويزا: أليس لك رأي خاص بك؟

أجابها:

أنا لا أكترث بالآراء وذلك بسبب الضجر الذي أعانيه . اذ انّ كل مجموعة لن تكون أفضل من المجموعة الأخرى أو أسوأ منها .

قالت له لويزا:

أنت سياسي نادر.

عذرك فحتى هذه النعمة لاأملكها ،فنحن أكبر تجمّع وأضخم حزب في هذه المنطقة ، أؤكد لك ذلك ياسيدة باي.

هنا تدخل السيد باي يقترح تأجيل موعد العشاء حتى السادسة

والنصف لأخذ السيد جيمس بجولة الى الأماكن المعروفة في البلدة .

في المساء وجد طاولة الطعام مهيأة لأربعة أشخاص ، ولكن جلس عليها ثلاثة فقط ووجد السيد باي الفرصة سانحة من أجل التحدّث عن ذكريات طفولته ، وكان السيد جيمس يعلّق على حديث السيد باي بين الفينة والأخرى بالكلمة الآتية : هذا مدهش . وكان جيمس يسترق النظر الى لويزا وهي جالسة على رأس الطاولة ، وهو يفكّر في أنه لايوجد شيء يحرّك هذا الوجه الجميل. نعم كان هناك شيء ما بحق الله وهو وصول شقيقها توم ، فقد تغيّرت تعبيرات وجهها عندما دخل من الباب ، وأشرق وجهها بابتسامة مشعة ابتسامة جميلة ، وكان يمكنها ألاّ يلمحها السيد جيمس لو أنه لم يبحث عنها طويلا على وجهها غير المعبّر .

رفعت يدها الناعمة الجميلة وأطبقت بأصابعها على يد أخيها. دار في خلد الزائر أنّ هذا الجرو هو المخلوق الوحيد الذي تهتم به .

حضر الجرو وجلس . كان التعريف خاليا من المديح ولكنه لم يكن خاليا من التقدير.

قال باي:

عندما كنت في سنّك ياتوم ، كنت دقيقا في مواعيدي ولم أكن أحصل على طعام.

أجابه توم:

عندما كنت في سني لم يكن عندك ميزان خاطئ ، عليك اصلاحه ومن ثم أن ترتدي ثيابك .

قال باي :

لايهم ذلك الآن .

تمتم توم:

حسنا لا تبدأ معي الآن .

قال جيمس وهو يسمع تماما هذا اللغط :

انّ وجه أخيك أيتها السيدة باي مألوف بالنسبة اليّ،ولربما التقيت به في الخارج، أو في احدى المدارس الخاصة .

أجابته باهتمام:

كلا فهو لم يسافر من قبل،وقد تلقى تعليمه هنا. توم ياحبي أنا أخبر السيد جيمس أنه لم يرك في الخارج .

فأجاب توم:

لم يسعفني الحظ ياسيدي.

لم يكن فيه شيء يبهجها وينير وجهها ،فقد كان فتى نحيفا شاحبا وغير لبق في تصرّفاته حتى معها ،وعلى الرغم من ذلك كان المخلوق الوحيد الذي تأبه له. تقلبت هذه الفكرة في رأس السيد جيمس كثيرا ، انّ توم هو الشخص الوحيد الذي تأبه له أكثر. تأبه له أكثر.

في خلال وجود شقيقته في الغرفة وبعد خروجها ،لم يجد الجرو أي داع لاخفاء احتقاره للسيد باي واستخفافه به ،وكان يقوم بحركات ملتوية تظهر على وجهه أو يغمض عينا من عينيه .

كان السيد جيمس يشجعه في خلال الأمسية ،وذلك من دون تجاوب مباشر منه ،وقد أظهر له محبة غير عادية. وفي النهاية عندما وقف من أجل العودة الى الفندق وأبدى بعض الشك في عدم قدرته على

معرفة الطريق في خلال الليل أبدى الجرو استعداده لمساعدته وتقديم خدماته مباشرة ،دليلا على ذلك،وخرج معه ليدله على الطريق .

الفصل الثالث الجرو

من المؤكد أنّ شابا نشأ تحت نمط واحد من القمع والكبت غير الطبيعي أن سيصبح منافقا ،وهذا كان حال توم ،ولعله من المستغرب ألاّ يكون شاب لم يترك مدة خمس دقائق للتفكير وحده قادرا على التحكم بنفسه ،وهكذا كان حال توم ،ولعلّه من المستغرب أيضا أنّ شابا كان في طفولته ذا خيال غريب ،لايزال محاصرا بشبح ذلك الماضي حتى الآن ،ومن دون أي شك،كانت هذه حال توم .

سأله السيد جيمس :

هل تدخن؟

وقد تمّ هذا السوءال عندما حضر الى الفندق أجابه توم:

أعتقد أنك تدخن.وقدم له السيد جيمس شرابا باردا اضافةالى التبغ مماجعل توم يسترخي بسعادة تامة على أريكة ،وأصبح أكثر اعجابا بصديقه الجديد. نفخ توم من سيجارته ،وهو يلاحظأنّ صديقه لم يهتم بلباسه ،بينما هو في غاية الأناقة. وملأ السيد جيمس كأسا لتوم فشكره توم وقال له :

أتمنى ياسيد جيمس أن تكون قد أخذت فكرة عن السيد باي هذه الليلة ؟

أجابه السيد جيمس :

انه رجل طيّب جدا .

قال له توم وهو يغمز بعينيه :

أنت تعتقد ذلك أليس كذلك ؟

ضحك السيد جيمس وهو ينهض عن الأريكة ،ووقف أمام توم ونظر اليه قائلا:

أنت أخو زوجه ؟

وضحك . أجابه توم:

أنا أظن أنك تعني أنّ صهري شخص .

وضحك .

أجابه السيد جيمس :

أنت قطعة كاوية ومحرقة ياتوم. أجابه توم:

أنا لا أكترث بالعجوز باي فأنا دائما أطلق عليه الاسم نفسه عندما أتكلم عليه. ودائما أفكر فيه بالطريقة نفسها ولن أبدأ أتظاهر باللطف الآن بالنسبة الى السيد باي،فالوقت أصبح متأخرا .

رد عليه جيمس :

لاتكترث بي ولكن اهتم بي عندما تكون زوجته موجودة،.فأنت تعرف . أجابه توم:

زوجته ؟ أختي لويزا؟

نعم .

قال ذلك وهو يضحك ويشرب من المشروب البارد.

تابع السيد جيمس المناورة حول الهدف نفسه وهو يدخن سيجارته وينظر بسرور الى الجرو وكأنه مارد يحمي الجرو وسوف يأخذ منه كل

مايريده ،ومن الواضح أنّ هذا الجرو كان متأثرا بالسيد جيمس كثيرا ،وكان ينظر اليه باعجاب وبجرأة .

قال توم:

أما بالنسبة الى أختي فهي لاتهتم أبدا بالسيد باي.

أجابه السيد جيمس :

كان ذلك في الماضي ولكننا الآن في الزمن الحاضر.

أجابه توم:

انها لاتهتم به سواء في الماضي أو في الحاضر.

أجابه جيمس :

جيد ،هذا ظريف على الرغم من أني أعتقد أنك لاتعني ذلك .

أجابه توم:

ولكنني أقسم بشرفي أنني أعني ذلك،ولاأعتقد ياسيد جيمس أنك تظن أنّ شقيقتي لويزا تهتم بالسيد باي.

أجابه السيد جيمس :

ماذا يمكنني أن أفكر فيه عن اثنين يعيشان بسعادة واتحاد.

وفي هذه الأثناء كان توم يضع قدميه الاثنتين على الأريكة وهو يدخن وينظر الى الوجه الذي أمامه ،وقال:

أنت تعرف ياسيد جيمس والدنا ،ولذلك لاتستغربن أن تكون لويزا قد تزوجت من باي العجوز،فهي لم تحب قط ،ووالدنا عرض عليها باي العجوز ووافقت عليه .

أجابه السيد جيمس :

يبدو أنّ أختك مطيعة جدا. أجابه توم:

نعم ولكنها لم تأخذ الأمر بهذه السهولة ،ولم تكن مطيعة لو لم تكن تحبني. وتابع الجرو :

أنا أقنعتها فأنا أعمل في مصرف باي العجوز وهو المكان الذي لم أكن أحب أن أكون فيه ،وكنت أعلم أنني سأقع في مأزق هناك،لو لم توافق عليه ،لذا أخبرتها بأمنياتي،وقد نفذتها ، فهي على استعداد لفعل أي شيء فيه مصلحتي،وكان ذلك مغامرة منها أليس كذلك؟ أجابه السيد جيمس :

انّ هذا ساحر ياتوم.

وتابع توم ببرود:

لم يكن الأمر يشكّل أهمية بالنسبة اليها كما هو بالنسبة اليّ، لأنّ حريتي وراحتي ومستقبلي أمور اعتمد فيها عليها ،ولم يكن لها من أحد تحبه سواي، أما بقاوءها في المنزل فكان بمنزلة السجن ولاسيما عندما أذهب ،على أنها لم تعط باي العجوز أي حب.

رد عليه جيمس :

هذا مبهج. أجابه توم تعلم أنها فتاة منتظمة ،تستطيع الخوض في أي مضمار،وعلى الرغم من أنها فتاة الآ أنها ليست ذات نمط عادي،فهي تستطيع الانغلاق على نفسها لتفكّر وتستغرق في التفكير وما أكثر ماكانت تجلس في غرفتها وهي تراقب المدفأة مدة ساعة .

قال جيمس وهو يدخن بهدوء :

وهل لها مصادر خاصة بها ؟

أجابه توم :

ليس بمقدار ماتظن لأنّ والدنا قد قيّدها بكل ماهو جـــاف ورمادي،وهذا هو أسلوبه .

وهنا سأله جيمس :

وهل كان والدك يريد تشكيل ابنته على وفق نمطه نفسه ؟

ابنته ؟ نعم وكل شخص آخر بل انه قد شكلني وفق الطريقـــة نفسها .

أجابه توم .

فرد جيمس مستغربا :

مستحيل .

نعم فعل ذلك ـ قالها توم ،وهو يهز برأسه ـ وأنا أعنـــي بقولي هذا أنني عندما تركت المنزل،وذهبت الى باي العجوز لم أكن أعرف الكثير عن الحياة .

هيا ياتوم لاأكاد أصدق ماتقوله فلاشك في أنك تمزح .

أجابه الجرو:

أقسم بروحي أنني جاد.

قال ذلك وهو يدخن بشراهة كبيرة ،ومن ثم أضاف بلهجةلطيفة وفرحة :

ولكنني في خلال ذلك تعلمت أشياء قليلة وأنا لاأنكر ذلك ، ولكنني فعلت ذلك بنفسي فلا شكر يمكن توجيهه الى والدي .

سأله جيمس :

وماذا عن أختك الذكية ؟

أختي الذكية مازالت تراوح مكانها ،كانت تشكو لي أنها لاتجد

من تعتمد عليه ،ولكنها تجاوزت ذلك،فالفتيات يستطعن دائمــــا الاستمرار بطريقة ما.

سأله جيمس :

البارحة عندما حضرت الى المصرف للسؤال عن عنوان السيد باي، وجدت سيدة عجوزا هناك ويبدو أنها معجبة كثيرا بشقيقتك .

فأجابه توم: الأم سبارست ؟ اذا فلقد رأيتها؟ أومأ صديقه برأسه. أخذ توم السيجارة من فمه وقال :

انّ شعور الأم سبارست نحو لويزا هو أكثر من اعجاب فقط . أعتقد ذلك يمكنك القول انه عاطفة وولاء. والأم سبارست لم ترمي شباكها حول باي عندما كان عزبا.

كانت هذه آخر كلمات تفوّه بها الجرو قبل أن يغفو ويسهــو تماما.واستيقظ بعد أن حلم حلما مزعجا رأى فيه أنّ أحدا مــا رفسه بحذاء،وسمع صوتا يقول له :

الوقت متأخر استيقظ .

هنا انتفض من فوق الأريكة وقال:

يجب أن أذهب الآن .

وقال لجيمس :

التبغ الذي قدمته لي جيد جدا. ولكنه تبغ بارد جدا.

أجابه جيمس : نعم انه بارد جدا.

سأله توم:

أين الباب ؟ تصبح على خير. وحلم حلما آخر رأى فيه خادما أخذه عبر الضباب ،وبعد أن عذبه أعاده الى الطريق الرئيس حيــث

بقي وحيدا ،ومن ثم مشى الى البيت بسهولة من دون أن يتحرّر من تأثير صديقه الجديد وحضوره . ذهب الجرو الى الفراش في المنزل ولم يكن لديه أقل احساس بمافعله تلك الليلة ،فقد كان أخا أكثرمما هو جرو ،ذهب الى النهر ذي الرائحة الكريهة المصبوغ بالسواد ونام فيه وغطى رأسه الى الأبد بمياهه القذرة .

الفصل الرابع الرجال والأخوة

كان العمال وهم يفتشون عن وسيلة لتقليص الحواجز التي تعيق حيواتهم . فقد كانوا متمردين على الوضع الذي يعيشون فيه ،وكان سلاكير بوج هو من يمثلهم وكان من المفترض أن يكون المنقذبالنسبة اليهم وكلما مثّلهم كان خائنا .

لقد كان قادة العمال من حيث الأفكار يغلب أن يكونوا اسيئين مثلهم مثل أصحاب العمل. لكن الشخص الوحيد الذي فهم نيّات سلاكير بوج ولم يؤيد أفكاره ، كان ستيفن بلاكبول ولذا أخذ سلاكير بوج يحرّض العمال على ستيفن،ويصوّره لهم على أنه مخرّب .وعندما علم ستيفن أنه لن ينضم الى.اتحاد العمال ظنّ العمال أنه ضدهم وأنه مخرّب ،ولكن ستيفن في الواقع كان مخلصا جدا لطبقته وقضيتهم ولكنه كان يكره الأساليب الملتوية .

الفصل الخامس الرجال والسادة

قال باي بأسلوبه العاصف :

حسنا ياستيفن ماهذا الذي سمعته ؟ ماذا فعلت يا أفاق بك ادخل وتكلم ورد عليّ .

ودخل الى غرفة الجلوس حيث كانت طاولة الشاي ممدودة وزوجة السيد باي الشابة وشقيقها والسيد القادم من لندن جميعهم كانوا حاضرين. حيّاهم ستيفن وأغلق الباب ووقف بقربه وقبعته بيده .

قال السيد باي:

هذا هو الرجل الذي أخبرتك عنه يا جيمس .

وكان السيد الذي تكلم معه باي جالسا على الأريكة وهو يتحدث مع السيدة باي،فوقف وهو يقول بطريقة مسترخية :

حقا ؟

وتقدم من السيد باي. قال السيد: والآن رد عليّ. هذه الطريقة في الكلام بعد أربعة أيام من معاناته وقعت بقسوة وبطريقة مخالفة على اذن ستيفن،والطريقة التي تناول بها موضوعه بدت وكأنها تعده انسانا مخالفا لما سمّوه به .

قال ستيفن :

ماذا تريد مني ياسيدي؟

أجابه السيد باي: رد عليّ مادمت رجلا وأخبرنا عن نفسك وعن هذا الاتحاد .

أجابه ستيفن بلاك بول :

عـــــــذرا ياسيدي لايوجد عندي ما أتكلّم عليه هنا.

بدأ السيد باي بتوجيه ملاحظاته نحو ستيفن،وتحدّث موجهـــا كلامه الى السيد جيمس هارث هوس هذا نموذج منهم. عندما حضر هذا الشخص الى هنا من قبل،حذرته من الغرباء المـؤذين والموجوديـــــن دائما وممن سوف يشنقون في حال العثور عليهم. وأخذت هذا الرجـل على أنه يسير في الاتجاه الخاطىء،والآن هل تصدّق أنهم بالرغم من الصاق هذا الاتهام به لم يزل عبدا لهم،فهو خائف من أن يفتــح شفتيه ويتكلّم عليهم .

أجابه ستيفن:

لقد قلت انه لايوجد لديّ ما أقوله،ولم أقل انني خائف مـــن أن أفتح شفتي وأتكلّم .

أجابه باي:

أنا أعرف ماتعني،ويفضّل أن تخبرنا حالا أنّ المدعو(سلاكيـــر بـوج) ليس في البلدة ،وأنه يحرّض الناس على العصيان،وأنه ليــــس قائدا موءهلا لتنظيم الناس وأنه وغد وحقير. يفضّل أن تخبرنـــا بذلك حالا،فأنت لاتستطيع خداعي،أنت تريد أن تقول لنا ،فلمـــاذا لاتقول ؟

أجابه ستيفن وهو يهز برأسه :

أنا آسف مثلك تماما ،عندما يكون زعيم الناس سيئا ،ومن سوء حظهم أنهم لايستطيعون الحصول على الأفضل .

بدأ الجو يصبح عاصفا ومتوترا وقد قال باي لجيمس :

سوف تسمعني أسأل هذا الرجل سوءالا، ياسيد بلاك بول الرياح تعصف بسرعة، فهل أستطيع أن أسألك كيف حدث أن رفضت أن تكون في هذا الاتحاد؟

أجابه ستيفن:

كيف حدث ؟

قال السيد باي وهو يضع ابهاميه في طرفي معطفه ويغلق عينيه بثقة:

كيف حدث ذلك ؟

أجابه ستيفن:

بما أنك طرحت سوءالا ولا أريد أن أكون قليل الذوق لذا سأجيب عن سوءالك، لقد أعطيت وعدا.

أجابه باي:

ليس لي طبعا .

كلا ياسيدي ليس لك .

أجابه باي:

لو كان الأمر متوقفا عليّ لما كان يهم أن تعيرني أي اهتمام، ولم يكن للأمر أي أهمية .

أجابه ستيفن:

هذا صحيح .

قال السيد باي وهو يصفر بغضب :

بالرغم من أنه يعرف أنهم مجموعة من الحقيرين المتمردين الواجب نقلهم، والآن ياسيد جيمس لقد تمرّست بهذه الحياة فهل

قابلت رجلا كهذا؟

قال السيد باي ذلك وهو يشير الى ستيفن باصبع غاضب :

قال ستيفن معترضا على الكلمات التي قيلت موجها كلامه الى لويزا بعد أن نظر الى وجهها :

انهم ليسوا حقيرين أو شائرين،فهم ليسوا من هذا النوع ، ولم يتصرّفوا معي بجفاء ،هذا ما أحسه وأعرفه ،فلقد جلست اليهم، وشربت معهم ،وأحببتهم ،فدعهم يفعلون بي ما يشاؤون.

كان يفكّر بحماسة وبفخر،وكان مؤمنا بطبقته على الرغم من تصرّفهم السيء تجاهه ،ولكنه تذكّر أين هو الآن فلم يرفع صوته .

كلا ياسيدتي جماعتي مخلصون لبعضهم ،صادقون،محبون بعضهم بعضا حتى الموت واذا ماكان بينهم فقير أو مريض أو حزين فسوف يعاملونه بلطف وحنان .

كوني واثقة من ذلك ياسيدتي .

قال السيد باي بايجاز : لأنهم مفعمون بالفضائل اننا دائما نحاول اصلاح الخطأ الذي وقع فيه فأنا متأكد من ذلك،كما أنني متأكد أنّ السماء فوقي،ونحن صبورون أيضا ونريد بشكل عام أن نفعل ماهو صحيح عموما. الآن ياصديقي ـ قال باي وهو لم يعد يستطيع التحمّل أكثر ـ أعرني انتباهك مدة نصف دقيقة ،فأنا أود أن أتكلّم اليك كلمة أو اثنتين .

لقد قلت توا انه لايوجد شيء تخبرنا به حول هذه القضية ،هل أنت متأكد من ذلك ؟

نعم ياسيدي .

هنا قال السيد باي وهو يشير بابهامه الى السيد جيمس:

يوجد هنا سيد من لندن،وهو سيد من البرلمان وأنا أحب له أن يسمع الحديث الذي سيجري بيني وبينك، فهو أفضل من يلاحظ مغزى ماسنقوله.

أحنى ستيفن رأسه للسيد القادم من لندن وبدا عليه الاضطراب أكثر من المعتاد وأدار عينيه نحو لويزا التي كان يعدها ملجأه المريح،ومن ثم استقرّت عيناه على وجه باي، سأله باي:

والآن ممّ تشكو.

ذكره ستيفن قائلا: أنا لم آت الى هنا ياسيدي من أجل الشكوى بل أتيت لأنك أرسلت تطلبني.

قال السيد باي: هل أنتم تشتكون عموما؟

نظر اليه ستيفن بحيرة لحظة ومن ثم بدا عليه أنه قرّرشيئا ما.

ياسيدي أنا لست بارعا في ابراز ماأريد قوله مع أنني أحس به تماما،نحن في تشويش كامل، انظر الى البلدة ما أكثر غناها وانظر الى عدد الناس. انظر كيف نعيش؟ وأين نعيش؟ وبأية ظروف، انظر كيف تنظرون الينا، أو تكتبون عنّا، أو تتكلمون علينا، وكيف أنكم مصيبون ونحن دائما على خطأ، انظر كيف أنّ هذه الأمور قد كبرت وكبرت ياسيدي،وتوسعت أكثر وأصبحت أكثر قساوة، من سنة الى أخرى،ومن جيل الى آخر،ومن يستطيع النظر الى ذلك ولايقول انّ هذا التشويش؟

قال السيد باي:

بالطبع ،والآن ربما تدع السيد يعلم كيف ينسون هذا التشويش كما تحب أن تسميه وتحوله الى صواب .

لاأعرف كيف ياسيدي ولكن كل ماأعرفه هو أنني متعاطف مع العمال.

وهنا جرى نقاش حاد بين ستيفن والسيد بناي فقد عبّر ستيفن أنّ العمال ليسوا آلات بل أرواحا يملكون مشاعرهموأحاسيسهم .

وهذا الكلام لم يرق لباي الذي قال لستيفن وهو يفتح الباب ويهم بالذهاب :

توقف لحظة .

قال باي ذلك ووجهه محمر من الغضب .

قلت لك في المرة الأخيرة التي حضرت بها الى هنا: انه عليك تغيير مسار طريقك وألاّ تتطلّع الى الملعقة الذهبية .

فأجابه ستيفن:

أؤكد لك ياسيدي أنني لاأهدف الى ذلك .

فقال باي:

من الواضح الآن أنك أحد هؤلاء الشبان الذين يسيطر عليهم الظلم ،وهذا هو نمط حياتك ياصديقي.

هزّ ستيفن رأسه محتجا بأنه لا أعمال أخرى ينجزها:اذا لم أستطع العمل لديك فلن أستطيع الحصول على عمل في مكان آخر.

فأجابه باي:

لايوجد لديّ ماأضيفه .

نظر ستيفن الى لويزا مرة ثانية ،ولكنها لم ترفع نظرها

نحوه ،ولذا قال وهو يغادر:ليساعدنا ربنا في هذا العالم .

الفصل الثامن الذبول

كان الظلام قد حلّ عندما خرج ستيفن من منزل السيد باي،ومشى عبر الشارع حتى وجد أمامه المرأة العجوز التي سبق أن قابلهاخلال زيارته السابقة لهذا المنزل،وشاهد برفقتها من يعرفها جيدا ، راشيل،فقال: حبيبتي راشيل أنت معها.

ولكن العجوز أجابت :

أنا هنا مرة أخرى كماترى .

فقال ستيفن وهو يمشي بينهما وينظر من واحدة الى أخرى:

ولكن كيف أراك مع راشيل؟

وهنا أجابت العجوز مرة أخرى بفرحة :

تأخرت في توقيت الزيارة هذه السنة أكثر من المعتاد لأنني كنت مريضة ،فانتظرت حتى أصبح الطقس دافئا ،وللسبب نفسه لم أجعل رحلتي في يوم واحد بل جزأتها الى يومين،وحجزت في بيت المسافرين،وسوف أعود غدا صباحا الساعة السادسة. لقد سمعت أنّ السيد باي قد تزوج،وهذا يبدو جيدا.

وقالت العجوز بحماسة غريبة :

وأريد أن أرى زوجته التي لم أرها من قبل،وهي لم تخرج ، وبما آنّ وجهها يوحي بالصدق فقد تمنيت لو تكلمت معها وتكلمت معي .

مرة أخرى شعر ستيفن بعدم الحب لهذه العجوز لأنّ أخلاقهـــــا كانت توحي بالبساطة والوداعة .

فقال لها بلطف :

حسنا ياسيدتي لقد رأيت زوجته ،وهي شابة وأنيقةولها عينان سوداوان ذكيتان ومتزنتان.

وهنا صاحت العجوز مبتهجة :

صغيرة وأنيقة ،يا للزوجة السعيدة .

أجابها ستيفن:

أعتقد أنها كذلك .

ولكنه نظر نظرة شك الى راشيل .

أجابته العجوز:

تعتقد ذلك؟ يجب أن تكون زوجة سيدك سعيدة .

أومأ ستيفن بالموافقة بقوله ناظرا الى راشيل .

بالنسبة الى كونه رئيسي فهو لم يعد كذلك،فالنهاية وقعـــت بيني وبينه .

هنا سألته راشيل بقلق وبسرعة :

هل تركت العمل معه ياستيفن؟

فأجابها :

سواء تركت أنا العمل أو أنّ العمل تركني،فالنتيجة واحـــدة ، ولو بقيت هناك لكانت المتاعب قد تكاثرت ،لذا يفضّل أن أذهب ، وسوف أغادر البلدة ياعزيزتي،وأبدأ في مكان جديد.

أين ستذهب ياستيفن؟

أجابها:

لا أدري، ولكني لن أذهب اليوم أو غدا.

وكان ستيفن يفكّر في أنه بمغادرته البلدة سوف يقدّم خدمة لراشيل لأنّ ذلك سوف يحميها من سؤال الناس عن تعلّقها به. على الرغم من أنه سيعاني كثيرا من فقدانها.

قال ستيفن متحدثا الى العجوز:

تعالي الى غرفتي البسيطة أيتها السيدة، وتناولي فنجانا من الشاي، وسوف تحضر راشيل معنا، ومن ثم سأوصلك الى الفندق الذي تنزلين فيه. ولربما سيمضي وقت طويل يا راشيل قبل أن نلتقي ثانية.

اتجه الثلاثة نحو غرفته وعندما وصلوا الى شارع ضيّق، نظر ستيفن الى نافذة غرفته نظرة خوف، ولكن نافذته كانت مغلقة مثلما تركها، ولم يكن أحد هناك. فالروح الشريرة في حياته أي زوجته السكيرة ذهبت منذ شهور عدة ولم يعد يسمع عنها شيئا، أشعل شمعة وأحضر ماء ساخنا من الأسفل، من أجل صنع الشاي وأحضر خبزا وبعض الزبدة من دكان قريب. وكان الخبز والزبدة طازجين. صنعت راشيل الشاي، واستمتعت الزائرة بهذا كثيرا، واستمتع ستيفن أيضا بهذه الوجبة. سأل ستيفن العجوز عن اسمها فأجابته:

السيدة بفلر.

سألها ستيفن أعتقد أنك أرملة؟ أجابته:

نعم ومنذ سنين طويلة.

ووفق حساب السيدة بفلر فقد مات زوجها عندما ولد ستيفن.

قال ستيفن:

من المؤسف أن تخسري رجلا جيدا. هل لديك أولاد؟

أجابت :

كلا ليس الآن ليس الآن .

قالت ذلك بعصبية وهي تمسك كأس الشاي وتلمح راشيل بنعومة :

توفي ياستيفن .

فقال ستيفن:

أنا آسف لأنني تكلمت في هذا الموضوع، وأنا ألوم نفسي لأنني سببت لك ألما.

هنا قالت العجوز:

لديّ ولد وهو في وضع جيد ورائع. ولكن أرجو ألا تنتظر مني الكلام عليه . قالت ذلك وهي تضع كأس الشاي:

لقد فقدته . مازال ستيفن يتأسف للسيدة العجوز لم تكن طرشاء، فلقد سمعت كلمة في خلال الحديث فصرخت قائلة : باوندرباي بصوت منفعل وهي تنهض عن الكرسي، ثم تابعت :

خبئوني لاتدعوه يشاهدني، لاتدعوه يدخل حتى أذهب .

ارتجفت وكانت مضطربة، وحاولت الاختباء وراء راشيل التي كانت تهدئها وهي حائرة من طريقة تصرّفها.

هنا قال ستيفن بدهشة :

اهدئي ياسيدتي ليس السيد باي هو القادم بل زوجته. وأنت لاتخافين منها فقد كنت منذ ساعة فقط متحمسة لها جدا.

فسألته العجوز وهي مازالت ترتجف :

ولكن هل أنت متأكد من أنها السيدة. وليس زوجها؟

بالطبع متأكد .

فقالت العجوز. فاذا أرجوك لاتتحدّث معي ولا تبد أي اهتمام بي، دعني فقط أجلس وحدي في هذه الزاوية .

أومأ ستيفن برأسه موافقا وهو ينظر الى راشيل بهدف الحصول على توضيح ،راشيل التي لم يكن بمقدورها اعطاؤه أي توضيح، آخذ الشمعة ونزل الدرج،حيث عاد بعد دقائق وهو ينير الطريق للويزا وكان يتبعها أخوها الجرو توم وقفت راشيل جانبا ،وهي ممسكة بشالها وقبعتها عندما وضع ستيفن الشمعة على الطاولة وهو حائر من هذه الزيارة ،وانتظر معرفة سببها. أول مرة في حياتها تدخل لويزا أحد بيوت العمال في بلدة كوك تاون، أول مرة في حياتها تقف مواجهة آمام أحد أفرادهم، انها تعلم منهم أنهم موجودون بالمئات والآلاف أجل هي تعلم مقدار نتاج عطائهم اذا ماتجمّع عدد منهم خلال مدة زمنية محددة. .هي تعرفهم جماعات يخرجون ويدخلون الى أعشاشهم مثل النحل،ولكن في خلال قراءاتها عن عمل الحشرات أكثر مماقرأته عن عمل هؤلاء الرجال والنسوة .

وقفت لويزا بضع دقائق تنظر في الغرفة ،وآجالت بصرها من الكراسي القليلة الموجودة الى الكتب القليلة فالى المطبوعات العامة ، فالسرير ثم نظرت الى المرأتين وستيفن،ثم قالت له :

حضرت الى هنا للتحدّث معك بخصوص ماحدث منذ وقت قليل . وأود أن أقدم لك خدمة اذا ماسمحت لي بذلك .

هل هذه هي زوجك ؟

رفعت راشيل عينيها دلالة على النفي. احمرت لويزا خجلا وقالت :

انها لم تكن تريد أن تسأل سؤالا يسبّب آذى لأي شخص هنا ، سأعتذر عن عدم معرفتي كيفية التحدّث معكم كما يجب .

وبما أنّ ستيفن منذ وقت قليل عرّفها بنفسه فقد قامت لويزا بتعريف نفسها الى راشيل بطريقة قصيرة ومقتضبة ولكنها لطيفة ومتوددة. وقالت لويزا موجهة الحديث الى راشيل :

لابد أنه قد أخبرك بماحدث بينه وبين زوجي. لاشك في أنك ملاذه الأول كما أعتقد؟

أجابتها راشيل :

سمعت نهاية ماحدث ياسيدتي.

قالت لويزا :

هل أفهم من ذلك أنه اذا ماطرد عامل على يد رب العمل احتمل أن يتم طرده لدى كل أرباب العمل ؟

فردت عليها راشيل :

انّ فرصة الرجل الذي له سمعة سيئة بينهم تكون محدودة جدا ياسيدتي .

فسألتها لويزا :

ماذا تقصدين بالسمعة السيئة ؟

أجابتها راشيل :

كونه يسبّب مشكلات .

فقالت لويزا :

اذا بين حقد الطبقة التي ينتمي اليها وحقد الفئة الأخرى يكون هو الضحية . هل الفئتان منفصلتان في هذه البلدة ،حيث لايوجد مكان للعامل الشريف بينهما ؟

هزّت راشيل رأسها بصمت .

قالت لويزا :

لابد أنه قد امتلأ بالشك بالنسبة الى زملائه لأنه وعد ألاّ يكون واحدا منهم . وأعتقد أنه أعطى هذا الوعد لك . هل أستطيع سؤالك لماذا قطع هذا الوعد؟

هنا بدأت راشيل تبكي وقالت لها :

انها رجته أن يتجنّب المشكلات من أجل مصلحته . ولكني أعلم أنه يموت مائة مرة قبل أن يقطع عالمه . عرفت ذلك تماما .

بقي ستيفن خلال هذا الوقت مصغيا بتعمّق،ومن ثم تحدّث بصوت أقل ثباتا من المعتاد ،قائلا:

لاأحد سواي يعلم مقدار الحب والاحترام الذي أكنّه لراشيل. وعندما قطعت هذا الوعد على نفسي، أخبرتها بذلك،فقد كانت ملاك حياتي وكان هذا الوعد رزينا.

أدارت لويزا رأسها نحوه ثم نظرت الى راشيل وكانت تعبيرات وجهها رقيقة وسألته :

ماذا ستفعل ؟

وكذلك رقّت لهجة صوتها .

أجابها ستيفن والابتسامة على وجهه :

عندما أنتهي سوف أغادر هذه المنطقة وأجرّب حظي في منطقة

آخري، سواء أوفقت أم لم أوفق،فعلى المرء أن يحاول، اذ من دون المحاولة لانستطيع فعل شيء سوى التمدد والموت .

وكيف ستسافر؟ . سألته لويزا.

على قدمي ياسيدتي، على قدمي .

تلوّنت لويزا ،وكان في يدها حقيبة صغيرة أخذت منها ورقة نقدية ووضعتها على الطاولة ،ثم قالت :

أرجو ياراشيل أن تقولي له أن يأخذ هذا المبلغ من أجل مساعدته في خلال سفره . هل ستحاولين اقناعه بأخذ هذا المبلغ ؟

أجابتها راشيل :

لاأستطيع فعل ذلك ياسيدتي وليوفقك الله على عطفك على هذا الرجل الفقير ،ولكنه وحده يعرف ماهو صحيح بالنسبة اليه .

نظرت لويزا خائفة ،وغير مصدقة ،وقد هيمنت عليها شفقة سريعة على هذا الرجل الذي كان صادقا جدا وثابتا في خلال المقابلة التي جرت بينه وبين زوجها ،الذي فقد خلالها هدوءه في لحظة ،والآن هاهو ذا يقف ويده أمام وجهه وأرادت لويزا أن تلمسه بيدها ولكنها تراجعت ووقفت مكانها .

قال ستيفن :إنّ راشيل نفسها لاتستطيع أن تقدّم عرضا جيدا كهذا بأسلوب أفضل من ذلك . وحتى لاتظني أني رجل لاأقدّرالمعروف أو لايوجد لديّ منطق فسوف آخذ باوندين وسوف أعيدهما لك بعد ذلك .

فرحت لويزا من أسلوبه هذا ،فعلى الرغم من أنه لم يكن أنيقا ، أو بهي الطلعة ،ولكن أسلوبه في قبول المبلغ والتعبير عن

شكره بأسلوب مختصر،كان لهما صدى محبب وبليغ حتى انّ اللــورد مستر فيلد لم يستطع تعليم ابنه ذلك خلال قرن. كان توم فـــي خلال تلك الأثناء جالسا على السرير من غير اهتمام حتى وصلـــت الزيارة الى هذا الحد،وعندما رأى شقيقته على أهبة المغادرة نهض بسرعة وقال :

انتظري لحظة يالويزا قبل أن نذهب أود أن أتحدث معه لحظة، فقد خطر لي خاطر،واذا اقتربت من الدرج يابلاك بول فسوف أخبرك بما خطر لي .

وحاول ستيفن أن يحضر شمعة ولكن كان بصر توم قد نفـــد فقال له لاحاجة الى الضوء. ابتعد ستيفن وأغلق توم باب الغرفـــة وقال له :

أعتقد أنه يمكنني تقديم مساعدة لك،لاتسألني: ماذا لأنـنـي ربما لن أستطيع مساعدتك،ولكن لاضرر في المحاولة . كان تنفـــس توم حارا جدا وقد نزل كالشرارة في أذن ستيفن،وقال له توم:

انّ من أحضر لك الرسالة اليوم هو الحمال في المصرف .

فكر ستيفن:ما أشد عجلته وهو يتكلّم باضطرابه

سأله توم:

متى ستترك العمل؟ أجابه :

الجمعة أو السبت القادم .

فقال له توم:

سأحاول أن أساعدك،واذا لم أستطع فلاضرر في ذلك .أسألـــك ثانية هل تعرف حمال المصرف اذا رأيته مرة ثانية ؟أجابه ستيفن:

بالطبع .

آجابه توم:

حسنا عندما تترك العمل فابق قريبا من المصرف نحو الساعة هل تستطيع ذلك؟ وسأرسل لك الحمال ليتكلم معك اذا رأيت أنني أستطيع أن أؤدي لك الخدمة التي أريدها لك. وفي هذه الحالة سوف يحمل لك رسالة والآن هل فهمت تماما؟

نعم لقد فهمت ياسيدي .

أجابه ستيفن :

والآن انظر هنا.

قال توم: كن على حذر من أن تقوم بأي خطأ ولاتنس ،وسوف أخبر شقيقتي عندما نذهب الى المنزل عمّاحدث بيننا ،والآن هل فهمت كل شيء؟ هيا بنا يالويزا. دفع توم الباب وهو ينادي لويزا ،ولكنه لم يعد الى الغرفة ،ولم ينتظر حتى ينار الدرج فقد كان في الأسفل عندما بدأت تنزل وكان في الشارع قبل أن تستطيع الأخذ بذراعه .

بقيت السيدة بفلر في زاويتها حتى ذهبت لويزا وشقيقها وحتى عاد ستيفن والشمعة في يده . كانت في حالة اعجاب تام بالسيدة باي،وبكت وهي تقول :

انّ لويزا عزيزة وحبيبة ،ومن ثم أوصلها ستيفن وراشيل الى الفندق الذي تنزل فيه ،حيث افترقا عنها. وعادا الى زاوية الشارع حيث تعيش راشيل،ولمّا اقتربا أكثر فأكثر منه ساد الصمت بينهما،وعندما اقتربا من الزاوية المظلمة حيث تنتهي لقاءاتهما

دائما وقفا، ومازالا صامتين وكأنهما خائفان من التكلم. قال ستيفن :

سوف أحاول ياراشيل رؤيتك قبل أن أذهب، ولكني اذا لم أستطع .

أجابته راشيل :

يجب أن نقرر أن نكون صريحين تجاه بعضنا.

أجابها ستيفن :

أنت دائما قوية جدا وأفضل مني وأنا أفكر ياراشيل فيأنه مادام لم يبق سوى يومين قبل رحيلي فيفضل ياحبيبتي ألا تظلي معي، فذلك سوف يجلب لك المتاعب من دون فائدة .

أنا لا أهتم بذلك ياستيفن، ولكنني أفكر في اتفاقنا القديم، وذلك مايقلقني، هل ستكتب لي ياستيفن وتخبرني بمايحدث ؟

نعم وماذا أستطيع أن أقول الآن سوى ليكن الرب معك وليحمك فالسماء تباركك وتكافئك .

فأجابته راشيل :

وليباركك الرب أنت أيضا في كل تجوالك وليرسل ربي لك السلام والراحة في النهاية .

قال لها ستيفن بلاك بول :

لقد أخبرتك ياحبيبتي أنني لم أر شيئا يغضبني الا وأنت سوف تكونين بجانبي وسوف تجعلينني أرى ذلك بعيني أفضل فليباركك الله والى اللقاء ولتصبحي على خير .

عمل ستيفن في اليوم الثاني وهو غير مسرور، بأية كلمة منأي

شخص ،وبقي حياديا في كل جولاته ،وفي نهاية اليوم الثاني رأى سفينة ،وفي نهاية اليوم الثالث كان نوله فارغا ،بقي في الشارع خارج المصرف ساعة كل يوم مدة يومين ولم يحدث شيء هناك سواء كان جيدا أو سيئا ،وحتى لايكون متهاونا بالاتفاق الذي تمّ بينه وبين توم ، انتظر مدة ساعتين كاملتين في يومه الثالث والأخير. كانت هناك السيدة التي كانت تشرف على منزل السيد باي السيدة سبارسنت وكانت تجلس قرب النافذة كمارآها من قبل وكان هناك الحمال يتحدّث معها ،حينا ،ويذهب الى الباب حينا آخر ،وقف على الدرجات ليستنشق الهواء ،وعندما خرج أولا اعتقد ستيفن أنه ينظر اليه ويلحظ وجوده ولكن الحمال مشى فقط بعينيه ولم يقل شيئا. وكان لتطواف ستيفن مدة ساعتين بعد يوم عمل طويل صعوبة وارهاق بالنسبة اليه. وقف ستيفن قرب الباب وهو يسمع ساعة الكنيسة ،وقف يتأمل الأطفال وهم يلعبون في الشارع. أغلقت السيدة سبارست شباك الطابق الأول،وأرخت الستائر،وصعدت الى الأعلى،فغادر ستيفن الى غرفته ،حيث كان عليه أن ينام هذه الليلة فقط لأنّ أمتعته كانت معدة للسفر غدا ،وكان ينوي أن يغادر مبكرا جدا قبل أن يبدأ العمال ينزلون الى الشوارع .خرج بعد بداية سطوع الشمس وهو يودّع غرفته بنظرة حزينة وحائرة ،فقد كان يمكنه رؤية هذا المكان مرة أخرى. كان كل شيء يبدو شاحبا في تلك الساعة ،حتى شروق الشمس ،كان شاحبا في السماء مثل بحر حزين .

صعد ستيفن الى أعلى التلة ،ونظر الى حيث تسكن راشيل،الى المصانع الصامتة ،والى كل شيء في البلدة. كان النهار قد بدأ ،

وكانت الأجراس تقرع معلنة بدء العمل،ولم تكن النيران قد اشتعلت بعد وكانت المدافىء العالية ترمي بسمومها.

من الغريب التحوّل من المدافىء الى العصافير. ومن الغريب أن يمشي على غبار الشارع عوضا عن الفحم. ومن الغريب ،أن يكون بهذا العمر وأن يبدأ كطفل صغير في هذا الصباح الصيفي.بهذه الأفكار وهي تغزو ذهنه وثيابه بين ذراعيه ، بدأ ستيفن رحيله الجديد والأشجار تصفر،لقد ترك قلبا صادقا محبا خلفه .

الفصل السابع مسحوق البارود

كان السيد جيمس هارث هوس يخطط من أجل جعل لويزا تقع في غرامه ،فلقد أثر فيها تأثيرا كبيرا. وكان السيد جيمس وبعد وصوله الى البلدة بمدة قصيرة قد كتب الى شقيقه يقول :انّ عائلة (باوندر باي) ليست الا مهزلة كبيرة ،وانّ السيدة باي شابة وجميلة وليست كأفراد عائلتها. وبعد ذلك لم يكتب عنهم أي شيء بل وقف أوقات فراغه كلها للذهاب الى منزلهم وكان يلقى كل تشجيع من السيد باي. وكان من عادة السيد باي أن يفخر أنه لايأبه للناس الذين ينتمون الى الطبقة العالية ،ولكن اذا كانت زوجة السيد باي ابنة السيد غرند تأبه لهذه الطبقة فلها كل الحرية في معاشرتهم. وكان جيمس يطمع في أن تبدي لويزا اهتماما به مثلما تبدي اهتماما بالجرو ،وقد أحسّ أنّ ذلك سيكون جميلا جدا. كان السيد جيمس دقيق الملاحظة ،وذاكرته جيدة ،ولم ينس الكلمة التي تحدث

بها هو وشقيقها،وبدأ يدرس شخصيتها ويفهمها جيدا.

اشترى السيد باي منزلا وأرضا تابعة له تبعد نحو خمسة عشر ميلا من البلدة،ويسهل الوصول اليه بوساطة سكة حديدية.وكان السيد باي فخورا جدا بهذا المكان ويعتني به عناية كبيرة،وفي أحد الأيام وفي أثناء زيارة السيد جيمس لمنزل السيد باي الريفي، التقى بالسيدة لويزا وحاول التقرّب منها بقوله:

يسرّني أنني التقيتك هنا من دون أي شخص آخر اذ انني ومنذ مدة أرغب رغبة خاصة في التحدّث اليك. كان مكان لقائهما هو مكانها المفضل،وكانت تجلس هناك تراقب تساقط أوراق أشجارالسنة الماضية كما كانت تراقب تساقط الرماد في منزل والدها.

جلس بقربها وهو ينظر اليها. وقال لها:

شقيقك الشاب توم صديقي.

هنا تورد وجهها ونظرت نحوه باهتمام،وفكر بينه وبين نفسه قائلا:

لم أر في حياتي تعبيرات مسرّة كتعبيرات وجهها وخانت تعبيرات وجهه أفكاره،فبدا على وجهه ماكان يفكّر فيه.قال لها:

أرجو المعذرة ولكن تعبيرات اهتمامك الأخوي الكبير بتوم جميلةجدا،وعلى توم أن يفتخر بذلك،وأنا أعلم أنّ هذا هو غير قابل للفخر،ولكنني أجد نفسي مضطرا لأن أعجب بذلك.

فأجابته بهدوء:

أنت محرّض كبير.

فأجابها:

كلا ياسيدة باي،فأنت تعرفين أنني لاآدعي أمامك،وأنت تعلمين أنني قطعة دنيئة من الطبقة الانسانية ومستعد لبيع نفسي في أي وقت من أجل أي مبلغ معقول. فأجابته قائلة: انني بانتظار شهادتك الاضافية في أخي .

أجابها جيمس:

أنت قاسية معي وأنا أستحق ذلك،ولكنني لست مزيفا،ولكنك فاجأتني بالنسبة الى أخيك فأنا فعلا مهتم به .

فسألته لويزا:

هل لك اهتمام بأي شيء ياسيد هارث هوس ؟

كانت تتكلم وهي نصف شاكة فيه ونصف ممتنة له .

فأجابها :

لو سألتني هذا السؤال عندما أتيت هنا في البداية لكنت أجبتك كلا. أما الآن،وعلى الرغم من أنني سأظهر كأنني مدع،فانّ جوابي هو نعم .

تحرّكت قليلا وكأنها تريد أن تتكلم ولكن صوتها لم يسعفها ثم قالت:

ياسيد جيمس أنا ممتنة لك لأنك مهتم بأخي. فأجابها شاكرا أنها فعلت الكثير من أجل شقيقها،وأنها مولعة به جدا وأنّ حياتها كلها قد ضحت بها وتناستها في سبيله .

وقال لها: انه مهتم به من أجل مصلحته فقط .

وكانت تهم بالذهاب ،ولكنها بقيت ثابتة في مكانها،وتابع السيد جيمس قوله: انها ليست اساءة قطعية اذا ماكان شاب

بعمر أخيها طائشا فعلا،ومسرفا وغير مستقر ومشتتا قليلا،ولكن هل هو كذلك حقا؟

أجابته:

نعم .

فسألها أن تسمح له بأن يكون صريحا بسؤالها:

هل أخوها من النوع الذي يقامر؟

فأجابت:

انها تعتقد أنه يراهن،ومن ثم قالت:

انها تعرف أنه يراهن .

فسألها:

هل يخسر ؟

أجابته:

نعم .

وسألها:

هل تمدينه أحيانا بالمال من أجل أهدافه هذه؟

كانت لويزا في تلك الأثناء جالسة ومطرقة الى الأرض،ثم ما لبثت أن رفعت عينيها تبحث وهي مستاءة قليلا .

فتابع السيد جيمس قوله: اعذريني ياسيدتي على تطفلي هذا، وتدخلي،ولكنني أود أن أمد له يد المساعدة،ترى هل عليّ أن أقول مرة أخرى: انّ ذلك في مصلحته؟ وهل هذا ضروري؟

حاولت الاجابة ولكن لم يخرج شيء من فمها.

تابع السيد جيمس:

أريد أن أعرف كل مايجول في خاطري،فأنا أشك في أنّ له مغامرات كثيرة واعذريني على صراحتي،ولكن هل هناك ثقة بينه وبين والده ؟

فأجابته لويزا قائلة :

انها لاتعتقد ذلك .

تابع :

اذا بينه وبين صهره السيد باي؟

فأجابته بصوت منخفض ووجهها كان يشتعل نارا :

لا أعتقد ذلك أيضا .

فسألها السيد جيمس بعد لحظة صمت قصيرة : سيدة باى هل يمكننا أن نكون أكثر صراحة ؟ هل أخذ توم منك مبلغا كبيرا من المال ؟

أجابته قائلة وهي قلقة في خلال المحادثة : انك سوف تفهم اذا ما أخبرتك ماتود معرفته ،فأنا لا أفعل ذلك بهدف التذمر أو الندم . فأنا لا أتذمر من شيء ومافعلته لايسبّب لي أي ندم .

فكر جيمس في أنّ روحها عالية جدا . تابعت لويزا قولها :

عندما تزوجت وجدت أنّ أخي كان في ذلك الوقت مثقلا بالديون . كان مثقلا حتى انني اضطررت الى بيع بعض الحلي،ولقد تصرّفت بها وأنا مسرورة . لم تكن ذات قيمة بالنسبة اليّ .

وسواء رأت لويزا على وجه السيد جيمس أنه قد علم أو أن تكون قد خشيت بينها وبين نفسها أن يكون قد علم أنّ بعض ما باعته من الحلي كان من هدايا زوجها . فتوقفت عن الكلام واحمرت

خجلا،ولكنه كان قليل الفهم. وتابعت بعد لحظة صمت حديثها:

انها منذ ذلك الوقت بدأت تعطي أخاها المال بين وقت وآخر.

ثم قالت :

وبما أنني واثقة بك ولاسيما أنك تهتم به،وبما أنك معتاد كذلك على زيارتنا هنا،فسأخبرك بموضوع آخر. لقد طلب اليّ منذ مدة مبلغا مقداره مائة باوند،ولم أستطع أن أعطيه اياه. ولم أكن مسرورة بالظروف التي جعلته متورطا هذا التورط الكبير، ولكنني احتفظت بهذا السر حتى الآن،لأنني لم أكن أثق بأحد.

كان السيد جيمس رجلا جاهزا ومستعدا،وقد لمح فرصة لابراز صورتها أمامها،وهو يظهر لها أنه يقصد أخاها. فقال لها:

أنا أشعر باهتمام كلي بما أخبرتني. ولا أستطيع أن أكون قاسيا على أخيك فأنا أفهم الموقف الحكيم الذي تنظرين فيه الى أخطائه،وأشاطرك فيه مشاطرة فيها كل احترام أكنه للسيدين غرند وباي،فأنا أعتقد أنهما لم يوفقا بتدريبهما لتوم. فقد كان السيد غرند متطرفا في تعامله،وعلى الرغم من استغلال السيد باي - وهو ذو شخصية ساحرة- لكنه لم يستطع أن يكسب ثقة توم.

جلست لويزا وهي تنظر أمامها باتجاه الظلمة المنتشرة خارجا مما سمح له بأن يرى في وجهها موافقتها على كلماته التي نطق بها.

تابع قوله:

أنا أجد غلطة واحدة كبيرة في توم ولاأستطيع أن أغفرها له، وهذا ماسوف أحاسبه عليه بقسوة. أدارت لويزا عينيها نحو

وجهه وسألته عن هذه الغلطة .

فأجابها :

لاأستطيع أن أغفر له عدم حساسيته تجاه كل كلمة أو نظرة أو تصرّف في هذه الحياة ، وعن عدم تقديره للعاطفة نحو صديقه الأفضل،ونحو تضحيته وعدم امتزاجها بالأثرة .

كان جيمس يهدف الى ابراز عدم تقدير توم لأخته لويزا وللتضحيات الكبيرة التي قدمتها له . وتابع قوله :

انّ ماقدمه لها مقابل ذلك كان قليلا جدا فماقدمته له يقتضي منه امتنانا وحبا ثابتا لها،وليس شذوذا وغرابة في الأطوار،وعدم لباقة في التصرّف . وبما أنني شخص غير مبال فلا أختلف كثيرا عنه،ولكنني لن أعد ذلك فضيلة في شخصه أو أنوي أن أعد ذلك اساءة بسيطة .

كانت عيناها ميللتين بالدموع،وكان قلبها مليئا بألم لا عزاء له .

تابع السيد جيمس قوله : انه ملم بالظروف التي تحيط بحياة توم،وانه ينوي تخليصه من هذا التهور أو الطيش الذي يرافقه - وأكد لها أنه يوءثر فيه- لقد تكلمت كلاما كافيا أكثر مما أعتقد وبدا وكأنني أتظاهر بأنني شاب جيد،ولكنني أقسم بشرفي لاغاية لي الاّ أن أفعل ذلك وأنا أعلن ذلك على الملأ .

كان يتكلم وهو يتنقل بين الأشجار وأضاف وهو ينظر اليها لقد أصبح أخوك في الأيام الأخيرة كثير الصمت والحزن،ولربما يكون ضميره الأخوي قد استيقظ ،هذا اذا كان يوجد لديه ضمير،

على الرغم من أنني أسمع بالضمير،ولا أصدق وجوده. أصرّ عليها بأن تنهض فأخذت ذراعه ،وتقابلا مع الجرو.

كان يضرب أغصان الأشجار بتكاسل ولقد فوجئ عندما رآهما يتقدمان اليه ،وهو يلهو وتغيّر لونه. قال لهما: مرحبا لم أكن أعلم أنكما هنا.

أجابه جيمس:

أهلا ياتوم.

ووضع يده على ذراعه ومشى الثلاثة معا باتجاه المنزل وسأله جيمس:

هل أنت تنقش على الأشجار اسما ما؟

أجابه توم:

اسم أي اسم؟

هل تعني اسم فتاة؟ أجابه جيمس:

يبـــــــدو عليّ مظهرك أنك ترسم شكل فتاة على الجذع ياتوم وتابع جيمس:

أخشى ياتوم أنك جندي مرتزق.

أجابه توم:

ترى هل من أحد ليس جنديا مرتزقا؟ اسأل شقيقتي.

أجابته لويزا:

هل استطعت البرهان على أنّ التقصير كان من جانبي ياتوم؟

قالت ذلك من دون أن تبدي أية ملاحظة أخرى على سوء تصرّفه وطبيعته المريضة.

أجابها توم وهو كئيب :

أنت تعرفين يالويزا اذا ماكانت القبعة تناسبك أو لا.فاذا كانت تناسبك فسوف تستطيعين ارتداءها .

قال السيد جيمس :

توم اليوم يبدو وكأنه يكره الناس ،مثله مثل كل من يشعر بالضجر،فلاتصدقيه ياسيدة باي،فهو يعرف أكثر من ذلك كثيرا ، وسوف أذيع بعض آرائه المرتبطة بك وقد كلمني عليها ونحن وحدنا الا اذا لان قليلا .

أجابه توم:

في كل الأحوال ياسيد جيمس أنت لاتستطيع أن تقول لها انني امتدحتها لكونها جنديا مرتزقا ،فبامكاني أن أمدحها وأرد اذا كانت خلاف ذلك،وسوف أمدحها ثانية اذا كان هناك سبب وجيه لذلك. ومهما يكن فالموضوع ليس مهما الآن،وأنا مرهق جرّاء هذا الموضوع .

سار الجميع نحو المنزل حيث تركت لويزا ذراع زائرها ،ودخلت ووقف الزائر وهو يتأملها ،ثم وضع يده على ذراع شقيقها ودعاه الى نزهة في الحديقة ،وقال له :

ياعزيزي توم أود أن أتحدث معك .

توقفوا ضمن مجموعة من الأزهار المبعثرة اذ كان من ضمن عمل السيد باي تجميع الأزهار وتنسيقها ،وجلس توم يقطف الأزهار ويقطعها الى قطع ،بينما وقف صديقه قريبا منه وسأله جيمس :

ما الأمر ياتوم؟

أجابه بألم :

أنا أشعر بسأم في حياتي .

فأجابه جيمس :

وأنا كذلك يارفيقي الطيّب .

أجابه توم :

أنت صورة عن الاستغلال ياسيد جيمس ،ولكني في تشويش رهيب فأنت لاتعرف في أي وضع ،ورطت نفسي والحالة التي كانت أختي تستطيع انتشالي منها لو فعلت ذلك علما أنّ توم كان قد طلب في الأيام الأخيرة مبلغا من لويزا ،ولكنها رفضت اعطاءه اياه ،ولذلك بدأ يعاملها بفظاظة .

أجابه جيمس :

ياتوم أنت غير منطقي،فأنت تتطلّب الكثير من شقيقتك،ولقد أخذت مالا منها أيها الكلب وأنت تعرف ذلك .

حسنا ياسيد جيمس أنا أعرف ذلك ولكن كيف كنت سآخذ المال بغير هذه الطريقة ،فقد كان باي العجوز دائما يتبجح أنه عندما كان في مثل عمري كان يعيش ببنسين شهريا ،وفي الجانب الآخر كان هناك والدي الذي رسم خطا ،وقيدني به منذ أن كنت طفلا،وهناك أمي التي لاتملك شيئا سوى الشكوى. ولذا من أين كان لي أن أحصل على المال من غير شقيقتي؟ وبدا عليه أنه سوف يبكي فأمسكه السيد جيمس بلطف وقال له :

لربما ياعزيزي توم لم تستطع شقيقتك تدبير المبلغ .

فأجابه: لو أرادت تدبيره لاستطاعته،ولكن لم يعد ذا فائدة

أن نخفي الأمور الآن،فبعد الذي أخبرتك به مسبقا تعلم أنها لم تتزوج من باي العجوز من أجل مصلحتها أو من أجله ولكن من أجلي. اذا فلماذا لاتحضر ماأريده منه من أجلي؟ ولو أرادت لاستطاعت أن تلاطفه ،ولكنها دائما تجلس بقربه مثل الحجر،عوضا عن التصرّف بسهولة ،وعوضا أن تجعل نفسها مقبولة بالنسبة اليه.

وأنا لاأدري مايمكنك أن تسمي ذلك،ولكنني أسميه سلوكا غير طبيعي . كان هناك أمامهما بعض الماء،وكان السيد جيمس يشعر برغبة قوية في قذف توم بهذا الماء،ولكنه هدأ نفسه،وقال :

عزيزي توم،دعني أجرّب أن أكون صيرفيا لك .

أجابه توم:

بحق الله لاتتكلّم على أصحاب المصارف .

وكان شكل توم شاحبا جدا اذا ماقورن بالأزهار التي أمامه.

وبما أنّ السيد جيمس كان رجلا مهذبا ومعتادا على المجتمع الأفضل فهو لم يفاجأ،فرفع حاجبيه قليلا بدهشة اذ كان ماسمعه ضد مبادئ مدرسة السيد غرند.

ماحاجتك ياتوم الآن قل .

أجابه توم وهو يبكي :

الوقت أصبح متأخرا ولم يعد المال ذا فائدة بالنسبة اليّ في الوقت الحاضر،كما كان في الماضي،ولكنني مدين لك،فأنت صديق حقيقي .

فكر السيد جيمس :

صديق حقيقي أيها الجرو ماأشد أنك حمار؟

وتابع توم قوله :

عرضك هذا لطيف جدا ياسيد جيمس .

أجابه :

اذا أخبرتني مايحيرك عندما تتضايق فيمكن ذلك أن يوصلك الى طرق أفضل مما تجد نفسك فيه .

فقال توم:

أشكرك وأتمنى أن أكون قد عرفتك منذ وقت أطول .

أنت ترى الآن ياتوم أنّ كل رجل يمتاز بالأثرة في كل ما يفعله ،وأنا مثلي مثل المخلوقات الأخرى،وأريد منك أن تكون أكثر لطفا نحو شقيقتك،وهذا مايجب أن تفعله وأن تكون أخا محبّا وطيبا ،وهذا مايجب عليك فعله .

فأجابه توم:

سوف أكون كذلك .

فأجابه جيمس :

اذا فلاوقت أفضل من الحاضر،،ابدأ توا.

بالطبع سأفعل ذلك،وسوف تقول ذلك شقيقتي لويزا.

عندما ظهر توم قبل الغداء،على الرغم من أنّ ذهنه كان مثقلا بينما كان جسمه نشيطا ،ووصل قبل وصول السيد باي قال لشقيقته وهو يقبلها: أنا لم أقصد أن أضايقك يالويزا. فأنا أعرف أنك شغوفة بي،وأنت تعلمين أنني شغوف بك. بعد ذلك كان هناك ابتسامة على وجه لويزا ،في ذلك اليوم ،ولكن الابتسامة كانت لشخص آخر،وآسفاه لشخص آخر. فكر جيمس هارث هوس : انّ اهتمامها

بالجرو بدا كأنه اهتمام بمخلوق وحيد تهتم به فينقص ،ينقص تدريجيا ، آجل ينقص .

الفصل الثامن الإنفجار

كان الصباح التالي أكثر اشراقا ،من أن يستطيع الانسان النوم فيه ،فاستيقظ جيمس هارث هوس باكرا وجلس قرب النافذة في غرفته ، وهو يدخن السيجار الذي آثر في صديقه توم. كان مستلقيا في الشمس والدخان الحالم يختفي في الهواء ،وقد كان مسرورا بالنتيجة التي توصل اليها . فلقد جعلها تثق به بينما كان زوجها مستثنى من هذه الثقة ،وهذه الثقة جعلتها غير مبالية بزوجها . ولقد أكد لها صراحة أنه اقترب منها بسبب قلبها المليء باحساسات لطيفة أما الحاجز الذي كانت تعيش خلفه فقد تبخر، وكانت الأفكار الشيطانية تدور في رأسه حول علاقته بلويزا . لبس ثيابه وهبط لتناول الافطار ،وكان قلقا ازاء ضرورة امكانية تغيّرها منذ الليلة الماضية ،ولكن كلا فقد كانت تنظر اليه باهتمام . تجوّل خلال النهار ،وعاد نحو الساعة السادسة وكان على حصانه ،عندما رآى باي مندفعا نحوه قائلا:

هل سمعت يا هارث هوس ماحدث ؟

سأله جيمس :

سمعت ماذا ؟

قال له السيد باي ووجهه ممتعض :

لقد سرق المصرف .

آجاب جيمس :

أنت لاتعني ذلك .

نعم ياسيدي لقد سرق البارحة بطريقة غير مألوفة . لقد سرق بمفتاح مزيّف .

سأله جيمس :

كم سرق منه ؟

أجابه :

اذا كنت تريد الكمية بالتحديد فهي ليست أكثر من مائة وخمسين باوندا ،ولكن الموضوع ليس موضوع المبلغ بل هو حقيقة سرقة المصرف ،هذه هي الظروف المهمة التي أستغرب أنك لم ترها .

أجابه جيمس وهو يترجل من على الحصان بقوله :

عزيزي باي أنا أرى ذلك،وأنا مستاء بمقدار ماترغب أنت في هذه الظروف الصعبة ،وعلى كل فأنا أهنئك من كل قلبي على عدم خسارتك أكثر من ذلك .

أجابه باي بأسلوب مختصر وغير مسرور :

أشكرك ولكنني أخبرك أنه كان يمكن المبلغ أن يكون عشرين ألفا .

فأجابه جيمس :

أعتقد ذلك .

فأجابه باي وهو يهز رأسه متوعدا ومزموجا :

تعتقد ذلك، يحتمل أن يكون المبلغ مضاعفا فمن غير المعروف

كم كان يمكنه آن يكون لو لم ينزعج اللص بوجود شخص دخل الى مكان السرقة .

في هذا الوقت حضرت لويزا والسيدة سبارست وبيتزر. فقال باي متبجحا :

هاهي ذي ابنة توم غرند تعرف تماما ماكان يمكنه آن يحدث اذا كنت آنت لاتعرف ياجيمس ،فلقد صدمت تماما عندما آخبرتها بماحدث ،ولم آعرف آنها فعلت شيئا كهذا من قبل،وهي ماتزال شاحبة وضعيفة .(توم غرند تصغير اسم توماس الأب).

هنا طلب منها جيمس آن تمسك بذراعه ومشيا ببطء وهو يسألها :

كيف ارتكبت السرقة ؟

آجابه باي وهو يعطي ذراعه للسيدة سبارست بنزق :

سوف آخبرك آنا بماحدث . ولو لم تسآل سؤالا محددا عن المبلغ لكنت بدآت اخبارك من قبل . هل تعرف السيدة سبارست ؟

آجابه جيمس :

لقد سبق آن تشرفت بمعرفتها.

حسنا هل تعرف هذا الشاب بيتزر،وهل رآيته في المناسبة نفسها؟ آومآ السيد جيمس رآسه : نعم .

تابع السيد باي :

حسنا انهم يعيشون في المصرف ،ربما تعرف ذلك ؟ والبارحة مساء وبعد انتهاء ساعات العمل كان كل شيء قد وضع في مكانه كماهو معتاد،وفي الغرفة الحديدية التي ينام هذا الشاب خارجها

وأقصد خزانة توم الحديدية،كان يوجد مائة وخمسون باوندا.

أجابه بيتزر:

بل كان يوجد مائة وأربعة خمسون .

فأجابه باي :

اصمت ولاتقاطعني فيكفي أنني سرقت ،وأنت تشخر، انك مستريح،ولكنني عندما كنت في ستك لم أكن أشخر بحسب علمي .

بدا على بيتزر التأثر من كلام السيد باي الذي تابع :

مائة وخمسون باوندا كان توم محتفظا بها في الخزانة الحديدية التي لم تكن بالقوة المطلوبة ،ولكن هذا لايهم الآن،وأحيانا وعندما يكون هذا الشاب يشخر،فكما قلت ياسيدة سبارست ،هل سمعته يشخر؟

أجابت السيدة :

لاأستطيع القول انني سمعته يشخر بالضبط ،ولكن خلال أمسيات الشتاء وعندما كان يغفو على طاولته،سمعته يطلق صوتا وكأنه يختنق ويصدر أصواتا غريبة. ولكنني دائما أعد بيتزر رجلا ذا مبادئ ثابتة،وهذه هي شهادتي فيه .

هنا قال السيد باي :

حسنا ففي خلال شخيره أو اختناقه تسلل أحد الأشخاص،وفي خلال نوم بيتزر دخل أحد ما الى الداخل وأفرغ محتويات خزانة توم الحديدية ،ولمّا شعر اللص أو اللصوص بنوع من الخطر خرجوا من الباب الرئيس وأعادوا قفله بمفتاح مزيّف ،ورموا المفتاح في الشارع قرب المصرف نحو الساعة الثانية عشرة اليوم،ولم يلاحظ أحد شيئا،حتى

حضر بيتزر هذا الصباح،وبدأ يفتح المكاتب ويحضرها للعمل ،ومن ثم،وهو يلقي نظرة على خزانة توم وجد الباب مشرعا والقفل مكسورا والمال مفقودا.

هنا سأل السيد جيمس وهو يتلفت :

أين توم ؟

أجابه باي: انه يساعد الشرطة ،ويقف قرب المصرف .

سأله جيمس :

هل تشك في أحد؟

أجابه :

أشك ؟ فجوزيه باوندر باي من كوك تاون لن يسرق ولن أشك في أحد ،كلا شكرا لك. ولكن هل لك ياسيد جيمس أن تخبرنا فيمن تشك ؟

ثم تابع السيد باي كلامه وهو يقف ويواجه الموجودين :

يجب ألاّ نذكر ماحدث في كل مكان لأنّ الأوغاد الذين قاموا بالسرقة ربما كان لهم جواسيس في كل مكان،لذا انتظروا لحظة ، مارأيكم لو أنّ أحدا من الطبقة العاملة كان ذا يد في موضوع السرقة ؟

هنا قال جيمس :

أتمنى ألاّ يكون صديقنا بلاك بوت متورطا في ذلك ؟

أجابه باي :

قل بول عوضا عن بوت وهذا هو الرجل .

هنا تمتمت لويزا بوهن بعض كلمات الدهشة وعدم التصديق .

تابع باي :

نعم،نعم، أنا أعلم ذلك وأنا معتاد على كل ذلك ،فهؤلاء العمال هم أفضل الناس في العالم،ولديهم نعمة الثرثرة وكل ما يريدونه هو شرح حقوقهم لهم،ولكنني سوف أقول لكم شيئا ، أعطوني رجلا مخفقا من الطبقة العاملة ،لأجعلكم تدركون أنه يصلح لأي شيء سيء . انني معتاد على هوءلاء الشباب ،وأستطيع قراءتهم كالكتب. ياسيدة سبارست أنا أستشهد بك . ما الانذار الذي أعطيته ذلك الشاب ؟

عندما حضر أول مرة الى منزلي،وكان موضوع زيارته كيفية خرق الدين ياسيدة سبارست ،وبما أنك من المستوى نفسه مع الطبقة الارستقراطية فهل قلت أو لم أقل لذلك الشاب : انه لايستطيع اخفاء الحقيقة عني،وانه ليس من النوع الذي أحبه،وانه لن يصل الى أي شيء ؟

أجابته السيدة سبارست :

نعم وبالتأكيد ياسيدي لقد حذرته من ذلك .

تابع السيد باي :

وعندما صدمك وصدم شعورك ؟

أجابته :

نعم ياسيدي لقد فعل ذلك بالتأكيد .

نظر السيد باي بزهو الى السيد جيمس وكأنه يريد القول :

انني أملك هذه السيدة،وهي تستحق اهتمامك كما أعتقد ومن ثم تابع محاضرته :

لاتستطيع أنت نفسك ياجيمس أن تتذكر ماقلت له عندمارأيته، أن أقطع الأمر معه ،ولم ألمح شيئا قط لأنني أعرفهم جيدا يــــا سيدي ،وبعد ثلاثة أيام مماحدث غاب كليا. ذهب من دون أن يعــرف أحد الى أين. فعل مثل مافعلت والدتي في طفولتي بفارق واحــد، هو أنه أسوأ من أمي. ولكن ماذا فعل قبل ذهابه؟ ماقولك ؟

قال جيمس :

انها شكوك بالتأكيد .

أجابه باي :

أعتقد ذلك ياسيدي ولكن بحسب اعتقادي هناك من يشاركه في ذلك هناك امرأة عجوز، أحدنا لايسمع هذه الأشياء حتى يقــع الأذى، فكل أنواع الخطأ موجودة على الزريبة ،بعد سرقة الحصان. فهنــاك امرأة عجوز تدور حول المكان منذ مدة وهي تحضر الى البلدة مــن وقت الى آخر وكانت تراقب المكان مدة يوم كامل. وفي اليوم نفسه الذي رأيته فيه ،عقدت اتفاقا معه وسرقا معا ورحلا. فكرّت لويزا:

كان ثمة امرأة عجوز في غرفة ستيفن،عندما زارته وانكمشت عن الملاحظة .

تابع باي :

ولكن ليس هذا كل شيء عنهما الا أنني قلت مافيه الكفاية في الوقت الحاضر،ويفضّل أن تبقوا هادئين،ولاتذكروا شيئا أمام أحد، فلربما نحتاج الى وقت ،ولكننا سنحصل عليهما ،ومن السياســة أن نعطيهما فرصة كافية ،ولا اعتراض على ذلك .

أجابه جيمس :

بالطبع سوف يعاقبان بأقصى أنواع عقوبة القانون وهذا ما يستحقانه . فمن يسرق المصارف عليه تحمّل النتائج المترتبة على فعلته هذه ،واذا لم تفرض بحقهما عقوبات فسوف نقوم جيمعا بسرقة المصارف .

وكان قد أخذ بلطف شمسية لويزا من يدها وفتحها لهاومشت تحت ظلها ،على الرغم من أنّ الشمس لم تكن مشرقة .

قال لها زوجها :

وفي الوقت الحاضر يا لو باوندر باي هناك السيدة سبارست التي تلفت أعصابها بسبب هذا الموضوع وسوف تبقى هنا يوما أو يومين،لذا أرجو أن تدعيها تشعر بالراحة .

أجابته السيدة سبارست :

شكرا جزيلا ياسيدي،ولكن لاداعي لأن تأخذ راحتي بالحسبان فأي وضع سوف يكون مناسبا لي .

وبدا أنه اذا كانت السيدة سبارست قد أخفقت في علاقاتها بأهل المسكن،فذلك لأنها كانت عديمة الاهتمام بنفسها ،وكثيرة الاهتمام بالآخرين. كانت تخشى أن تسبّب ازعاجا لأي شخص . ولما رأت الغرفة التي سوف تنام فيها ،تأثرت كثيرا من منظرها المريح فقد كانت تريد أن تقترح على باي ولويزا أن يجعلاها تنام في المكان الذي تغسل فيه الثياب . صحيح أنّ أفراد عائلتي باولر وسكاي جرز كانوا معتادين على الرفاهية والحياة الممتعة ،ولكن السيدة سبارست كانت تحب دائما أن تتذكر ولاسيما ابان وجود أشخاص- وكانت ترى أنّ من واجبها أن تتذكر- أن ماكانت عليه

قد اختلف ،ولم تعد الأمور كما كانت . وكانت تقول :

بالطبع لو كنت أستطيع أن أنسى أنّ السيد سبارست كان من عائلة باولر أو أنني أمت بصلة الى عائلة سكاي جرز.واذا كنت أستطيع أن ألغي الحقيقة ،وأن أجعل نفسي انسانة ذات أصل عادي، وصلات طبيعية لكان يسرّني فعل ذلك،وأنا أعتقد أنه ووفقا للظروف الموجودة الآن فمن الصواب فعل ذلك .

ولكن النقطة العظيمة عند السيدة سبارست كانت في تصميمها دائما على الشفقة على السيد باي،وكان هناك مناسبات تنظر فيها الى السيد باوندر باي تهز رأسها من دون قصد،وكأنها تقول : يالمسكين،وبعد أن تبدي هذه العواطف نحوه كانت تجبر نفسهاعلى الفرح بخفة ،وكانت تسر وتقول: لاتزال تملك الروح الحلوة ياسيدي، ولكن كان للسيدة سبارست طبع واحد تعتذر دائما عنه ،ووجدت صعوبة في القضاء عليه ،وهو أنها كانت دائما تنادي السيدة باي بالآنسة غرئد،وأعادت هذه التسمية ثلاث مرات أو أربعا في خلال الأمسية ،وتكرارها هذا الخطأ جعلها ترتبك،ولكنها قالت :

انه يبدو من الطبيعي جدا أن تقول الآنسة غرئد،وأقنعت نفسها بأنّ الفتاة التي عرفتها منذ أن كانت طفلة يستحيل أن تكون قد أصبحت حقيقة السيدة باي. وكانت كلما فكرت في ذلك وجدته من الأمور المستحيلة ،فانّ الاختلافات بين لويزا والسيد باي كثيرة جدا.

بعد العشاء وفي غرفة الجلوس ، استعرض السيد باي تفاصيل السرقة ،وتفحص الشهود،وكتب ملاحظات حول الأدلة ،ووجد الأشخاص

المشتبه بهم مذنبين،وحكم عليهم بأقصى أنواع العقاب القانوني . وأرسل بيترز الى البلدة مع تعليمات مشددة لاخبار توم بالقدوم الى المنزل في قطار البريد. وعندما أحضرت الشموع تمتمت السيدة سبارست :

لاتكن روحك المعنوية منخفضة ياسيدي،وأرجو أن أراك مسرورا كما اعتدت دائما .

هذه المواساة التي قدمتها السيدة سبارست رفعت من روحه المعنوية وجعلته يزداد تبجحا مثله مثل حيوان البحر.

لقد قالت له :

أنا لاأتحمّل أن أراك في هذه الصورة. حاول أن تمضي وقتا في اللعب بطاولة الزهر كما اعتدت أن تفعل عندما كان لي شرف العمل تحت رعايتك .

فأجابها باي:

أنا لم ألعب في طاولة الزهر منذ ذلك الوقت .

فأجابته السيدة سبارست بلطف :

أخشى بالفعل أن تكون قد فقدت عادة اللعب منذ زمن بعيد ، وأنا أتذكر أنّ الآنسة غرنـد لاتهتم بهذه اللعبة ،ولكني سوفأكون مسرورة ياسيدي اذا ماكنت راضيا بذلك . جلس السيد باي مع السيدة سبارست يلعبان وكانت ليلة جيدة لإضوء للقمر فيها ،بينما خرجت لويزا والسيد جيمس الى الحديقة حيث كانت أصواتهما تسمع بسبب السكون المخيّم على تلك الأمسية ،ولكن كلامهما لم يكن مفهوما وكانت السيدة سبارست تراقبهما من مكانها فسألها السيد باي :

مـا القصة ياسيدة ؟ هل هنـاك حريق ؟

أجابته :

كلا ياسيدي، ولكنني كنت أفكر في الرطوبة .

سألها السيد باي :

وماشأنك بالرطوبة ؟

فأجابته السيدة سبارست :

ليس شأنها بالنسبة اليّ ولكنني أخشى أن تصاب الآنسة غرنـد بالبرد .

فأجابها السيد باي انها لاتصاب بالبرد أبدا.

حقا ياسيدي ؟

قالت السيدة سبارست هذا وبدأت تسعل بشدة .

عندما اقترب موعد الراحة، أخذ السيد باي كأسا من المـاء، فقالت له السيدة سبارست :

آه ياسيدي ؟ ألم تعد تأخذ جرعة من الويسكي الدافىء مـع الليمون؟ انك تفقد كل العادات القديمة الجيدة. افرح ياسيـدي واذا سمحت لي الآنسة غرند فسوف أقدم الشراب الذي اعتدت أن أقدمه لك دائما .

سمحت الآنسة غرند فورا للسيدة سبارست بفعل أي شيء ترغـب فيه ،فحضرت المشروب وقدمته الى السيد باي قائلة له :

سوف يدفىء قلبك،فهذا النوع هو الذي تحتاج اليه وهو الـذي يجب أن تأخذه ياسيدي .

وعندما قال السيد باي :

في صحتك ياسيدتي .

أجابته بشعور عظيم :

أشكرك ياسيدي بصحتك أيضا مع تمنياتي لك بالسعادة .

وأخيرا تمنت له أمسية سعيدة مع مزيد من الحنان، ثم ذهب السيد باي الى الفراش، وهو مقتنع بنشوة أنّ شيئا ما لطيفا قد مسه، ولكنه لم يستطع طوال حياته ذكر ذلك الشيء .

انتظرت لويزا بعد أن غيّرت ثيابها واستلقت على الفراش، انتظرت وراقبت قدوم أخيها الى المنزل وقد كانت تعلم أنه لن يأتي قبل مضي ساعة بعد منتصف الليل، ولكن في سكون البلدة التي هدأت من اضطراب أفكارها، مرّ الوقت ضجرا . وبعد مدة طويلة من السكون والعتمة سمعت جرسا على المدخل، ثم انتظرت مدة ربع ساعة، ومن ثم استيقظت ولبست فستانا خفيفا وخرجت من غرفتها في الظلام، وصعدت الدرج الى غرفة شقيقها . وكان باب غرفته مغلقا بهدوء، وتكلمت معه بعد أن اقتربت من فراشه بخطوات غيرمسموعة. ركعت قرب السرير، ومرّت بيدها على رقبته وقرّبت وجهه من وجهها . وكانت تعلم أنه يدعي أنه نائم ولكنها لم تقل له شيئا . وأخذ يتظاهر أنه قد استيقظ توا وسأل :

من القادم، وماالموضوع ؟

سألته أخته :

توم هل لديك شيء تريد أن تقوله لي؟ اذا كنت فعلا تحبني، وكان هناك شيء تخفيه عن كل الآخرين، قل لي ماهو ؟

أجابها شقيقها :

أنا لاأعرف ماتعنين يالويزا ،فلاشك في أنك كنت تحلمين .

وضعت رأسها على مخدته وسقط شعرها عليه ،وكأنها تريد أن تخفيه عن أي شخص سواها ،وقالت له :

ياأخي الحبيب ألا يوجد لديك شيء تود أن تخبرني به ؟ ياتوم قل لي الحقيقة .

فأجابها :

أنا لاأدري ماتعنين يا لو .

باسم الوقت الذي ستبقى فيه وحيدا ياحبيبي،في الليلة الحزينة حتى لو كنت ما أزل أعيش ،وبما أنني مازلت قريبة منك،وحافية القدمين وفي الظلام حيث سأبقى حتى أصبح رمادا. باسم ذلك الوقت ياتوم قل لي الحقيقة .

الآن أجابها:

ماالشيء الذي تريدين معرفته ؟

حضنته وهي تضمه الى صدرها ،وكأنه طفل وقالت له :

تستطيع أن تتأكد من أنني لن أؤنبك بل سأكون متعاطفة صادقة معك وسوف أحميك مهما يكن الثمن. آه ياتوم لايوجد ما تخبرني به ؟ قل فقط أجل وسوف أفهمك. رفعت أذنها نحو شفتيه ولكنه بقي صامتا صمتا عنيدا.

فقالت :

آلن تقول شيئا ياتوم؟

أجابها :

كيف يمكنني أن أقول أي شيء وأنا لاأعلم ماذا تعنين ؟

أنت يا لو فتاة لطيفة وشجاعة ،وأنا بدأت أفكر فيأنك تستحقين أخا أفضل مني،ولكن ليس لدي شيء أكثر لأقوله فاذهبي الى الفراش

أجابته بطريقتها المعتادة :

أنت تعب .

نعم أنا تعب جدا .

سألته :

لقد انزعجت كثيرا اليوم ،هل تمّ اكتشاف جديد ، أجابها :

فقط ماسمعته منه .

سألته :

توم هل أخبرت أحدا أننا قمنا بزيارة هـؤلاء الجماعـــــة ، وأننا رأينا الثلاثة معا؟

كلا ألم تطلبي مني أنت شخصيا أن أبقى صامتا ،عندما ذهبنا الى هناك معا .

اجابته :

بلى ولكنني آنذاك لم أكن أعلم ماكان سيحدث .

أجابها توم :

ولا أنا كذلك، اذ كيف كان يمكنني معرفة ماسيحدث .

كان توم سريعا جدا في جوابه .

قالت له أخته وهي تنهض :

هل يجب عليّ بعد ماحدث أن أقول انني قمت بهذه الزيـــارة ؟ هل يجب أن أذكر ماحدث ؟

أجابها أخوها :

بحق السماء يا لو،ليس من عادتك سوالي عن التضحية ،قولي ماتريدين اذا كتمت الأمر فسوف أكتمه ،واذا أفشيته فهذا سيكون نهاية الموضوع .

كان الظلام مخيّما ممايتعذر معه أن يرى أحدهما وجه الآخر. ولكن التأثر بدا عليهما وكانا يتبصران قبل التكلم .

سألته لويزا :

هل تعتقد ياتوم أنّ الرجل الذي أعطيته المال متورط في هذه الجريمة ؟

أجابها :

أنا لاأدري،ولكن لاأرى سببا يمنع تورطه .

أجابته :

ولكنه يبدو لي رجلا شريفا .

أجابها :

رجل آخر ربما يبدو لك غير شريف ،ولكنه لايكون في الواقع كذلك .

كان هناك لحظة صمت بينهما لأنه تراجع ووقف ،ثم تابع كأنه قد قرر شيئا :

أنت تذكرين أنني أخذته الى الخارج،وتكلمت معه فيأن يستغل مانعطيه اياه ليستفيد منه ،أنت تذكرين ذلك،وأنا لاأقول شيئا ضد الرجل،وقد يحتمل أن يكون جيدا جدا،وأتمنى أن يكون كذلك .

سألته :

هل كان مستاء مماقلته له ؟

كلا فلقد قبل الأمر قبولا متحضرا. أين أنت يا لو؟

جلس في الفراش وقبلها قائلا :لتصبحي على خير ياحبيبتي.

سألته :

ألا يوجد لديك المزيد مما يمكنك أن تخبرني به ؟

أجابها :

كلا وأنت لاتريدين أن أخبرك بكذبة ؟

أجابته :

أتمنى لك ليالي سعيدة دائما.

فشكرها قائلا :

أشكرك ياحبيبتي لو، أنا تعب جدا ،وأنا متأكد أني أريد أن آنام فاذهبي الى الفراش .

قبلها ثانية ثم استدار وغطى رأسه بالغطاء واستلقى .

وقفت برهة أمام سريره قبل أن تغادره ببطء . وقفت قرب الباب ،واستدارت نحوه وسألته اذا كان قد ناداها ،ولكنه لم يتحرّك فأغلقت الباب بهدوء وعادت الى غرفتها. عندئذ نظر هذا الشاب البائس بحذر،ولمّا تأكد أنها ذهبت تسلل من الفراش وأقفل الباب ورمى نفسه على المخدة ثانية ،وهو يمزّق شعره ويبكي بحدة ، فهو يحبها ويكره نفسه ،ويكره كل ماهو جيد في هذا العالم .

الفصل التاسع سماع نهاية ماحدث

خلال وجود السيدة سبارست في منزل السيد باي من أجل اراحة

أعصابها بعد حادثة سرقة البنك،كانت تراقب ليلا نهارا كل شيء مراقبة حادة، اذ كانت تريد أن تعرف كل مايجري حولها ولم يكن أحد ليشك في أنّ سيدة مثلها ذات أصل نبيل يمكنها أن تقـــوم بعمل كهذا ،وبعد وصولها بقليل جرت محادثة لطيفة بينها وبيـــن السيد جيمس ،وذلك في أحد الصباحات قبل الافطار وتحدثت معـــــه بلطف شديد ،بعد أن انحنت وحيّته باحترام قائلة :

انني البارحة فقط ياسيدي كان لي شرف استقبالك في المصرف ، عندما طلبت اليّ عنوان السيد باي .

وأجابها السيد جيمس ببلادة :

انها مناسبة لن أنساها على مرّ الأجيال .

قالت السيدة سبارست :

نحن نعيش في عالم شاذ ياسيدي. أجابها : انني أؤيد أفكارك هــذه .

وتابعت السيدة سبارست كلامها بقولها :

أعتقد ياسيدي أنك فهمت الآنسة غرند فهما كليا وسريعا.

ثم سألته :

هل وجدت الآنسة غرنـد شابة مثلما وصفتها لك؟.

ثم قالت له معتــذرة بلطف بأنها دائما تنادي لويزا بالآنسة غرند لأنها لاتستطيع أن تناديها بالسيدة باي .

أجابها السيد جيمس :

لقد رسمت صورتها رسما ممتازا.

أجابته السيدة سبارست :

هذا مرض جدا ياسيدي .

وتابعت قولها :

انّ الآنسة غرند كانت تحتاج الى نشاط وانتعاش ،ولكنني ألاحظ الآن أنها تحسّنت في ذلك المضمار،والآن هاهو ذا السيد باي.

صاحت السيدة سبارست وهي تنحني مرات عدة وكأنها لاتتكلم أو لاتفكر في أحد سواه ،وقالت له :

كيف ترى نفسك هذا الصباح ياسيدي ؟ أرجو أن نراك دائما مسرورا .

هذه المثابرة على تلطيف تعاسته وتخفيف حمله ،كان لها أثر في جعل السيد باي ألطف من المعتاد تجاه السيدة سبارست ،وأقسى من المعتاد تجاه الناس الآخرين كزوجته وسواها. لذا فانه عندما قالت السيدة سبارست بلهفة مفتعلة :

أتريد افطارك ياسيدي في الوقت الذي أجرؤ فيه على القول : انّ الآنسة غرند سوف تحضر حالا لتشرف على ترتيب الطاولة .

أجابها السيد باي :

اذا انتظرت حتى تهتم بي زوجتي ياسيدتي،فعليّ أن أنتظر كما تعرفين تماما حتى يوم القيامة .ولذا سوف أتعبك في تحضير المائدة .

عندئذ بدأت السيدة سبارست بممارسة عملها القديم ،وهذا جعل السيدة سبارست أكثر عاطفة وكانت متواضعة جدا ،وعندما ظهرت لويزا وقفت وهي تحتج بأنها لاتستطيع الجلوس في هذا المكان تحت الظروف الحالية ،فقد كان لها الشرف دائما في أن تحضر فطور السيد

باي قبل أن يتزوج من السيدة غرند. عفوا الآنسة باي ثم طلبت المعذرة مرة ثانية لأنها دائما تخطىء في لفظ اسمها ،على الرغم من أنها متأكدة من أنها سوف تعتاد عليه شيئا فشيئا. اعتذرت مرة ثانية لأنها تعد ارادته قانونا بالنسبة اليها .

هنا قال السيد باي : توقفي حيث أنت ياسيدتي،فالسيدة باي سوف تكون مسرورة جدا بالتخلّص من هذه المشكلة ،كما أعتقد .

أجابته السيدة سبارست بصرامة :

لاتقل ذلك ياسيدي لأنّ ذلك يسيء الى السيدة باي وليس من طبعك أن تكون مسيئا ياسيدي .

أجابها :

تستطيعين أن تريحي ضميرك ياسيدتي فأنت يا لو تستطيعين أن تتقبلي ذلك بكل هدوء ،هل تستطيعين ؟

قال السيد باي ذلك بأسلوب متبجح فأجابته زوجته :

بالطبع فلماذا يشكّل هذا الموضوع أهمية ما بالنسبة اليّ ؟

قال السيد باي :

لماذا يكون هذا الموضوع ذا أهمية ما لأي شخص ياسيدة سبارست ؟

وكان يتكلم باستخفاف وتابع قوله :

أنت ياسيدتي أتعطين الكثير من الاهتمام لمثل هذه الأمور، اذن فأنت من الطراز القديم المتخلّف بالنسبة الى أولاد توم غرند.

سألته لويزا بتعجب :

ما الأمر؟ لماذا تهاجم هكذا ؟

أجابها باي :

أهاجم، أنا رجل مستقيم ولاأضرب في الرياح الجانبية .

أجابته لويزا برصانة وهدوء :

أعتقد أنه لم تتح لأحد الفرصة في أن يفكر في أنك خجول جدا أو حسّاس جدا ،وأنا لاأعرف ما لديك .

أجابها :

ما لديّ لاشيء فلاتعرفين أنني جوزيه باوندر باي من كوك تاون ؟

نظرت اليه وهو يضرب على الطاولة ،وكان على وجهها لون يدعو الى الفخر،وكان هذا تغيير جديد وهذا ما فكّر فيه السيد جيمس فقالت لويزا :

أنت اليوم غير مفهوم أبدا فأرجو ألا تزعج نفسك أكثرلتوضيح ماتريده ،فأنا لست متشوقة لمعرفة ماتعني فذلك لايهم .

لم يحدث أكثر من ذلك بالنسبة الى هذا الموضوع وتناول السيد جيمس الحديث في موضوعات أخرى ولكن منذ ذلك اليوم قربت تصرفات السيدة سبارست نحو السيد باي مابين لويزا وجيمس أكثر، وقوت تحول لويزا الخطير عن زوجها ، أما الثقة التي حولتها الى الشخص الآخر فحيث سقطت درجة فدرجة ،ولم تستطع التراجع حتى لو حاولت ذلك،ولكن سواء أحاولت أم لم تحاول فذلك مخبأ في قلبها المغلق .

تأثرت السيدة سبارست كثيرا من هذه المناسبة حتى انها بعد أن أعطت السيد باي قبعته بعد الافطار،وبعد أن بقيت وحدها معه

في القاعة طبعت قبلة على يده وتمتمت :

يا أيها المحسن اليّ .

وتراجعت بحزن ولكن بعد خروجه بخمس دقائق وضعت يدها على صورته ،وعبست باحتقار تجاه ذلك الرسم وقالت :

أنت تستحق ذلك يا أبله وأنا مسرورة لذلك .

لم يمض على غياب السيد باي طويلا حتى ظهر بيتزر في القطار يحمل معه رسالة من(ستون لودج) وكانت ملاحظة سريعة لاشعارلويزا بأنّ والدتها مريضة جدا. وكانت والدة لويزا دائما مريضة ،ولكن صحتها تدهورت أكثر خلال الأيام الماضية ،وهي الآن على وشك الموت، وذهبت لويزا الى بيتها القديم لرؤية والدتها وكان ينـــدر أن تذهب الى هناك منذ زواجها ،فوالدها كان دائما يضيـع وقتــــه بعمله في البرلمان بلندن. وكانت تنزعج عندما كانت تزوروالدتها وسيسي،ولم تعد كما كانت معها عندما رفعت الطفلة المتجولـــة عينيها لرؤية الزوجة المقررة للسيد باي،ولم يكن لدى لويـــزا قناعة في العودة الى ذلك المنزل،وكانت نادرا ماتذهب ،ولم تشعر بأي احساس سار عندما وصلت اليه وأحلام الطفولة بجمالهاوبهجتهـا التي يشعر المرء بجمال ذكراها عندما يكبر لم يكن شيء منهـــا موجودا لتحسّ به . فقد كانت الذكرى التي تحملها عن منزلهــــا وطفولتها هي جفاف كل ربيع يشرق. فالمياه الذهبية لم تكـــن هناك،بل كان كل ماتذكره جافا وباهتا . ذهبت وحزن عميق وقوي مسيطر عليها الى غرفة والدتها ،ومنذ أن غادرت المنزل،كانت سيسي تعيش مع العائلة وكانت الآن الى جانب والدتها وشقيقتها جين التي

تبلغ من العمر العاشرة أو الثانية عشرة الآن والتي كانت أيضا في الغرفة . كان ثمة مشقة كبيرة قبل أن تتعرف السيدة غرند على ابنتها الكبيرة ،فقد كان صوتها ضعيفا ،والصوت الذي عرفها على ابنتها أخذ وقتا طويلا قبل أن يصل الى أذنها ،ولمّا أعلمت أنّ السيدة باي هنا ، أجابت :

أنها لم تذكر السيد باي بهذا الاسم منذ أن تزوج لويزا بل لقد سمته (ج) .

جلست لويزا بضع دقائق وتحدثت اليها كثيرا قبل أن تفهم من هي؟ ومن ثم توضحت الأمور كلها فقالت السيدة غرند:

حسنا ياحبيبتي أتمنى أن تكون أمورك على مايرام،فقد كان كل ذلك من صنيع والدك . أجابتها لويزا:

أريد أن أسامحك يا أمي وليس نفسي. أجابتها والدتها :

تريدين أن تغفري لي ياحبيبتي؟ هذا شيء جديد، أنا متأكدة من ذلك عندما يريد أي شخص أن يصفح عني، أنا لست على مايرام يالويزا ،فأنا واهنة وينتابني الدوّار دوما .

هل تشعرين بألم يا أمي الحبيبة ؟

أجابتها :

أنا أعتقد أنه يوجد .ألم في مكان ما في هذه الغرفة ، ولكنني لاأستطيع أن أقول: انّ الألم موجود فيّ .

بعد هذه المحادثة الغريبة جلست صامتة بعض الوقت ، أمسكت يد لويزا ،ولم تشعر بأي نبض فيها ،ولكن عندما قبلت يدها استطاعت أن ترى خيطا رفيعا من الحياة في حركتها . قالت السيدة غرند :

أنت نادرا ماترين شقيقتك،فلقد كبرت مثلك وأتمنى أن تنظري اليها. سيسي أحضريها الى هنا .

أحضرت سيسي الفتاة ووقفت ويدها بيد شقيقتها،لاحظت لويزا أنّ شقيقتها تضع ذراعها حول عنق سيسي وأحست بالاختلاف عندما اقتربت . فسألتها والدتها :

هل شاهدت الشبه يالويزا؟

نعم ياأمي،أعتقد أنها مثلي .

ولكن والدتها هنا صاحت غير متوقعة :

نعم أنا دائما أقول ذلك ،وهذا يذكرني بأني أريد أن أتكلم اليك ياحبيبتي. سيسي يافتاتي الطيّبة اتركينا وحدنا لحظة .

تركت لويزا شقيقتها وهي تفكر في أنّ لشقيقتها وجها أجمل وأكثر اشراقا من وجهها ،ورأت فيه بعض اللطف الذي رأته في الوجه الآخر في هذه الغرفة وجه سيسي،وقد استاءت قليلا من ذلك الوجه العذب ذي العينين الواعدتين،ولمّا تركت وحيدة مع والدتها رأتها لويزا متمددة وعلى وجهها سكون،فقالت لها :

هل تريدين التحدّث معي يا أمي؟

أجابتها :

نعم بالتأكيد ياحبيبتي . أنت تعرفين أنّ والدك في أكثر الأحيان الآن غير موجود،ولذا يجب أن أكتب له حول الموضوع .

حول ماذا يا أمي؟ قولي ولاتزعجي نفسك .

يجب أن تتذكري ياحبيبتي أنه عندما أقول أي شيء حول أي موضوع فلاأسمع نهايته أبدا،ولذا لم أعد منذ مدة طويلة شيئا.

أجابتها لويزا :

أستطيع أن أسمعك يا أمي.

تابعت الأم:

لقد تعلمت كثيرا يالويزا وكذلك شقيقك،علوما في مختلف الأنواع من الصباح حتى المساء .

أستطيع سماعك ياوالدتي اذا كان لديك القوة على المتابعة .

كانت تهدف من ذلك ألا يغمى عليها ،تابعت والدتها قولها :

ولكن هناك شيئا لاعلاقة له بالعلوم على الاطلاق،وقد غفل عنه والدك أو نسيه يالويزا . وأنا لاأدري ماهو؟ فما أكثر ماجلست سيسي بقربي وأنا أفكر فيه ،ولن أستطيع الحصول على اسمه الآن ، ولكن ربما يستطيع والدك ذلك،وهذا مايجعلني غير مرتاحة ،لذا أريد الكتابة اليه . انني لاأعرف بحق السماء ما أريد .

أعطني قلما .

وبدأت تخط أشياء غير مفهومة بيدها ،ثم توقفت هذه اليد وتوفيت السيدة غرند .

أما السيدة سبارست فتتقرب الى السيد باي وهذا لم يزعج لويزا لأنها لم تجد فيه في أي يوم من الأيام زوجا ولم تفكر فيه على أنه زوج .

الفصل العاشر سلم السيدة سبارست

بقيت السيدة سبارست بضعة أسابيع في ضيافة السيد باي،

وكانت تراقب كل شيء بخبث وبأسلوب مراوغ،فلقد كانت في وجــه السيد باي تبدي له الشفقة والتعاطف واياه ،وفي غيابه كانت تنادي صورته بالأبله ،وتنظر اليه بفظاظة واحتقار، وكان السيد باي قد صنف السيدة سبارست بعد هذا الأسلوب الذي اتبعته معه ،على أنهـا امرأة متفوقة وذات مستوى عال، اذ انها كانت تشعر بأنه يعاني من تجربة مرّة، ولذا فانه عندما قررت السيدة سبارست أن تعود الى غرفتها، اقترح عليها السيد باي أن تحضر كل يوم سبت ،وتبقى لديهم حتى يوم الاثنين مادام الطقس جميلا،وقد وافقت السيـــدة سبارست على ذلك . لم تكن السيدة سبارست امرأة شاعرة ،ولكـــن خطرت لها فكرة من وحي خيالها ترسخت في ذهنها اذ كانت كلمـا راقبت لويزا لاحظت سلوكها أكثر أخذت تتخيّل أشياء في ذهنهـا. رسمت السيدة سبارست في ذهنها سلّما قويا وطويلا وفي أسفله شرك مظلم من العار والدمار،وفي أسفل درجات السلّم كانت ترى السيـــدة سبارست لويزا وهي تنحدر من يوم الى آخر، وأصبح شغل السيـــدة سبارست الشاغل النظر الى السلّم الذي بنته في مخيّلتها ،وأن تراقب انحدار لويزا أحيانا ببطء وأحيانا أخرى بسرعة وأحيانا كانت تنحدر درجات عدة في الوقت نفسه وأحيانا غيرها تتوقف ،ولكنها لم تتراجع قط . ولو تراجعت مرة واحدة لكان في ذلك الوقت موت السيدة سبارست من الحقد والخوف . لقد كانت تنحدر بقوة حتى اليوم الذي دعا فيه السيد باي السيدة سبارست للزيارة الأسبوعية ،وقدبدت السيدة سبارست بقدرات معنوية مرتفعة ،وكانت مستعدة للمحادثة .

قالت تحدّث السيد باي :

اذا كان يسمح لي سيدي بأن أسألسؤالا مرتبطا بموضوع أنت تتحفظ فيه ،ولعل هذا يعد جرأة حتى لكأنني أعلم أنك تحسب لكل شيء حسابا ،ولكن هل حدث شيء جديد يرتبط بالسرقة ؟

كلا ياسيدتي،ليس بعد .

وفي ظل هذه الظروف لا أتوقع حدوث شيء الآن . ثم تابع قائلا :

ما لم تبن في يوم ياسيدتي .

أجابته السيدة سبارست وهي تهز رأسها :

هذا صحيح ياسيدي .

تابع قوله ولن تبين في أسبوع أيضا.

بالطبع لا ياسيدي .

أجابته السيدة سبارست بلهجة حزينة .

تابع السيد باي قوله :

أنت تعلمين ياسيدتي أنني أستطيع الانتظار. فاذا كان (روميلوس وريموس) قد انتظرا ،فجوزيه باي يستطيع الانتظار. فقد كانا أفضل مني بشبابهما. فكانت ممرضتهما أنثى الثعلب ، وهكذا كانت جدتي فهي لم تعط أي حليب بل انّ كل ما أعطته مجموعة رضوض .

تنهدت السيدة سبارست وارتعدت .

كلا ياسيدتي .

تابع السيد باي :

أنا لم أسمع شيئا جديدا عن السرقة ،ولكن الموضوع في يدي ، وتوم الذي يعمل كثيرا هذه الأيام وهذا شيء جديد بالنسبة اليه لم

يتعلم ما أعرفه أنا ،فوصيتي هي أن أبقي الموضوع سرا ،وأجعلـــه يبدو وكأنه سينفجر - افعل ماتريد تحت الوردة ولكن لاتظهر أي شيء اشارة الى ماستفعله ،وبهذه الطريقة سوف يشعر اللصوص بالثقة والأمان شيئا فشيئا ،ولسوف تقبض عليهم - .

أجابته السيدة :

هذا منتهى الذكاء ياسيدي . وماذا عن المرأة العجوز التـــي ذكرتها ؟ أجابها وهو يختصر الموضوع :

أما بالنسبة الى المرأة العجوز التي ذكرتها فلعله يفضّل ألا نتكلّم عليها كثيرا ،والآن يبدو هذا أفضل على الرغم من أنهـــا مشكوك فيها .

في تلك الأمسية وبينما كانت السيدة سبارست تستريح فـــي غرفتها ،نظرت نحو سلّمها ،ورأت أنّ لويزا مازالت تنحدر. كانـــت لويزا تجلس في الحديقة قرب السيد جيمس ،وقد جلس منحنيا عليها ، وكانا يتهامسان،وكان وجهه ملامسا شعرها تقريبا . وكانت السيدة سبارست تنظر بعينيها المحدقتين كعيني الصقر، وكانت بعيدة عنهما فلم تستطع أن تسمع الحديث الذي كان يدور بينهما أو اذا ماكانا يتكلمان بلطف ،ولكن شكلهما كان يوحي بالانسجام. أما الحديـــث الذي كان يدور بينهما فهو حديث حول السرقة . قالت :

هل تذكرت الرجل ياسيد جيمس ؟

آجابها :

نعم تذكرته تماما .

وسألته لويزا :

هل تذكرت وجهه وأخلاقه وما قاله ؟

نعم تماما . وبدا لي أنه شخص كئيب جدا . بليد وطويل طولا هو أكبر من أن يقوم بهذه السرقة .

فأجابته لويزا :

يصعب عليّ أن أفكر تجاه الرجل بالسوء،فلويزا لاتستطيع أن تتصوّر، أنّ ستيفن يستطيع سرقة المصرف .

هنا قال لها جيمس على طريقة أخيها توم :

عزيزتي لويزا وهو لم يكلمها هكذا من قبل :

أنت لاتعرفين شيئا عن هذا الشخص ؟

كلا بالطبع .

ولا عن شخص آخر مثله ؟

أجابته :

كيف أعرف عنهما أي شيء؟ وهنا أخبرها جيمس :

انّ ستيفن يمكنه أن يكون قد أقدم على السرقة ؟

فأجابته لويزا :

أنا أشعر أنّ هناك ميّزة سيئة لديّ وهي أنني قد أوافق على ماتقوله وأنّ يسر قلبي بماتقوله .

أجابها : أنا أقول فقط ماهو منطقي،ولقد تكلمت مع توم مرات حول ذلك،وأنا أثق بتوم تماما ،هل تمشين ؟

مشيا وهي متكئة على ذراعه وكانت تفكر قليلا كيف أنها تنحدر الى أسفل،الى أسفل،الى أسفل،في سلّم السيدة سبارست ليلا ونهارا تركت السيدة سبارست السلّم واقفا وعندما ستصل لويزا الى

أسفل وتختفي في المنحدرفيمكنه أن يسقط عليها ،ولكن حتى ذلك الوقت ثمة عمارة ضخمة أمام عيني السيدة سبارست ،ولويزا دائما فوقها ودائما تنزلق الى أسفل،الى أسفل،الى أسفل.

كانت السيدة سبارست ترى جيمس يأتي ويذهب ،وتسمعه هنا وهناك،وكانت ترى التعبيرات في وجه لويزا ،وهي أيضا كانت ترى متى يكون هذا الوجه مكفهرا ،ومتى يكون صافيا ،وكانت تبقي عينيها السوداوين مفتوحتين من دون آية لمسة شفقة ،ومن دون أية لمسة من وخز الضمير .

كان كل اهتمامها منصبّا على رؤية لويزا وهي تقترب أكثر فأكثر الى أسفل الدرج،وكانت متحمسة لانجاز هذا الانحدار،ومع ذلك فقد كانت صابرة ،كانت تنتظر السقطة الأخيرة وبانتظارالنضوج والاكتمال لزرع آمالها .

الفصل الحادي عشر أدنى فأدنى

انحدر شكل لويزا الدرجات الكبيرة انحدارا حازما ودائما ومنحرفا ،مثل ثقل في الماء الغريق الى الحافة السوداء في الأسفل .

وقد حضر السيد غرند من لندن،ودفن زوجته بأسلوب خال من العاطفة ،ومن ثم عاد الى استئناف عمله وواجباته البرلمانية . في ذلك الوقت كانت السيدة سبارست تتابع مراقبة لويزا. وبما أنها كانت منفصلة عن سلّمها خلال الأسبوع بطريق حديدي يفصلكوكتاون عن البيت الريفي الا أنها كانت دائما تستقصي أخبار لويزا ،من

خلال زوجها وشقيقها ،ومن خلال جيمس هارث هوس . اضافة الى الرسائل والحزم وكل شيء حي، أو غير حي يمر قرب السلّم. قالت السيدة سبارست لشكل لويزا :

انّ قدمك ياسيدتي على الدرجة الأخيرة من السلّم. قالت ذلك وهي توجّه الكلام نحو شكل لويزا ،وتابعت انّ كل مهارتها لن تعميني .

مرّ الوقت حتى حدث أن دعي السيد باي الى عمل في منزله ،وذلك كان يتطلّب وجوده في مكان آخر مدة ثلاثة أيام أو أربعة. أخبر باي السيدة سبارست بذلك يوم الجمعة في المصرف وأضاف قائلا :

ولكنك غدا ياسيدتي سوف تذهبين كالعادة الى منزلي وكأنني موجود تماما ،فذلك لن يشكّل أي تغيير بالنسبة اليك. فأجابته :

أرجو ياسيدي ألاّ تقول ذلك،فغيابك سوف يجعل الأمر يختلف اختلافا كليا بالنسبة اليّ،وأعتقد أنك تعرف ذلك تماما. حسنا ياسيدي اذا كان عليك أن تسير أمورك فأفضل مايمكن.. أجابته السيدة سبارست : ياسيد باي انّ رغبتك بالنسبة اليّ هي قانون ، ولولا ذلك لكنت ناقشتك في أوامرك،فأنا لست متأكدة من أنّ الآنسة غرند ستكون مسرورة لاستقبالي،ولكن واعتمادا على دعوتك سوف أذهب .

قال لها السيد باي وهو يفتح عينيه :

عندما أدعوك الى منزلي ياسيدتي فأنت لست محتاجة الى دعوة أخرى .

أجابته :

بالطبع لست محتاجة ياسيدي،لاتقل أكثر من ذلك،فكل ما أريده هو أن اراك مسرورا ثانية .

ماذا تعنين ياسيدتي؟ أجابته :

لقد افتقدت مرونة كانت في طبعك ياسيدي .

بعد الظهر،وبعد أن ذهب رئيسها في رحلة ،وبعد أن أغلق المصرف ،قالت السيدة سبارست :

بيتزر قدّم تحياتك الى السيد توم الشاب ، اطلب اليه أن يحضر اليّ لتناول كوب من الشراب معي، أما بالنسبة الى توم الذي كان مستعدا دائما لتلبية دعوة كهذه كان جوابه التلبية ،وقد حضر على الفور .

قالت له السيدة سبارست :

أتمنى أن تجرّب هذه المأكولات الموجودة على الطاولة .

فشكرها الجرو وبدأ يأكل .

سألته السيدة سبارست :

كيف حال السيد جيمس ياسيد توم؟

أجابها توم :

انه بخير.

سألته السيدة سبارست وهي تتعمد اجراء محادثة لطيفة:

أين يمكن أن يكون الآن ؟ أجابها توم :

انه يصطاد في (يوركشاير) ولقد أرسل الى لويزا البارحة سلة كبيرة جدا. أجابته السيدة سبارست .

أستطيع المراهنة بأنه صيّاد ماهر .

قالت السيدة سبارست :

انني معجبة بالسيد جيمس ،وأعتقد أنّ الكثير معجبون بـــــه أيضا. هل تتوقع أن نراه ثانية بعد مدة وجيزة ياسيد توم ؟

أجابها الجرو :

أنا أتوقع أن أراه غدا.

فقالت السيدة سبارست برقة :

انها أخبار سارة .

قال لها توم :

أناعلى موعد لمقابلته مساء الغد في المحطة ،وان شاء اللـــه فاعتقد أنني سأتعشى معه ،فهو لن يأتي الى البيت الريفي طـــوال أسبوع بل سوف يقيم في مكان آخر،وهذا ماقاله على الأقل .

قالت له السيدة سبارست :

اذا حمّلتك رسالة الى شقيقتك فهل سوف تتذكر وتعطيها اياها ؟

أجابها :

سأحاول اذا لم تكن رسالة طويلة .

أجابته السيدة سبارست :

انها لاتتضمن الآ تحياتي واحترامي،وأخشى ألآ أزعجهابوجودي هذا الأسبوع،لأنني مازلت متوترة قليلا،ويفضّل أن أنفرد بنفسي.

أجابها توم :

اذا كان هذا كل مافي الأمر فذلك لايهم ،ولو نسيت ذلك فـانّ لو لاتفكر فيك الآ عندما تراك .

وبعد أن تفوّه بهذه المجاملة اللطيفة غرق في صمت مستمـــر

حتى انتهى من طعامه . ثم قال :

حسنا ياسيدة سبارست ،يجب أن أذهب .

وذهب في اليوم التالي،وكان يوم سبت ،جلست السيدة سبارست ، طوال النهار أمام النافذة ،وهي تنظر الى الزبن يدخلون ويخرجون، تراقب سعاة البريد ،وتراقب الاشارات الضوئية في الشارع ،تفكّر في أشياء كثيرة تخطر في ذهنها ،ولكن اضافة الى كل شيء كانت تفكّر باهتمام كبير في سلّمها ،ففي المساء وضعت شالها وخرجت بهدوء ، وكانت لها أسبابها التي دعتها الى التسكّع بطريقة مخفيّة ،حول المحطة حيث سيصل مسافر من(يوركشاير) انه جيمس .

كان توم ينتظر حتى وصل القطار ولكن السيد جيمس لم يصل، انتظر توم حتى انتهت الضجة ثم توجّه ليطلع على قائمة بأسماء القطارات ،وأجرى محادثة مع الحمالين ووقف في الشارع ،وهو ينظر في كل الاتجاهات وهو يخلع قبعته ويعيدها الى مكانها ،وقرر الانتظار حتى يأتي موعد القطار الثاني بعد ساعة وأربعين دقيقة.

قالت السيدة سبارست بينها وبين نفسها :

هذه خطة من جيمس لابقائه بعيدا عن الطريق،فجيمس الآن مع شقيقته ،لقد كان هذا وحيا وقد قررت السير به حتى النهاية .

كانت محطة الوصول الى البيت الريفي في الطرف الثاني من البلدة، وكان الوقت قصيرا ،والطريق ليس سهلا. ولكنها أسرعت جدا بأخذ عربة ،وقطع تذكرة لأنّ هدفها كله كان الوصول الى البيت الريفي لمعرفة مايحدث هناك. طوال الرحلة كانت السيدة سبارست ترى

لقد كانت أمسية من أمسيات أيلول عند هبوط الليل،نزلت السيدة سبارست من عربتها وتخطت المحطة الصغيرة ،ومشت في الطريق الحجري، كما مشت في الطريق المليء بالأغصان والأوراق،وصلت الى المنزل وبقيت خلف الحاجز،وهي تدور حوله وتتلصص بين الأغصان من خلال النوافذ المتخففة ،كان أكثر النوافذ مفتوحا وهذا شيء طبيعي ،لأنّ الطقس كان دافئا ،ولكن كل شيء كان هادئا. نظرت في الحديقة فلم تر شيئا. فكرت في الغابة من دون أن تفكر في الصعوبات والحشرات التي سوف تصادفها. وبعينيها السوداوين وبأنفها المقنص شقّت طريقها،وهي مصرّة على الوصول الى ماتريده. كان يمكنها أن تخرج الطيور الصغيرة من أعشاشها مسحورة باللمعان الذي شوهد في عيني السيدة سبارست عندما وقعت أصوات منخفضة على مسامعها ،لقد سمعت صوته وصوتها.

اذا فالموعد كان خدعة لابعاد شقيقها ،فهاهما ذان يتجولان. اقتربت أكثر منهما ،ووقفت خلف شجرة مثلها مثل(روبنسون كروزو) وهو يترصد أعداءه. كانت قريبة منهما حتى انها لتستطيع لمسهما معا. كان وجود جيمس سريا ،ولم يظهر نفسه في المنزل. حضر على ظهر جواد،ولابد من أنه قد مرّ بالحقول المجاورة ،وذلك لأنّ حصانه كان مربوطا بسياج المرج. قال جيمس للويزا :

ياحبيبتي ماذا كان يمكنني أن أفعل؟ وأنا أعلم انك وحدك؟ هل كان يمكنني أن أبقى بعيدا؟ فكرت السيدة سبارست في ذهنها أن تجيبه من أجل أن تبدو أكثر جاذبية : أنت تعرض رأسك للشنق. ولكن أنت أيتها الشيء الصغير المؤكد أنك سوف تشنقين نفسك.

كانت لويزا تحثّه على الذهاب وتأمره به ،لكنها لم تـــدر وجهها نحوه. لم ترفعه نحوه. كانت تجلس ساكنة ،ويداها فـــوق بعضهما مثل يدي التمثال،حتى انّ أسلوبها في الحديث كان متأنيا.

قال السيد جيمس :

ياطفلتي الحبيبة ـ وكانت السيدة سبارست ترى بسرور أنّ ذراعه تلامس ذراعها ـ .

ألا تتحملين طبيعتي مدة قليلة؟ أجابته لويزا :

ليس هنا .

أين يالويزا؟

ليس هنا. فأجابها :

ولكن ليس لدينا وقت كاف ،وأنا قد أتيت من مكان بعيـــد ووضعي ليس حسنا. ولم يكن هناك عبد استغل وأسيء التعامـــل واياه على يد حبيبته مثلي،فأنا كنت أنظر الى استقبالك المشمس الذي يدفىء حياتي،ولكني استقبلت لديك بطريقة باردة.

أجابته :

هل عليّ أن أقول مرة ثانية أنه يجب أن تتركني وحدي هنا؟

ولكن يجب أن نتقابل يالويزا .

ولكن أين ؟

سكت الاثنان وجمدت السيدة سبارست لأنها اعتقدت أنّ هنـــاك مستمعا آخر بين الأشجار،ولكن ذلك لم يكن سوى المطر الذي بـــدأ يتساقط بغزارة .

سألها جيمس :

هل أستطيع أن آتي الى المنزل بضع دقائق،وأتمنى أن يكون صاحب المنزل موجودا وسوف يسر باستقبالي .

كلا .

فقال لها:

أوامرك الظالمة عليّ اطاعتها،على الرغم من أنني الأكثر قلة في الحظ في هذا العالم،وأنا أصدق أنني لم أكن لطيفا مع النساء الأخريات ،ولكنني وقعت أخيرا تحت قدم المرأة الأجمل والأكثر ارتباطا والأكثر استبدادا، حبيبتي لويزا أنا لاأستطيع أن أذهب أو أدعك تذهبين وأنت تسيئين معاملتي بهذه الطريقة .

رأته السيدة سبارست يحيطها بذراعه ويسمعها كم هو يحبها.

وهنا استعرضت السيدة سبارست الأمور كلها في ذهنها منذ اللقاء الأول حتى هذا الوقت ،وفي خلال انشغالها بهذه الأفكار، وبسبب ازديادصوت تساقط المطر الحاد بين الأغصان،لم تستطع أن تعرف أين سيلتقيان،كل ماعرفته أنهما سيلتقيان الليلة .

في ذلك الوقت بقي أحدهما أمامها في الظلام،وفكرت السيدة سبارست من هو؟ ثم قالت أيها الشيء الصغير ما أكثر ما أنت تابعة جيدة .

رأتها السيدة سبارست وهي تغادر الغابة وتدخل الى المنزل .

ماذا ستفعل الآن، انها تمطر،وقفت مختبئة بين الأشجار مبتلة بالماء،وهي تفكر فيما سيأتي؟ لقد خرجت لويزا من المنزل بسرعة، وسقطت الى الأسفل،وابتلعتها الهاوية لم تبال بالمطر،وتحرّكت بخطوات سريعة واثقة،تابعتها السيدة سبارست وكانت تبعد عنها

مسافة قصيرة فقط ،فليس يسهل ملاحقة شخص يمشي بسرعة من خلال الظلام. عندما توقفت لويزا لاغلاق الباب الجانبي،توقفت السيدة سبارست ،وعندما تابعت لويزا سيرها تبعتها.

ذهبت في الطريق نفسها التي حضرت منها السيدة سبارست ،حتى وصلت الى المحطة كان القطار سيحضر بعد قليل للذهاب الى كوك تاون. اذا فالمحطة الأولى هي كوك تاون.

وضعت السيدة سبارست شالها حول رأسها وتخفّت تخفيًا لم تعد تخشى معه أن يتعرّف عليها أحد،ودفعت ثمن التذكرة لأنها كانت تريد اللحاق بلويزا. جلست لويزا تنتظر في الزاوية ،بينما جلست السيدة سبارست في الزاوية الأخرى. كلتاهما تستمع الى صوت البرق الذي كان عاليا والى صوت الأمطار. أعلن عن قدوم القطار وركبت لويزا احدى المقصورات بينما ركبت السيدة سبارست مقصورة أخرى. وعلى الرغم من أنّ أسنانها كانت تصطك بتأثير البرد والمطر فانّ السيدة سبارست كانت فرحة جدا ،فلويزا قد انتهت وهاهي ذي تقف فوق جثتها. فكرت السيدة سبارست في أنّ لويزا ستصل الى كوك تاون قبله لأنّ حصانه ليس جيدا كفايته ،ولكن أين ستنتظره والى أين سيذهبان؟

الصبر ،ولسوف نرى .

كانت الأمطار تهطل بغزارة ،والشوارع مليئة بالمياه ،وتوقعت أن تركب لويزا احدى العربات ،وكانت خائفة من ألاّ تستطيع اللحاق بها. ولكن حساب السيدة سبارست كان خاطئا فلويزا لم تركب أية عربة بل كانت قد ذهبت ،تطلّعت السيدة سبارست فلم تر شيئا.

وكانت قد ابتلت أكثر فأكثر،وقد تلفت ثيابها كلها. وكان كل مافعلته أنها بدأت تبكي صارخة :

لقد أضعتها .

الفصل الثاني عشر الأسفل

حضر السيد غرند الى منزله في كوك تاون ليمضي اجازته ،جلس يكتب في الغرفة التي توجد فيها الساعة الكئيبة ،ولم يكن يزعجه كثيرا صوت المطر،ولكنه لفت انتباهه ،فكان يدير رأسه أحيانا ليستمع اليه . وعندما كانت تبرق مرعدة بصوت مرتفع ،كان ينظر باتجاه كوك تاون وهو يفكر في أنّ بعض المداخن الطويلة سوف تنهد بسبب ذلك .

كان المطر يتساقط كالطوفان عندما فتح باب غرفته ،نظروشاهد - باللدهشة- ابنته الكبيرة لويزا.

لويزا ،قالت له :

أبي أريد أن أتحدث اليك سألها :

ماالموضوع؟ يا الهي لكم تبدين غريبة . قال السيد غرند ذلك وهو يعجب أكثر فأكثر،ثم تابع :

هل أتيت الى هنا معرّضة نفسك لهذه العاصفة ؟

وضعت يديها على فستانها وقالت :

نعم .

ثم خلعت عباءتها وقبعتها ورمتهما من دون مبالاة ،ووقفت

تنظر اليه وهي باهتة وشعرها منفوش في وضع يائس ،حتى انه قد خاف منها. قال لها:

أستحلفك بالله يالويزا قولي لي ماالموضوع؟

رمت بنفسها على كرسي قربه ،ووضعت يدها الباردة على ذراعه وقالت :

أبي لقد علمتني منذ طفولتي .

أجابها:

نعم يالويزا. فقالت له:

أنا ألعن الساعة التي ولدت فيها من أجل مواجهة هذا المصير.

نظر اليها في شك وخوف وهو يعيد وراءها:

تلعنين الساعة؟ تلعنين الساعة؟

قالت له:

ماحسنات روحي؟ أين عواطف قلبي؟ ماذا فعلت ياوالدي؟ ماذا فعلت بالحديقة التي كان يجب أن تزهر مرة واحدة في هذه البرية.

ضربت صدرها بكلتا يديها وتابعت:

لو كانت أمي موجودة هنا لكان رفاتها فقط قادرا على أن ينقذني من الفراغ الذي أرى حياتي كلها تغرق فيه. ولم أكن أريد قول هذا،ولكن هل تذكر ياأبي المرة الأخيرة التي تحدثنا فيها معا،في هذه الغرفة؟ .

كان السيد غرند غير مهيأ البتة لماسمعه الآن،لذا أجاب لويزا بصعوبة:

نعم يالويزا .

تابعت لويزا:

ما أقوله الآن كنت سأقوله في ذلك الوقت لو أعطيتني دقيقة مساعدة، أنا لا ألومك ياوالدي، مالم ترضه لي لم ترضه لنفسك، ولكن آه لو فعلت ذلك منذ زمن، أو لو أهملتني فقط فلكم كنت سأكون مخلوقة أفضل فأسمو على ما أنا عليه في هذا اليوم .

بعد سماعه ذلك وضع السيد غرند رأسه بين يديه وتأوه بصوت مرتفع .

تابعت لويزا قولها:

انّ لويزا منذ الطفولة كانت تحارب وبصمت أي تصرّف طبيعي وعفوي يصدر عنها، ويعيش في قلبها.

ثم أخبرته أنّ في صدرها كانت تعتمل أحاسيس وعواطف، وكان يوجد ضعف، وهذه الأحاسيس كان يمكنها أن تتحوّل الى قوة تتحدى كل حسابات والدها الذي أعطاها ذلك الزوج الذي هي متأكدة الآن من أنها تكرهه .

أجابها والدها:

كلا كلا ياطفلتي الصغيرة .

تابعت لويزا:

هل حكمت عليّ أن أعيش في هذا الصقيع واليباس الذي جعلني قاسية؟ كما أنك بأسلوبك هذا ياوالدي جعلتني أحس بعدم الاعتناء بأي شيء. كنت أشعر بالدمار الكبير والحزن في هذا العالم فقط . لقد جعلتني أشعر بعدم أهمية حياتي، ربيعها وصيفها حتى مدرستي التي كانت بمنزلة المأوى لي من هذا العالم السيء والدنيء

وقد كنت أشعر فيها بالأمان لم تعد تمثّل الأمان بالنسبة اليّ ، لأنني لم أعد أثق بها.

أجابها والدها :

آه يالويزا. كلا، ليس كذلك .

نعم ياوالدي، لو كنت تركتني أعيش بالطريقة التي أريد، وأشق طريقي بحرية ، وأمارس أحاسيسي، وأستفيد من خيالي، لكنت قادرة على أن أكون مليونيرة سعيدة، وأسعد بحب أكثر مما أنا عليه الآن . كنت سأكون أكثر براءة وانسانية، والآن اسمع ماجئت أخبرك به.

تحرّك والدها لمساعدتها على الوقوف ،تطلّعت بثبات الى وجهه ويدها على ذراعه ،تابعت لويزا قولها :

كنت أحسّ بجوع وعطش يسيطران عليّ، ـ ولم يهدأ قط الجوع والعطش الى المعرفة أكثر ،الجوع الى الأمور العاطفية التي لاتقاس بالمنطق والحقائق .

أجابها والدها :

لم أكن أعرف أنك غير سعيدة ياطفلتي. أجابته :

بينما أنا عرفت ذلك، انّ ماتعلّمته دوما في الحياة جعلني نادمة ،شاكة غير مصدقة مشمئزة . أما مالم أتعلّمه فهو أنّ هذه الحياة سوف تمضي سريعا وأنّ لاشيء فيها يستحق الألم ومشقة المنافسة والنزاع .

أجابها والدها وهو يتألم:

ولكنك صغيرة جدا يالويزا.

أجابته :

نعم صغيرة جدا وفي هذه الحالة ياوالدي أريك الآن من دون أي خوف الوضع الطبيعي لذهني المخمور. لقد قدمه لي زوجي وأنا قبلت به. وأنا لم ألمّح له أو لك قط أنني أحبه ،فأنا أعرف وأنت يا والدي تعرف وهو يعرف أنني لا أحبه ولن أحبه أبدا. ولكن ذلك لم يكن يشكّل لديّ شيئا في ذلك الوقت .

فكرت في أن أكون ذات فائدة لتوم،فهربت الى شيء نظري، ولكنني اكتشفت ببطء كم كان ذلك عنيفا ،ولكن توم كان مصدر الحنان الوحيد في حياتي،وربما أصبح كذلك،لأنني عرفت تماما كيف أشفق عليه .

هذا لايهم كثيرا الآن يا لو اذا دفعت ذلك الى التفكير بلبونة أكثر في أخطائه.

أمسكها والدها بين ذراعيه ،ووضعت يدها الثانية على كتفه ، وتابعت كلامها وهي مازالت تنظر بثبات الى وجهه .

عندما تزوجت قطعيا برزت الثورة ضد الرباط . النزاع القديم أصبح أقوى بسبب كل أسباب اليأس التي نشأت بسبب طباعنا المختلفة والتي لايستطيع أن ينظمها لي أي قانون عام الا اذا استطاع المشرّع أن يغمد سكينه في أسرار روحي. قال لها أبوها متضرعا:

لويزا .

قال ذلك لأنه يتذكر جيدا مادار بينهما من حديث في مقابلتهما السابقة .

تابعت :

أنا لا ألومك ياوالدي وأنا لا أتذمر فأنا هنا من أجل موضوع آخر.

آجابها:

ماذا أستطيع أن أفعل ياطفلتي؟ اذكري ما أستطيع فعله ؟سوف آخبرك ياوالدي. لقد رمى الحظ في طريقي أحد رجال المصارف الجدد. رجل لاخبرة لي فيه. انه محب للدنيا معتاد عليها، خفيف الظل غير مدع، مثقف، وهو يجاهر بعدم تقديره لأي شيء حتى انني خفت قليلا من هذا النموذج في السر، فلقد أوصل اليّ من دون أن أرى كيف تمّ ذلك أنه فهمني وقرأ أفكاري، ولم آجد أنه أسوأ مني. وبدا كأنّ هناك مشابهة بيننا وهو يبدي اهتماما بي آكثر من أي شيء آخر.

آجابها والدها:

اهتماما بك ؟

وكان أبوها قد بدأ يرخي قبضته عن ذراعها ولكنه لاحظ أنّ قواها قد انهارت ورأى نارا مشتعلة في عينيها.

وتابعت لويزا قولها:

أنا لاأقول شيئا عن ذريعته من أجل الحصول على كيفية زواجي، فهو يعرف ذلك أيضا والتفاصيل نفسها. ياوالدي لقد كسب ثقتي وماتعرفه عن قصة زواجي يعرفه هو أيضا، وبالتفاصيل نفسها.

امتقع وجه والدها وأصبح أبيض وأمسك بها بكلتا ذراعيه.

وتابعت لويزا:

أنا لم أفعل شيئا خاطئا ولم أحقرك، ولكن اذا سألتني هل أحبه فسأقول لك بصراحة ياأبي انه يحتمل أن آكون قد أحببته فأنا لاأدري.

وتابعت ماتريد قوله :

هذه الليلة وزوجي غائب كان الرجل معي،وصرّح لي بحق،وهو في انتظاري في هذه اللحظة ،فقد كانت هذه هي الطريقة الوحيدة لأخلّص نفسي من وجوده. أنا لاأعرف اذا ماكنت آسفة ،ولاأعرف اذا ماكنت أشعر بالعار،وأنا لاآدري اذا ماكنت محتقرة في تقدير نفسي لي، كل ماأعرفه هو أنّ على فلسفتك وتعليمك اياي أن ينقذاني.والآن وقد أوصلتني الى ذلك،فأنقذني بأية وسيلة تراها.

آمسكها بقوة حتى يجنبها السقوط الى الأرض ،ولكنها صرخت بصوت مضطرب :

سوف أموت اذا أمسكتني فدعني أسقط الى الأرض .

وتركها تسقط الى الأرض ورأى ابنته فخر قلبه وانتصار أسلوبه. متمددة كومة فاقدة الاحساس على قدميه .

الادّخار

الفصل الأول الحاجة إلى شيء آخر

استيقظت لويزا من استكانتها وفتحت عينيها الضعيفتين على سريرها القديم في منزل والدها وغرفتها القديمة. وبدا لها كل ما مرّ بها أشبه بحلم ولكن عندما بدأت الأمور تتوضح أمام نظرها شيئا فشيئا بدأت الحوادث تصبح أكثر حقيقة في ذهنها. كانت تحرّك رأسها بصعوبة بسبب الألم والثقل حتى انها لم تلحظ وجود شقيقتها الصغيرة في الغرفة التي مرّ زمن على وجودها. حتى عندما التقت عيونهما واقتربت شقيقتها من السرير، تمددت لويزا بضع دقائق تنظر صامتة الى شقيقتها وتسلمت يدها بلطف قبل أن تسألها:

متى أحضرت الى هذه الغرفة ؟

البارحة يالويزا.

من أحضرني الى هنا ؟

سيسي كما أعتقد.

لماذا تعتقدين ذلك ؟

لأنني وجدتها هنا هذا الصباح فهي لم تحضر الى فراشي لايقاظي كما كانت تفعل دائما وذهبت لأبحث عنها فلم أجدها في غرفتها أيضا وبحثت عنها في كل المنزل حتى وجدتها هنا تعتني

بك وتبرّد رأسك . هل تريدين رؤية والدي؟ فقد قالت لي سيسي : انه عليّ أن أخبره عندما تستيقظين. قالت لويزا عندما انحنت أختها بلطف لتقبيلها :

يالوجه المشع الذي تملكينه ياجين؟ أجابتها شقيقتها :

صحيح؟ أنا سعيدة جدا أنك تفكرين في ذلك. لاشك في أنّ سيسي قد فعلت ذلك .

أجابتها لويزا :

يمكنك أن تخبري والدي اذا أردت ذلك وأوقفتها لحظة قائلة لها : هل أنت من أضفى على الغرفة هذه اللمسة من الفرح والترحيب والجمال ؟

أجابتها شقيقتها :

كلا يالويزا لقد سويت الغرفة قبل أن آتي .

أدارت لويزا رأسها ولم تعد تسمع شيئا وعندما ذهبت شقيقتها أدارت رأسها ثانية نحو الباب حتى فتح ودخل والدها .

دخل والدها وعلى وجهه نظرة قلقة وقبعته ويده التي كانت ثابتة دائما بدت مرتعشة في يدها . جلس على جانب السرير وسألها بحنان عن حالها ملمحا الى ضرورة بقائها هادئة جدا بعد الاعياء وتعرّضها لهذا الطقس البارحة . تكلّم بصوت مضطرب ومختلف اختلافا تاما عن طريقته الاستبدادية المعتادة ،وكانت الكلمات تتعثر في فمه . قال لها :

حبيبتي لويزا يا إبنتي المسكينة ،وكان في حالة ضياع فحاول مرة ثانية :

ياطفلتي غير المحظوظة ، أنا لا أستطيع أن أعبّر لك عمّا حدث لي البارحة وكيف أنه مازال مؤثرا فيّ ومسيطرا عليّ حتى الآن . فالأرض التي أقف عليها أخذت تميد تحت قدمي فلقد صدمت بهذه الاكتشافات . انّ الصدمة التي حدثت لي البارحة كانت قاسية جدا . وهنا لم تستطع أن تريحه . فلقد تعذبت وكانت حياتها أنقاضا على الصخرة . وتابع والدها قوله :

انّ أسلوبه في الحياة قد أخفق وانّ عليه تحمّل مسؤوليته اخفاقه . ولكنه قال لها :

أريدك فقط أن تصدقي ياطفلتي المفضلة أنّ ماكنت أقصده ففعل الخير وماهو صحيح ولاشيء سوى ذلك فقد كنت أهدف الى فعل أشياء عظيمة .

أجابت لويزا :

أعي والله تماما ماتقوله ياوالدي وأنا أعرف أنني كنت طفلتك المفضلة وأنا أعلم أنك كنت تهدف الى جعلي سيدة سعيدة . أنا لم ألمك قط ولن ألومك أبدا .

أخذ يدها وأبقاها في يده وقال لها :

لقد أمضيت الليل الطويل كله وأنا أفكر فيماحدث بيننا وعندما أفكر في شخصك وانّ مااكتشفته منذ ساعات فقط قداختبأ داخلك مدة سنوات . أجل عندما أفكر كيف قلت ماقلته بالقوة ، وصلت الى نتيجة أنني لاأستطيع سوى عدم الثقة بنفسي. لقد كان يمكنه أن يضيف أكثر، ولكنه أضاف بلمساته فقد أزاح بلطف شعرها المبعثر عن جبينها بيده . وهذه الأفعال الصغيرة التي تبدو

عادية بالنسبة الى شخص آخر كانت تبدو ذات أهمية بالنسبة اليــه وقد استقبلت ابنته ذلك منه وكأنه دلالة على أنه يشعر بالندم. ولكن السيد غرند قال ببطء وبتردد وباحساس تعس من الضجر:

اذا كنت قد رأيت سببا لعدم الثقة بنفسي بسبب الماضي يـــا لويزا فيجب ألاّ أثق بنفسي حاضرا ومستقبلا. وسوف أكلمك بـــود وتحفظ . أنا لاأثق بنفسي فأنا أبعد من أن أكون مقتنعا الآن . ولكن ماأعرفه أنه عليّ أن أعرف كيف أساعدك وكيف أضعك فـــي المكان الصحيح ياطفلتي. كانت قد أدارت رأسها فلم يستطع رؤيــة وجهها غير أنّ عذابها وغربتها كليهما قد هدأا . وعلى الرغم مـن أنها استراحت الاّ أنها لم تبكي وكان والدها يتمنى أن يراهـــا تبكي .

قال وهو مايزال مترددا :

انّ بعض الناس يقولون: انّ هناك حكمة في الحماسة وانّ هنـاك حكمة في القلب ولكن هل لي بأن أعتقد ذلك،وانني كما قلت لاأثق بنفسي الآن فقد كنت أعتقد أنّ الفعل كاف . ولكنه لم يكن كافيا وكيف استطعت أن أجازف هذا الصباح وأقول ذلك اذا كان النـــوع الثاني من الحكمة هو ماكنت أتجاهله وهو الذي يأتي مع الفطرة يا لويزا. اقترح ذلك وهو يتردد وكأنه لايستطيع أن يعترف بذلـــك الآن. لم تجبه وبقيت متمددة أمامه على السرير وبدت كما رآهـا البارحة على الأرض في غرفته الليلة الماضية . قال لها والدها:

لويزا ـ وكانت يده على شعرها ـ لقد غبت من هنا ياعزيزتـــي مدة طويلة موخرا وبما أنّ شقيقتك قد تعلّمت بالأسلوب نفســـه

ـ ولفظ الكلمة الأخيرة بكثير من الاحتقار ـ لذا يجب التغيير في طريقة تعليمها منذ سن مبكرة وأنا أسألك آن تقوديها نحو الأفضل . هل تعتقدين أنّ ذلك ممكن ؟ أجابته لويزا :

أبي اذا استيقظ أي انسجام في صدرها الصغير الذي كان أخرس في صدري حتى تحوّل الى نزاع فدعها تشكر السماء لذلك ودعهاتكمل طريقها السعيد . ولتبارك نفسها لأنها تجنبت أن تسير في طريقي ذاتها . قال السيد غرند بلهجة كئيبة :

آه ياطفلتي . أنا رجل تعس لأنني أراك في هذه الحالة . ما الفائدة اذا كنت أنت لاتلومينني اذا كنت أنا آلوم نفسي وبقسوة. آحنى رأسه وتكلّم وإياها كلاما منخفضا قائلا :

لديّ شك في أنّ هناك بعض التغيير سيطرأ عليّ في هذا المنزل. فما لم يتم فعله سوف يفعله القلب بهدوء بالحب المجرّدوالعرفان بالجميل فهل على ذلك ؟

لم ترد عليه . فقال لها: أنا لست فخورا حتى أصدق ذلك يا لويزا . فكيف يمكنني أن أكون متعجرفا وأنت أمامي. هل يمكنني أن يكون ذلك ياحبيبتي؟ نظر اليها مرة آخرى وهي مستلقيةوبوده أن يتكلّم أي كلمة آخرى . خرج من الغرفة ولم يغب طويلا حتى سمعت دعسا خفيفا قرب الغرفة وعلمت أنّ أحدا ما يقف قريبامنها. لم ترفع رأسها بل اعتراها غضب لأنها لاتريد أن يراها أحد وهي في هذا اليأس . ولكن من الجيد أنّ تلك اللمسة الناعمة قد مرّت على عنقها ،واعتقدت أنها نامت ،فاليد المعلقة استقرّت على عنقها تعيد للحياة مجموعة من الخواطر ومن ثم استراحت . ولمّا

استراحت لويزا ،كانت بعض الدموع قد بدأت تترقرق في عينيهـا ، ورآت على الوجه الآخر دموعا أيضا ،وكانت لويزا هي المسببة لهذه الدموع. كانت سيسي تقف قرب السرير وقد قالت :

أرجو ألا أكون قد أزعجتك،فقد آتيت كي أسألك اذا ماكنت تسمحين لي بالبقاء قربك ؟

آجابتها لويزا:

لماذا يجب أن تبقي معي؟ فشقيقتي سوف تفتقدك فأنت كل شيء بالنسبة اليها.

آجابتها سيسي وهي تهز رأسها:

هل آنا كذلك حقا؟ لو أستطيع ذلك لكنت أكون شيئا بالنسبة اليك .

ماذا ؟

قالت ذلك وهي عابسة .

أجابتها سيسي :

أحب أن أحاول أن أكون قربك ما استطعت ،ولن أتعب من المحاولة فهل تسمحين لي؟

أجابتها لويزا:

هل أرسلك والدي لتسأليني ذلك ؟

آجابت سيسي :

كلا بالطبع بل قال لي انه يمكنني القدوم الآن ،ولكن هذا الصباح أرسلني من الغرفة أو على الأقل ...

هنا تراجعت وتوقفت سيسي .

سألتها لويزا :

على الأقل ماذا؟

أجابتها :

فكرت في أنه يفضل أن أذهب لأنني لم أكن متأكدة من أنك تودين رؤيته هنا .

أجابتها لويزا :

هل كنت أكرهك دائما الى هذا الحد؟

أجابتها سيسي :

أنا لا أتمنى ذلك،لأنني دائما أحبك،وكنت دائما أتمنى أن تعلمي ذلك . ولكنك تغيّرت معي قليلا قبل أن تغادري البيت بقليل . ولم العجب لذلك فأنت تعلمين الكثير،وأنا معرفتي محدودة وقليلة ،وكان من الطبيعي أن يكون لك أصدقاؤك وأنا لم أكن أتذمر،ولم يجرحني ذلك .

احمر لونها وهي تقول ذلك بسرعة وبتواضع . فهمت لويزا هذا الادعاء المحب .

سألتها سيسي :

هل أستطيع أن أحاول ؟

أمسكت لويزا بيدها وأجابتها :

أولا ياسيسي هل تعرفين من أنا؟ أنا معتزة جدا بنفسي ، وقاسية جدا ومضطربة ،وقلقة جدا،كما أنني غير عادلة مع نفسي، ومع أي شخص آخر،فكل شيء يبدو لي عاصفا ومعتما وسيئا . ألا ينفرك ذلك مني؟

أجابتها سيسي :

كلا .

تابعت لويزا أنا تعسة جدا ،وعوضا عن أن أكون متعلمة كما تعتقدين أنا محتاجة الى من يقودني الى السلام وألاّ يضيع ذلك مني أيضا .

هنا بدت لويزا ببراءة عاطفتها الشجاعة وبروحها العالية ، وهي الفتاة اليتيمة مثل الضوء الجميل في هذه العتمة التي تتخبّط فيها هي الأخرى . اقتربت لويزا ورمت برأسها على صدر سيسي وقالت لها :

سامحيني، اعطفي عليّ،وساعديني، أعطيني العاطفة التي أحتاج اليها ودعيني ألق برأسي هذا على القلب المحب .

أجابتها سيسي :

ألقيه هنا ، ألقيه هنا ياحبيبتي .

الفصل الثاني سخيف جدًا

أمضى السيد جيمس هارث هاوس ليلة ونهارا كاملين،وهو في عجلة من أمره ،فقد كان يعتقد أنّ لويزا سوف توافيه حتى يهربا معا اعتمادا على اتفاق مسبق بينهما . كان يدخل ويخرج،وكان يقود حصانه كقاطع طرق. وبعبارة أخرى كان كثير الضجر من الظروف الموجودة ،وبعد أن وضع حصانه في(كوك تاون) عبر العاصفة ، انتظر الليله كلها ،وكان من وقت الى آخر يقرع جرس غرفته في

الفندق بعصبية ،وهو يتهم البوّاب بأنه مقصّر في احضار رسائل له. طلع الفجر،وطلع النهار،وأتى اليوم ولم تصله أية رسالة ،وذهب الى البيت الريفي للسيد باي وكانت الأخبار تقول: انّ السيد باي ليس موجودا والسيدة باي في البلدة ،لقد غادرت فجأة البارحة الى البلدة وانّ عودتها لن تكون في الوقت الحاضر،وفي هذه الحالة لم يجد أمامه سوى اللحاق بها الى البلدة. وذهب الى منزل زوجها هناك ، ولكنها لم تكن موجودة. دخل الى المصرف فرأى أنّ السيد باي لم يعد والسيدة سبارست غير موجودة. من لديه استعداد بحق الاله لمصاحبة مخلوقة كالسيدة سبارست ؟ هذا مافكر فيه جيمس. ولمّا سأل جيمس توم عن السيدة سبارست أجابه :

لا أدري فلقد خرجت باكرا. انّ هذه المرأة مليئة بالغرابة فأنا أكرهها.

سأله جيمس :

أين كنت الليلة الماضية ياتوم؟

أجابه توم:

أين كنت الليلة الماضية؟ تعال، أنا أحب ذلك،كنت بانتظارك ياسيد هارث هاوس. وتسألني أيضا أين كنت ؟ أنت لاشك تعنيأين كنت أنت ؟ أجابه جيمس :

لقد تعذّر عليّ القدوم ،لقد تأخرت .

تمتم توم:

تأخرت ،كلانا تأخر فأنا قد تأخرت أيضا ،وبقيت أنتظرك حتى قدوم آخر قطار. وانه لعمل ممتع أن تخرج في ليلة كهذه وتعود

الى منزلك مشيا على الأقدام في خلال مستنقع من الماء. ولقد اضطررت الى النوم في البلدة بعد كل ذلك .

أين ؟

أين ؟ في فراشي في منزل باوندر باي .

هل رأيت شقيقتك ؟

أجابه توم وهو يحدّق فيه :

هل أستطيع رؤية شقيقتي وهي تبعد خمسة عشر ميلا ؟

لعن جيمس في سرّه هذه الاجابات السريعة التي كان يلقي بها توم ،وأخذ يتساءل بينه وبين نفسه المرة المائة :

ماذا يمكن كل هذا أن يعني؟ ووصل الى شيء واضح وجلي هو أنه سواء كانت السيدة باي في البلدة أو كانت خارجها ،وسواء أتصرّف معها بتسرّع في وقت سابق لأوانه ـ وهذا كان يصعب عليه فهمه ـ أم فقدت الشجاعة أم تمّ اكتشاف أمرها أو حدث خطأ أو حظ فعليه أن يتصدى لحظه مهما كان نوعه . وكان الفندق الذي ينزل به بمنزلة الوتد الذي يرتبط به ،وما عدا ذلك فانّ كل ما سوف يحدث سوف يحدث . لذا قال السيد جيمس محدّثا نفسه :

سواء انتظرت رسالة عداثية تصلني أو اجتماعا أو احتجاجا نادما أو مصارعة عداثية وصديقي باي الذي تعود لي طبيعته جدا في ظروف كهذه ،فسوف أتعشى. وباي سوف يفوز اعتمادا على وزنه فهو أضخم مني .

ولذلك قرع السيد جيمس الجرس وتمدد على آريكة وأمر باحضار العشاء له الساعة السادسة مع قطعة من لحم داخله. ولكنه كان

قلقا ومتوترا جدا،فقد مضت الساعات ولم يتلق أي نوع من التفسيرات بل لقد ازداد توتره وقلقه أكثر فأكثر. كان من المستحيل حتى قبل تناوله العشاء أن يتجنب المشي الدائم على السجادة وهو ينظر عبر النافذة ،ويستمع الى وقع خطوات قرب الباب. وكان هذا يحدث كلما سمع صوت خطوة تقترب من الغرفة فيصبح أكثر حرارة. ولكن بعد العشاء تحوّل النهار الى مساء،والمساء الى ليل ، ولم يحدث أن تمّ أي اتصال به ومن ثم طلب احضار شمعة وصحيفة. وحاول عبثا طوال مدة نصف ساعة قراءة الجريدة عندما حضرالخادم وأبلغه بطريقة غامضة ومعتذرة أنه مطلوب.

عذرا ياسيدي. أنت مطلوب اذا سمحت.

هذه الملاحظة اعتادت الشرطة استخدامها لالقاء القبض على اللصوص ممادعا السيد جيمس الى سوءال الخادم بسخط وغضب:

ماذا تعني بحق الشيطان بكلمة مطلوب ؟

أجابه الخادم:

عذرا ياسيدي،فهناك سيدة شابة في الخارج تود روءيتك في الخارج.

أين ؟

خارج هذا الباب ياسيدي.

هرع السيد جيمس الى الباحة ،فوجد امرأة شابة لم يرها من قبل،تلبس بأناقة ،وكانت تبدو هادئة جدا ،وجميلة جدا،وبعد أن أدخلها الى الغرفة ووضع لها كرسيا لاحظ على ضوء الشمعة أنها أجمل ممارآها منذ قليل. كان وجهها شابا وبريئا ،وتعبيراته

وملامحه محببة ،لم تكن خائفة معه أو مرتبكة أي ارتباك عندما أصبحا وحدهما.

سألته :

هل أتكلم الآن مع السيد جيمس هارث هاوس ؟

تكلم جيمس بينه وبين نفسه قائلا :

نعم أنا جيمس ،وأنت صاحبة أجمل عينين مملوءتين بالثقة رأيتهما في حياتي،وصاحبة صوت جدي جدا ،على الرغم من كونه هادئا .

قالت له سيسي :

أنا لاأدري ياسيدي كيف أنّ أخلاقك وأنت سيد محترم تسمح لك بالارتباط بأمور أخرى .

صعدت الدماء الى وجهه وهي تحدثه بهذه الكلمات ،بينما نادته سيسي بكلامها قائلة :

وأنا واثقة من أنك ستبقي زيارتي هذه سرية ،وأن تبقي ما سأقوله لك سرا ،وسوف أثق بذلك اذا أعطيتني وعدا بذلك .

أجابها :

أوَ كذلك أنه باستطاعتك أن تثقي بي .

هنا تابعت سيسي كلامها قائلة :

أنا كما ترى شابة وحيدة،وعندما حضرت لزيارتك لم أتلق نصيحة أو تشجيعا من أحد. كانت رغبتي هي التي تحرّكني .

فكر جيمس وهو يراقبها ،ولكن هذه شجاعة كبيرة ،وفكر جيمس في أنّ بداية محادثتهما كانت غريبة ،ولايدري الى أين سيصل

معها فيها.

سألته سيسي :

أعتقد أنك تعلم من أين آتيت توا، ومن تركت عند قدومي؟

أجابها :

لقد أمضيت مدة عصيبة جدا في خلال الساعات الأربع والعشرين الأخيرة، ولقد بدت لي وكأنها سنوات طويلة. وكل ذلك بسبب امرأةولكي أصل.

قاطعته :

لقد تركتها منذ ساعة.

فسألها :

أين ؟

أجابته :

عند والدها.

تضاعف قلق السيد جيمس وفكر:

لاشك في أنني لاأدري الى أين سنصل.

تابعت سيسي قولها : وصلت البارحة الى منزل والدها ووصلت هناك مضطربة جدا، وكانت فاقدة الوعي طوال الليل، وأنا أعيش في منزل والدها وكنت معها، وكن واثقا ياسيدي من أنك لن تراها ثانية مادمت أحيا.

زفر السيد جيمس نفسا طويلا واذا ماوجد نفسه رجلا في وضع لايعرف معه ماذا يمكنه أن يقوله، فلقد وجد جيمس نفسه محاصرا. فالحزن الطفولي الذي كانت تتكلم به زائرته، وعدم خوفها المحتم،

وصدقها الذي وضع كل الزيف جانبا ،وانسياقها التام وراء نفسها وهي تتحدث بجدية تامة في الموضوع الذي أتت من أجله . كل ذلك اضافة الى اتكالها على وعده اياها والذي أخجله هو نفسه . مثل شيئا بالنسبة اليه لم يعتد عليه وقد علم أنّ أيا من أسلحته المعتادة سوف تسقط أمام ذلك ويودي بأية مقاومة ،لذا لم يستطع أي شيء أن يسعفه . وأخيرا نطق بهذا التصريح المفزع الذي هو بكل ثقة مربك جدا .

ولكن هل يمكنني أن أسألك اذا كنت قد كلفت بنقل هذه المعلومات التي بهذه الكلمات اليائسة ،من السيدة التي نتكلم عليها؟

أجابته سيسي :

أنا لم أكلف من لدنها .

هنا تعلّق الرجل الغريق بقشة وقال :

مع احترامي لرأيك،ومن دون أي شك في اخلاصك لي أسمح لنفسي بأن أقول لك انه لايزال هناك أمل في عدم هجرة تلك السيدة نهائيا .

أجابته :

لايوجد أدنى أمل. فالموضوع الأول لقدومي الى هنا ياسيدي هو أن أؤكد لك أنه لاأمل في أن أتكلم معها ثانية .

أجابها :

ولكن اذا لم أستطع أو اذا أردت أن أكون عنيدا ...

أجابته :

لايوجد أمل .

نظر اليها جيمس هارث هاوس بابتسامة غير مصدقة ولكن تفكيرها كان أعلى من تفكيره ،لذا لم تكن تأبه لابتسامته . عض على شفته وأخذ بعض الوقت حتى يمعن في التفكير ثم قال :

حسنا ، اذا كان الأمر بهذه التعاسة فأنا لن أظلم السيدة ، ولكنك قلت انك لم تستأذنيها من أجل أن تأتي الى هنا ؟

أجابته :

الاذن الوحيد الذي لديّ هو حبي لها وحبها لي . فقد كنت معها منذ قدومها الى المنزل، ولقد أعطتني ثقتها وعرفت أشياء عن شخصيتها وزواجها . آه ياسيد هارث هاوس أعتقد أنك تثق بما أقوله .

كلامها وأسلوبها كان لهما أعمق الأثر في نفسه . فقال لها :

أنا لست انسانا من النموذج الأخلاقي، وأنا لاأدري أبدا أنني أخلاقي، إلاّ أنني انسان فاسد ،ولكنني أؤكد لك أنه لم يكن لديّ نيّات سيئة ،ولم أكن أهدف الى أن أسبّب لها أي يأس أو أن أعرّضها للشكوك، أو أن استغل فرصة أنّ والدها كالآلة وأخاها جرو وزوجها ذئب . لقد انزلقت من خطوة الى أخرى بطريقة شيطانية .

كان يتكلم بطريقته المستهترة والسخيفة . صمت جيمس مدة من الوقت ثم تابع وفي حديثه دلائل على فقدان الأمل والغضب قائلا :

بعد الذي عرفته عليّ الآن، أرى أنه لايمكنني أن أرفض طلبك بعدم رؤيتي للسيدة .

رفعت سيسي عينيها نحوه بينما تابع جيمس قوله :

أعتقد أنك تودين ذكر موضوع آخر أليس كذلك ؟

آجابته :

بلى .

سألها جيمس : هل يمكنك أن تأتمينني عليه ؟

آجابته سيسي بمزيج من اللطف والحزم :

وأسلوبها هذا هو الذي هزمه .

انّ الحل الوحيد الباقي لك هو أن تتركها حالا ونهائيا ،وأنا واثقة من آنها الطريقة الوحيدة من آجل التخفيف من الأذى والخطأ الذي ارتكبته ،وذلك هو العزاء الوحيد الباقي لك. أنا لاأقول انّ هذا كاف ،ولكن هذا شيء مهم ،ولذا فانه من دون معرفة أي شخص آخر سواي أطلب اليك مغادرة هذا المكان الليلة وعلى أن تعدني بألا تعود أبدا .

لم يؤثر به شيء سوى ايمانها الصريح في حقيقة ماتقوله وصوابه .

سألها جيمس :

ولكن هل تعلمين مدى ماتطلبين؟ فأنت لاتعلمين آنني هنا للقيام بعمل له صفة حكومية ،وأنا أؤكد لك أنّ هذه هي الحقيقة ، ولكنها لم تتأثر بذلك سواء كان ذلك حقيقة أو غير ذلك .

تابع جيمس قوله :

اضافة الى آنني وبعد التعرّف على الكثيرين هنا في هذه البلدة يبدو من السخرية أن أغادر بطريقة كهذه .

أجابته سيسي :

أنا متأكدة من أنّ هذه هي طريقة الاصلاح الوحيدة ،ولولا ذلك

لما كنت قد تكبدت مشقة المجيء .

تطلع الى وجهها وقال،وهو مضطرب جدا:

أقسم بشرفي أنني لاأعرف ماذا أقول .

وتابع جيمس قوله:

اذا كان عليّ أن أقوم بعمل سخيف كهذا ،فهذا مرده فقط الى الثقة التي أوليتني اياها.

أجابته سيسي :

سوف أثق بك،وأنت سوف تثق بي .

هنا تذكر جيمس ليلته التي قضاها مع الجرو،وأحس في نفسه بأنه هو الجرو،وقال بعد أن تطلع الى أسفل وأعلى،وبعد أن ضحك، ثم عبس ومشى في الغرفة: انني لم أر رجلا في موقع أسخف من موقعي هذا ،ولكنني لاأرى مخرجا لي من هذا الطريق. وماسوف يحدث سوف يحدث ويجب أن أتصرّف .

وقفت سيسي وهي سعيدة بالنتيجة التي وصلت اليها ،ولمع وجهها باشعاع،وتابع جيمس كلامه:

اسمحي لي أن أخبرك أنه لم يكن يمكن أي سفير أو سفيرة التكلّم معي والتأثير فيّ بهذا النجاح الذي حققته . ولقد كنت مغلوبا في كل الاتجاهات . فهل تسمحين لي بالتعرّف على اسم عدوتي ؟

سألته السفيرة:

اسمي ؟

نعم فهو الاسم الوحيد الذي يهمني معرفته هذه الليلة. أجابته:

سيسي جوب . أجابها جيمس :

اعذريني ولكن اسم عائلته ؟

أجابته سيسي :

أنا لست سوى فتاة فقيرة . والدي كان مهرّجا متجوّلا ،ولقد هجرني وآشفق عليّ السيد غرند،ومنذ ذلك الوقت وأنا آعيش في منزله .

غادرته سيسي، بينما قال جيمس وهو يحدّث نفسه :

كان ينقصني هذا من أجل اكتمال الهزيمة . قال هذا وهو يغوص في الأريكة . الهزيمة الآن يمكنني أن أعدها كاملة . فتاة فقيرة فقط . مهرّج متجوّل فقط . أنا بالفعل هرم ضخم من الاخفاق.

قرّر الهرم الضخم أن يترك هذا المكان ويذهب الى القاهرة ،الى بلاد النيل .

أخذ قلما وكتب الملاحظة الآتية الى شقيقه :

عزيزي جاك ، انتهى الأمر في(كوك تاون) . فلقد سئمت من هذا المكان،وسأذهب وراء الجمال، عواطفي لك. جيم .

قرع جيمس الجرس .

أرسل لي خادمي الى هنا .

ذهب الى الفراش ياسيدي .

أخبره أن يستيقظ ويحضر المحفظة .

وكتب جيمس ملاحظتين اضافيتين احداهما السيد باي معلنا فيها عن مغادرته البلدة ،والأخرى للسيد غرند وقبل أن يجف حبر رسالته كان قد غادر تاركا وراءه المدافىء الطويلة في كوك تاون

وهو يستقل عربة القطار.

وبما أنه سيرى أنّ الأشخاص ذوو أخلاق فانّ السيد جيمس قد حصل على بعض الراحة الذهنية بعد ذلك،ولاسيما بعد مغادرته المكان. ولكن الموضوع لم يكن كذلك قط ،فقد كان ينتابه احساس سري بأنه قد أخفق،وأنه سخيف ،وأنه خجل جدا من نفسه .

الفصل الثالث كثير الصّراحة

تعرّضت السيدة سبارست التي لاتهدأ لبرد حاد،وتحوّل صوتها الى همس ،وبدأت تعطس عطسا مستمرا. وقد لاحقت السيد باي من مكان الى آخر،حتى وجدته في الفندق في شارع القديس جيمس ،وقد فجرت قنبلتها وأخبرت السيد باي بكل ماحدث بين زوجته وبين السيد جيمس . كان أول ماقام به السيد باي من تصرّف هو دفع السيدة سبارست التي سقطت على الأرض ،وبعد أن أغمي عليها ساعدها حتى استردت أنفاسها ،ودفع بها الى أول قطار ليعود بها الى كوك تاون وهي ميتة أكثر منها حيّة .

وقد أدركت السيدة سبارست أنها وصلت الى نهاية رحلتها ، ولكنها عرفت مقدار الأذى الذي تعرّضت له . أما السيد باي فلم يبال بمدى مرض السيدة سبارست ،بل قادها في عربة الى ستون لودج الى السيد غرند. قال السيد باي :

الآن ياتوم غراد غرند- قال ذلك وهو يدخل الى غرفة حميه- . هنا يوجد سيدة تدعى السيدة سبارست وأنت تعرف السيدة سبارست

فهي تريد أن تخبرك شيئا . سوف يصيبك بالبكم .

قال السيد غرند :

ألم تصلك رسالتي ياسيد باي ؟

أجابه باي :

لم تصلني رسالتك . الوقت الآن ليس وقت رسائل،ولا أحد يحدّث جوزيه باي بموضوع الرسائل،وهو في حالة كهذه يمرّ بها .

قال السيد غرند بلهجة معاتبة :

باوندر باي أنا أتكلم على رسالة خاصة جدا كتبتها لك بخصوص لويزا . أجابه باي :

توم غراد غرند وهو يضرب على الطاولة بيده مرات عدة بقوة:

أنا أتكلم على رسول خاص أتى اليّ بموضوع متعلّق بلويزا . السيدة سبارست التي وقفت من دون أن يظهر صوتها،وهي تريد أن تدلي بشهادتها،وكانت ملامحها متألمة جدا،وقد تلعثمت كثيرا فلم يستطع السيد باي تحمّل ذلك فدفعها،وبينما كان يدفعها بيده قال لها :

اذا كنت لاتستطيعين أن تبوحي بذلك ياسيدتي فدعيني أقل ذلك بنفسي. ياسيد غرند انّ السيدة سبارست وجدت نفسها مصادفة في موقع سماع محادثة بين ابنتك وصديقك المخلص السيد جيمس هارث هاوس .

قال السيد غرند :

أصحيح هذا؟ صاح باي :

أصحيح هذا؟ الحديث الذي جرى بينهما . أجابه غرند ليس من

المهم أن تعيد مضمون الحديث يا باي فأنا أعرف ماحدث . أجابه باي بكل قوة وهو مدهوش من الهدوء والسكون الذي تقبل به تقبل حموه الأمر :

أنت تعرف . وهل تعرف أين هي ابنتك الآن ؟

من دون شك انها هنا .

أجابه باي :

هنا ؟

أجابه غرند :

عزيزي باي أرجو أن تكبح هذه الثورة . فلويزا هنا في اللحظة التي استطاعت أن تحل نفسها من المقابلة مع الشخص الذي تتكلم عليه ،وأنا في أشد الأسف . انني كنت الوسيلة في تقديمه اليك وقد هرعت لويزا الى هنا من أجل الحماية ،ولم أكن في المنزل طوال مدة ساعات عدة عندما استقبلتها هنا . فلقدأسرعت بالقطار الى البلدة وركضت من البلدة الى هذا المنزل،وكانت العاصفة على أشدها ،وقد وقفت أمامي في حالة ذهول كامل،وبقيت هنا منذ ذلك الوقت ،ودعني أنصحك من أجلك ومن أجلها أن تكونأكثر هدوءا .

تطلّع السيد باي بهدوء حوله دقائق عدة بكل الاتجاهات ما عدا اتجاه السيدة سبارست ،ومن ثم تطلّع نحوها بفظاظة وقال لهذه المرأة التعسة : والآن ياسيدتي سوف نكون سعيدين اذا سمعنا منك أي اعتذار بسيط تجدين أنه من المناسب تقديمه قبل أن تغادري البلدة بخطوات سريعة .

أجابته السيدة سبارست همسا : أعصابي في الوقت الحاضر متعبة

ومهتزة ،وصحتي أتلفت في خدمتك،وكل ما أستطيع فعله الآن هو البكاء .

وهذا مافعلته حتما .

حسنا ياسيدتي أعتقد أنه بما أنك من عائلة جيدة فعليّ أن أضيف أنّ هناك شيئا آخر تستطيعين اللجوء اليه . هذا الشيء هو العربة التي أتيت بها ،وسوف تسمحين لي بأن أوصلك اليها ،وأن أرسلك الى المصرف حيث يكون أفضل مايمكن أن تفعليه هوأن تضعي قدميك في ماء حار جدا ،وأن تشربي بعض الخمر ،بعد ذهابك الى الفراش .

بهذه الكلمات مد السيد باي يده الى المرأة الباكية ،وعاد وحيدا بعد أن أوصلها. ثم تابع حديثه موجها كلامه الى السيد غرند :

بما أنك تريد أن تتحدّث معي فها أنا ذا ،ولكنني أقول لك بصراحة انني لست بوضع مريح وغير مسرور بهذا العمل،ولا أعد نفسي باي في الوقت الذي كنت قد عوملت فيه معاملة جيدة بوساطة ابنتك كماهو مفروض أن يعامل جوزيه باي بوساطة زوجته . وأنا أقول : انّ لك رأيك ولي رأيي واذا كنت تريد أن تقول لي أي شيء في هذه الليلة خلاف هذه الملاحظة الصريحة فيفضل ألاّ تفعل اليوم ذلك .

عزيزي باي بدأ السيد غرند كلامه بهذه العبارة .

أجابه باي :

عذرا عموما انّ الهدف هو السيطرة عليّ. أنا لاأتكلم معك

بلطف وأنا لست مهذبا ،واذا كنت تحب التهذيب فأنت تعرف من أين تحصل عليه. فلك أصدقاؤك السادة، وسوف يخدمونك في هذا المجال بحسب رغبتك . أجابه السيد غرند:

ياباي نحن معرّضون للخطأ. قاطعه باي :

ولكنني كنت أعتقد أنك لاترتكب أخطاء .

أجابه: ربما فكرت في ذلك ولكنني أقول اننا كلنامعرّضون للخطأ،وأنا حسّاس بالنسبة الى تأثرك السريع وممتن لذلك،وأرجو ألاّ تربط بين موضوع السيد جيمس وموضوعي. فأجابه باي :

أنا لم أذكر اسمه قط .

أجابه السيد غرند بصبر ونوع من الخضوع :

ياباي أنا أشك في أننا لم نستطع أن نفهم لويزا فهما جيدا .

أجابه باي:

ماذا تعني بنحن ؟

أجابه غرند :

اذن دعني أقل:انني لم أفهم لويزا،وأنا حائر اذا كنت على صواب في طريقة تثقيفها وتعليمها.

أجابه باي :

ها أنت ذا قد أصبت الهدف ،وأنا أوافق معك على ذلك ،فلقد وجدت ماتريد في النهاية الثقافة أليس كذلك ؟ ولسوف أخبرك ماتكون الثقافة. ما أدعوه ثقافة هو أن تكون خارج الأبواب تجني المحاصيل من دون أن تسبّب أذى لأحد،هذا ما أدعوه ثقافة .

وهنا دار جدال خفيف بينهما ،ولكن السيد غرند قال للسيد باي :

لارغبة لي بالمناقشة .

وقال له :

أنا أهدف الى اصلاح مايمكن اصلاحه اذا كان يمكنني فعل ذلك وأنا أعتقد أنك ياباي سوف تساعدني بروح طيّبة لأنني حزين جدا.

أجابه باي :

أنا لاأفهمك حتى الآن،ولذلك ليس يمكنني اعطاءك أي وعد .

أجابه غرند :

في خلال ساعات عدة مرّت عرفت عن شخصية لويزا أكثر مما عرفته في خلال سنوات . وأنا أعتقد ياباي على الرغم من أنك سوف تفاجأ بما أقول ولكنني أعتقد أنّ هناك ميّزات في لويزا لم تكن واضحة ومبيّنة . ولذا أقترح أن توافقني على تركها بعض الوقت حتى تستريح،فذلك من أجل سعادتنا معا. فلويزا كانت دائما طفلتي المفضلة .

انزعج باي كثيرا لدى سماعه ذلك من غرند،ولكنه أخفى سخطه وقال :

هل تود ابقاءها هنا مدة؟ فأجابه: أود أن تترك لويزا هنا بزيارة وأن تبقى مع سيسي التي تفهمها والتي تثق بها. أجابه باي ويداه في جيبه : أفهم من كل ذلك ياتوم غراد غرندأنّ رأيك هو أنّ هناك بعض الخلاف بين السيدة باي وبيني .

أجابه والدها بأسى: أخشى أن يكون هناك خلاف عام في الوقت

الحاضر بين لويزا وبين كل العلاقات التي وضعتها على اتصال بها.

أجابه باي :

والآن انظر أنت هنا ياغرند .

قال ذلك وشعره منفوش بغضب ،ورجلاه متفرقتان،ويداه أكثر غوصا في جيبه .

لقد قلت مالديك،وأنا سوف أقول ما لديّ. أنا رجل من كوك تاون . أنا جوزيه باوندر باي . أنا أعرف قرميد هذه البلدة ، وأعرف مدافئ هذه البلدة وأعمالها. أعرف كل ذلك . فالعمال أناس واقعيون،وعندما يقول لي رجل أي شيء من ميّزات خيالية أقول لهذا الرجل دائما انني أعلم ماذا يعني،وهو ماتريده ابنتك . وبما أنّ رأيك أن تحصل على ماتريده فأنا أوصيك أن تؤمن ذلك لها ،لأنها ياتوم غرند لن تحصل على ذلك مني .

أجابه السيد غرند:

ياباي كنت آمل بعد رجائي لك أن تتغيّر لهجة حديثك .

انتظر لحظة .

أجابه باي :

لقد قلت ماعندك كما أعتقد وسمعتك الى الآخر،فعليك أنت أيضا سماعي اذا أردت ،فلاتجعل نفسك غير منصف ،وغير ثابت ، لأنني،على الرغم من أنني متأسف ،أرى توم غرند قد وصل الى وضعه الحالي،ولكنني متأسف أيضا لأنه وصل الى هذا الوضع المخمور.والآن لقد فهمت منك أنّ هناك من الخلاف شيئا بيني وبين ابنتك،وأنا سوف أرد عليك بأنّ ابنتك لاتعرف فضائل زوجها ،وأنا صريح في حديثي

معك كما آتمنى .

قال السيد غرند:

ياباي ماتقوله غير محق .

أجابه باي :

حقا أنا سعيد في أن أسمعك تقول ذلك،وانه عندما يقول لي (توم غراد غرند) انّ ماأقوله غير محق وغير منطقي فهذا يعني احساسا شيطانيا. لو سمحت لي فسوف آتابع : أنت تعرف أصلي ، وأنت تعرف أنه طوال سنوات عدة من حياتي لم آنتعل حذاء،ومع هذا سواء أصدقت أم لم تصدّق بأنّ هناك سيدات ،سيدات مولودات ينتمين الى عائلات على استعداد لعبادة الأرض التي آمشي عليها.

سدد باي ذلك مثل السهم الى رأس والد زوجته .

وتابع باي قوله : ومادامت ابنتك أبعد ماتكون عن كونها سيدة،وآنت تعرف أنني لاآهتم بآشياء كهذه ،ولكن هذه هي الحقيقة وأنت ياتوم لاتستطيع تغيير ذلك،ولكن لماذا أقول هذا كله ؟

أجابه غرند بصوت منخفض :

أخشى أنك تقول ذلك من أجل آن تستغني عني .

قال باي :

اسمعني ولاتقاطعني قبل أن يأتي دورك، أنا أقول ذلك لأنّ مجموعة من السيدات اللواتي ينتمين الى الطبقة الراقية دهشن من الطريقة التي تتصرّف بها ،وهن يعجبن كيف أنني أتحملها ،وأنى لي أن أتحمّل أكثر من ذلك ؟

قال غرند وهو يقف :

يفضّل ياباي ألا تتكلم كثيرا هذه الليلة كما أعتقد .

على العكس ياغرند كلما تكلمنا اليوم كان ذلك مفيدا .فدعني أقل كل مالديّ ثم لا أهتم عندما نتوقف . وهنا أصل الى سؤال يمكنه أن ينهي المسألة . ماذا تقصد بالعرض الذي قدمته الآن ؟

ماذا أقصد ياباي ؟

قال باي :

عرض الزيارة .

أجابه غرند :

أنا أقصد أنني أتمنى أن توافق بأسلوب صديق للسماح للويزا بزمن راحة وتأمل هنا فقد يؤدي ذلك الى تغييرات أفضل من جوانب كثيرة .

من أجل تهدئة أفكارها حول موضوع الخلاف بيني وبينها ؟

أجابه غرند :

حسنا اذا أخذت الموضوع بهذه الصورة .

سأله باي :

ماالذي جعلك تفكر في ذلك ؟

قلت سابقا : انني أخشى أننا لم نفهم لويزا فهما جيدا ، هل أطلب الكثير ياباي، وبما أنك الأكبر منها سنّا فعليك أن تساعد من أجل وضعها في الطريق الصحيح .

انتفض باي قائلا :

لاأريد سماع المزيد حول ذلك، فأنا أعرف تماما لماذا

تزوجتها كماتعرف آنت ،ولايهم لماذا آخذتها ،فهذا موضوع يهمني أنا وحدي .

قال له غرند :

كنت سأعلق يا باي بأننا كلنا على خطأ حتى آنت ،لذلك ولذا فعلينا التحمّل معا .

رد عليه باي: سوف أنهي هذه المسألة الآن. أما الآن فلا أريد أن أتشاجر وإياك حول هذا الموضوع ياتوم غراد غرند،وحتى أكون صادقا معك ليس هناك مايفيد سمعتي في أن أتشاجر في موضوع كهذا .

أما بالنسبة الى صديقك فيستطيع أن يفعل مايريده ،واذا ما صادفته فسوف أقول له مافي ذهني،واذا لم أصادفه فهذا لايهم. أما بالنسبة الى ابنتك التي جعلتها السيدة باي،وكانت ستكون أفضل لو تركت عائلتها ،واذا لم تحضر الى المنزل غدا الساعة الثانية عشرة ظهرا فسوف أفهم أنها تفضّل أن تبقى بعيدة ،وسوف أرسل لها ثيابها ،وسوف تحزن،وسوف تكون أنت مسؤولا عنها مستقبلا. وماسوف أقوله للناس عموما حول الخلاف الذي حدث بيننا هو الآتي : أنا جوزيه باي ولي تربيتي،وهي شقيقة توم غرند ولهاتربيتها، والحصانان لن يجريا معا. وأنا معروف بأنني رجل غير عادي وسوف يعرف الجميع أنّ المرأة التي أرتبط بها يجب أن تكون غير عادية أيضا .

قال السيد غرند له :

دعني ،وأرجوك صادقا في آن تفكر مليّا في هذا يا باي قبل أن

تأخذ قرارا كهذا.

قال له باي وهو يضع قبعته على رأسه:

أنا دائما أصل الى قرار وأنا أفعله، أفعله فورا، وأنا أستغرب من الملاحظة التي أعطيتني اياها، وقد قلت لك قراري وليس لديّ المزيد يمكنني قوله . لتصبح على خير .

هنا ذهب السيد باي الى منزله في البلدة، وذهب فورا الى الفراش وفي اليوم الثاني وبعد مرور خمس دقائق بعد الثانية عشر أمر بترتيب أغراض السيدة باي ومن ثم أرسلها الى منزل والدها ونشر اعلانا يفض بيع المنزل الريفي وتابع حياته أرمل .

الفصل الرابع مفقود

بعد أن بدأ باي يعيش حياة الترمّل، أراد أن يثبت أنّ حياته العائلية لاتؤثر في عمله. وفي الأسابيع الأولى من ترمله، كان يقوم كل يوم بالتحرّيات من أجل معرفة من قام بالسرقة حتى انّ الضبّاط الذين كانوا يحققون في القضية تمنّوا لو أنّ السرقة لم تقترف، وكان السيد باي يجري تحقيقاته حول السيد ستيفن بلاك بول الذي لم يعرف عنه شيء وبقيت أخبار المرأة العجوز غامضة بالنسبة اليهم، وأعلن السيد باي عن مكافأة قدرها عشرون باوندا، لمن يدله على ستيفن، وقدم في النشرة أوصافا كاملة عن ثيابه، وملامحه، وطوله، وتصرّفاته، وفصّل فيها كيف أنه غادر البلدة وبيّن الاتجاه الذي سلكه آخر مرة، وألصق المنشور على الحيطان، حتى

يستطيع الجميع رؤيتـه .

وفي ذلك الصباح قرعت أجراس المصنع ،وكان الجميع يقـــرؤون المنشور بعيون مستغربة ، أما من لم يكن يعرف القراءة فكان يستمع الى الأصوات العالية التي كانت تقرأ بصوت عال،وبعد أن أكمـــل العمال يوم العمل وخرجوا الى الشارع ،كان لايزال هناك الكثير مـــن الناس يقـرؤون العنوان .

بدأ وكيل العمال سلاكير بوج يخطب في العمال حول موضــــوع ستيفن،وأخذ يهاجمه ويقول :

انه لص وقاطع طريق،وانّ الجميع في البلدة بريئون منـــه وخجولون من سوء أمانته غير الشريفة .

كان الرجال والنسوة مازالوا في الشوارع ذاهبين الى منازلهم عندما قالت سيسي للويزا :

هناك السيد باي وأخوك السيد توم وامرأة شابة تدعى راشيل وهي تزعم أنها تعرفك .

قالت لها لويزا :

ماذا يريدون ياسيسي العزيزة ؟

يريدون رؤيتك .

كانت راشيل تبكي ويبدو عليها الغضب .

قالت لويزا :

أبي ـ وكان حاضراً ـ أنا لاأستطيع رفض رؤيتهم بسبب ســوف يوضح نفسه . هل سيأتون الى هنا ؟

وعندما أجابها والدها بالايجاب ذهبت سيسي لاحضارهم وعـادت

توا معهم،كان توم آخر من وصل وظل واقفا قرب الباب .

قال لها زوجها بانحناءة باردة :

السيدة باي أرجو ألاّ أكون أزعجك،فهذه ساعة غير مناسبة ، ولكن هنا فتاة شابة قالت أشياء جعلت زيارتي ضرورية . لقد رفض توم تقديم أي شيء من التوضيحات ،لذا عليّ أن أستفسر منك عن الموضوع .

قالت لها راشيل :

لقد أتيت مرة قبل الآن ياسيدتي،وكنت أقف أمامك،سعل توم.

أجابت راشيل :

لقد رأيتني ياسيدتي مرة قبل الآن أليس كذلك ؟

سعل توم مرة ثانية .

أجابتها لويزا :

بلى .

نظرت راشيل بفخر نحو السيد باي وقالت :

هل يمكنك أن توضحي ياسيدتي من كان هناك وأين ؟

أجابتها لويزا :

ذهبت الى المنزل الذي يقطن فيه ستيفن بلاكبول ،في الليلة التي فصل فيها من عمله ورأيتك هناك . وكان هناك أيضا. وكان هناك امرأة عجوز لم تتكلم وقد رأيتها بصعوبة ،وكانت تجلس في زاوية مظلمة ،وكان شقيقي معي .

تمتم باي :

لماذا لم تستطع قول ذلك ياتوم ؟

وعدت شقيقتي ألاّ أقول شيئا، اضافة الى أنها تروي قصتهـــا رواية جيدة جدا، لذا فلا عمل لي .قال الجرو ذلك بقسوة .

تابعت راشيل :

أرجو أيتها السيدة الشابة أن تخبرينا لماذا، أو في أيـــة ساعة شيطانية آتيت الى ستيفن في تلك الليلة ؟

أجابت لويزا ولونها أكثر امتقاعا :

شعرت بعطف نحوه وكنت قد تمنيت أن أعرف ماذا سيفعـــــل، وتمنيت أن أقدم له مساعدة .

قال لها باي :

شكرا لك ياسيدتي .

قال ذلك وهو مجبر .

سألتها راشيل :

هل عرضت عليه مبلغا من المال . أجابتها نعم، ولكنه رفضها وأخذ باوندين فقط .

تطلعت راشيل مرة ثانية الى السيد باي، قال السيد باي :

حتما فقصتك السخيفة وغير المنطقية قد تأكدت تماما .

قالت راشيل :

سيدتي انّ ستيفن الآن يسمى لصا في المنشورات الرسمية فـــي البلدة، وقد عقد اجتماع اليوم تكلّم فيه عليه بطريقة مخجلـــة، ستيفن الشاب الشريف المملوء ثقة، الأفضل ....

هنا خانتها عواطفها وبدأت تبكي .

قالت لويزا :

أنا آسفة جدا جدا.

أجابت راشيل :

أتمنى أن تكوني آسفة ،ولكني لا أعرف فمثلكم لايعرفوننا ولايهتمون بنا ولايمتون الينا بصلة. أنا لست متأكدة لماذا أتيت في تلك الليلة ،لا أستطيع أن أقول سوى أنك أتيت لهدف في نفسك من دون الاهتمام بالمأزق الذي سببته لهذا الشاب الفقير.وأقول انك أبديت تعاطفا كبيرا معه في ذلك الوقت ،ولكنيلا أعرف .

لم تستطع لويزا أن تراقبها بسبب شكوكها غير العادلة ،فقد كانت موءمنة جدا بفكرتها عن الرجل .

تابعت راشيل وهي تشهق بالبكاء :

وعندما أفكر كيف أنّ الفتى كان ممتنا جدا ،وهو يظن أنك جيدة جدا معه ،عندما أفكر كيف وضع يديه على وجهه المتعب لاخفاء الدموع التي سببتها له ... آه أتمنى أن تكوني آسفةولكنني لا أدري.لا أدري .

هنا قال الجرو:

أنت نموذج جميل .

قال ذلك بغضب وهو يتحرّك في زاويته المظلمة :

كيف تأتين الى هنا بهذه الاتهامات ويجب أن يرمى بك خارجا ، لأنك لاتحسنين التصرّف .

لم ترد عليه أما بكاوءها الخافت فكان الشيء الوحيدالمسموع الى أن تكلم السيد باي قائلا :

تعالي،فأنت تعرفين ماعليك فعله ،هذا مايجب أن تفكري فيه .

قالت راشيل :

أنا مشمئزة من أن يراني أحد هنا بهذه الصورة ،ولكن هذه هي المرة الأخيرة . عندما قرأت ماكتب ياسيدتي عن ستيفن ذهبت توا الى المصرف ،حتى أقول انني أعلم أين يوجد ستيفن ولاعطاء وعد مؤكد بأنه سيكون هنا خلال يومين. لم أستطع مقابلة السيد باي أما أخوك فأبعدني عن المكان،وحاولت أن أجدك ولم يكن ذلك مستطاعا فعدت ثانية الى العمل،وعندما خرجت اليوم ليلا،هرعت لأسمع مايقال عن ستيفن،لأنني متأكدة من أنه لن يرضى بمايقال عنه ،وسوف يعود لتكذيب ذلك،ثم ذهبت ثانية للبحث عن السيد باي، ووجدته ،وقلت له كل ماأعرفه ،ولكنه لم يصدّق كلمة واحدة مما قلته ،وأحضرني الى هنا .

وافقها السيد باي على ذلك،وهو يضع يده في جيوبه ،وقبعته على رأسه ،وقال :

أنا أعرفكم وأعرف هذا الخطر من الناس قبل اليوم وأنا أعرف أنكم لاتموتون أبدا بسبب حاجتكم الى الكلام والآن أوصيك ألاتتكلمي بل عليك أن تقومي بالعمل الموكل اليك .

أجابته راشيل :

كتبت الى ستيفن بالبريد الذي أرسل بعد ظهر اليوم كما أرسلت له مرة من قبل منذ ذهابه ،وسوف يكون هنا خلال يومين في أقصى حد .

اذا سأقول لك شيئا أنت لاتعرفين أنك كنت أيضا موضع شك في هذا العمل ومكتب البريد لم ينس أيضا ،وماسوف أقوله لك أنه

لن يصل الى مكتب البريد، آية رسالة كتبت الى ستيفن فربما كنـــت مخطئة ولم تكتبي شيئا ·

قالت راشيل وهي تتطلّع نحو لويزا :

ياسيدتي بعد آسبوع من ذهابه آرسل لي رسالة وحيدة أخبرني فيها آنه آجبر على البحث عن عمل باسم مستعار ·

هنا صرخ باي :

يالهي هل غيّر اسمه؟ هذا من سوء الحظ آيضا،وهو يعد نوعـا من الشك بعدالة المحاكم،كما آظن،فكيف يكون لانسان بريء آسمـاء عدة · قالت راشيل بينما عادت الدموع الى عينيها :

ماذا ياسيدتي بحق الاله يستطيع هذا الشاب الفقير آن يفعل، فالسادة ضده آولا،والرجال ضده ثانيا، انّ كل مايريده هو العمـل بسلام،وفعل مايشعر بآنه صواب · آلا يستطيع رجل آن يملك روحـا لنفسه آو عقلا له؟ هل يجب آن يتبع هذه الجهة آو تلك، آو يصـد من دونه مثل الآرنب البري ؟

آجابتها لويزا :

بالطبع ·آنا متعاطفة معه من كل قلبي،وآتمنى آن يبرىء نفسه

آجابتها راشيل :

لاتخافي ياسيدتي،فهو متآكد من براءته ·

آجابها السيد باي :

كل التآكيد كما آعتقد،لآنك ترفضين آن تخبرينا آين هو ·

قالت راشيل :

انه لن يآتي الآ لتبرئة نفسه،وسوف يضع آمام كل من جـرح

شخصيته الطيّبة جدا. ولقد أخبرته بماحدث ضده وسوف يصل الى هنا خلال يومين في أقصى حد. أضاف السيد باي :

اذا وصل قريبا فسوف تتاح له فرصة مبكرة لتبرئة نفسه ، أما بالنسبة اليك فلايوجد لديّ شيء ضدك،فما أتيت من أجله وأخبرتني به كان صحيحا ،ولقد أعطيتك الرسائل لاثبات صحته ،وهذا نهاية الأمر. أتمنى لكم جميعا أمسية طيبة وعليّ أن أذهب الآن للتمعن أكثر في هذا الموضوع .

تحرّك توم مبتعدا عن زاويته عندما تحرّك السيد باي،وذهب معه وكانت العبارة الوحيدة التي تفوّه بها توم عندما أرادالذهاب:

لتصبح على خير ياوالدي، اضافة الى نظرةالى أخته ثم غادرالمنزل .

جلس السيد غرند صامتا عندما قالت لويزا بهدوء لراشيل :

لن تفقدي الثقة بي في أي يوم عندما تعرفينني أفضل .

أجابتها راشيل بأسلوب أفضل :

انه ضد طبيعتي ألا أثق بأحد ،ولكن عندما أفقد الثقة تماما فلن أستطيع أن أبقي أية أشياء بعيدة عن ذهني،وأستميحك عذرا في حرصي عليك،فأنا لاأفكر فيماقلته الآن،ولكن ربما سأفكر فيه مرة ثانية ،مع الشاب حول المصرف في تلك الليلة ،وبذلك يستطيع أن يشرح عند عودته ماحدث ويكون جاهزا. أجابتها راشيل :

نعم ياعزيزتي،ولكنني لاأستطيع تخمين سبب ذهابه الى هناك . فهو لم يعتد الذهاب الى هناك،لم يكن ذلك المكان من ضمن طريقه، فطريقه هي طريقي نفسها.

وقفت سيسي بجانبها تسألها: أين تسكن وان كانت ستأتي غدا

مساء للسؤال اذا كان ثمة أخبار من ستيفن. قالت راشيل :

أشك في أن يستطيع القدوم حتى اليومَ الثاني .

قالت سيسي :

اذا فسوف آتي في الليلة الثانية أيضا.

وبعد موافقة راشيل على ذلك وذهابها ،رفع السيد غرند رأسه وقال لابنته :

عزيزتي لويزا أنا لم أشاهد ذلك الرجل قط ،هل تعتقدين أنه متورط ؟

أعتقد ياوالدي أنني صدقت ذلك بصعوبة كبيرة ،ولكنني لا أعتقد ذلك الآن .

سألها :

هل يدل مظهره وأخلاقه على أنه شريف جدا ؟

أجابته لويزا :

شريف جدا .

كان شعر السيد غرند قد بدأ لونه يتغيّر فقد بدا رماديا كما بدا أنه عجوز. هرعت لويزا بخوف وشغف نحوه ،وجلست قريبا منه والتقت عيناها بعيني سيسي . احمرت سيسي خجلا،ووضعت لويزا يديها على شفتيها.

في الليلة الثانية عندما عادت سيسي الى المنزل وأخبرت لويزا أنّ ستيفن لم يأت .

أخبرتها ذلك بهمس . أما في الليلة التي تلتها أيضا فقد أخبرتها المضمون نفسه ، اضافة الى أنه لم يسمع عنه شيء ،وتكلمت باللهجة

الخائفة والمنخفضة نفسها ،ومنذ اللحظة التي تبادلتا فيها النظرات لم يذكر اسمه بصوت عال حتى انه لم يعد موضوع السرقة يذكـــــر عندما كان السيد غرند يتكلّم عليها. مضى اليومان الموعودان بـل ثلاثة أيام وثلاث ليـال مضت ولـم يعد ستيفن،ولم يسمع عنه شيء . وفي اليوم الرابع ذهبت راشيل الى المصرف وأبرزت الرسالة التـــــي أرسلها اليها مع عنوانه الموجود فيه. أرسل رسل الى ذلك المكان، وتطلعت كل البلدة الى أن يحضر ستيفن. وفي اليوم التالي في خـــلال كل ذلك الوقت كان الجرو مرافقا للسيد باي مثل ظله. وكان منفعلا جدا ويتكلّم بصوت متقطع. وفي الساعة التي كان يتوقع أن يصـــل فيها الرجل المشكوك فيه كان الجرو في المحطة ،وكان متأكدا من أنّ ستيفن لم يظهر. كان الجرو محقا فقد عاد الرسل وحدهم ولم يعرف أي مخلوق شيئا عن ستيفن. الشك الوحيد في كوك تاون كان : هـــل كتبت له راشيل كي يعود، أو لتحذره حتى يهرب وفي هذه النقطـــة كانت الآراء مختلفة. بعد أسبوع أصبح الجرو يملك جرأة وقحـــة ، وأخذ يتحدى . ترى هل الشخص المشكوك فيه هو السابق؟ سـؤال جميله واذا لم يكن هو السارق فأين هو؟ ولماذا لم يعد؟

الفصل الخامس الموجود

بضعة أيام وليال مضت ،ولم يظهر ستيفن،فلماذا لم يعد؟في كل ليلة كانت سيسي تذهب الى مسكن راشيل وتجلس معها في غرفتها النظيفة. كل نهار كانت راشيل تعمل مثل كل الناس . لم يتغيّـــر

شيء من روتين العمل مهما حدث حتى الأيام والليالي أيضا ،علاوة على أنّ اختفاء ستيفن أصبح موضوعا عاما مثله مثل أية آلة في كوك تاون. قالت راشيل :

أنا أشك في أن يكون هناك عشرون شخصا في كل هذا المكان يثقون بالشاب المسكين الآن .

كانت تتحدث مع سيسي وهما جالستان في غرفتها المضاءة بشمعة واحدة ،كانت سيسي قد قدمت في الظلام بانتظار عودة راشيل من العمل حيث جلستا قرب النافذة من دون حاجة الى ضوء أقوى يضيء حديثهما الحزين. تابعت راشيل قولها :

انّ تحدثي معك هو رحمة لي،فأنا أتزوّد بالأمل والقوة منك ، وأنت تعلمين أنه على الرغم من أنّ المظاهر كلها ضده ،الاّ أنه سوف يثبت براءته .

أجابتها سيسي :

أنا أؤمن بذلك من كل قلبي،وأنا أشعر أنّ الثقة التي تملكينها جعلتني غير قادرة على أن أشك فيه وكأنني أعرفه منذ سنوات ،كما تعرفينه أنت .

قالت راشيل والرعشة في صوتها :

أنا ياعزيزتي أعرفه في خلال تلك السنوات ،أنه مؤمن بكل ماهو جيد وشريف ،والله يعلم أنني حتى آخر نفس من حياتي لن أفقد الثقة بستيفن .

قالت سيسي :

نحن كلنا في(لودج) نؤمن أنه سينال البراءة عاجلا أوآجلا .

قالت راشيل :

عندما أفكر في أنك تأتين الى هنا لمشاهدتي ومرافقتي وجعلي أحس بالطمأنينة، على الرغم من أنني في مجال الشك أشعر بحزن أكبر لأنني تكلمت كلاما يخلو من الثقة مع السيدة الشابة .

سألتها سيسي :

أنت لم تعودي شاكة فيها ياراشيل الآن .

أجابتها : الآن وبعد أن قربت بيننا أكثر، كلا . ولكن لا أستطيع في كل الأوقات أن أزيح الفكرة من ذهني، وكان صوتها قد انخفض كثيرا فأصرّت سيسي على أن تسمعها باهتمام كلي .

تابعت راشيل :

أنا لا أستطيع في كل الأوقات أن أزيح من ذهني عدم الثقة بشخص ما لا أستطيع أن أفكر من هو، وكيف، ولماذا حدث ذلك؟ ولكنني متأكدة من أنّ أحدا ما قد أبعده عن الطريق حتى لاينكشف .

أجابتها سيسي وهي شاحبة :

هذه فكرة مخيفة .

قالت راشيل :

انها فكرة مخيفة أن أفكر في أنه قد قتل .

ارتبكت سيسي وشحب لونها أكثر فقالت راشيل :

عندما تخطر لي هذه الفكرة وهي تأتي أحيانا، على الرغم من أنني أفعل المستحيل لابعادها، فأمشي كثيرا مسرعة أميالا وأميالا، فلذا سأمشي معك الآن الى المنزل . قالت سيسي :

ربما مرض في طريق العودة، وفي هذه الحال ثمة أماكن عدة

للتوقف على الطريق .

أجابتها راشيل :

ولكنه سئل عنه هناك ولم يكن موجودا. وتابعت :

لقد أرسلت له مالا كي يحضر راكبا، اذا مالم يكن يحمل نقودا.

أجابتها سيسي :

دعينا نأمل أن يكون الغد أفضل يا راشيل،تعالي الى الهواء الطلق .

خرجتا معا وكان الطقس جميلا وبعض العمال يتمشون في زاوية الشارع،ولكن عددهم كان قليلا، اذ انّ الوقت كان عشاء .

قالت لها سيسي :

لست مستعجلة الآن يا راشيل،ولقد بردت يدك .

أجابتها :

لقد تحسّنت الآن ياعزيزتي لو أستطيع فقط المشي قليلا واستنشاق الهواء النقي، اذ انني عندما لاأستطيع المشي أشعر بالاضطراب والضعف .

قالت لها سيسي :

ولكن يجب ألاّ تضعفي يا راشيل لأنه في أي وقت يحتمل أن تطلبي للوقوف مع ستيفن. غدا هو السبت ،واذا لم تأت أخبار فدعينا نذهب الى البلدة صباح الأحد،هل تذهبين ؟

نعم ياعزيزتي .

كانتا في ذلك الوقت في الشارع الذي يقع فيه منزل السيدباي،

وكان ثمة قطار قد وصل حالا الى البلدة فرأتا السيدة سبارست تحاول فتح الباب ،ولمّا رأتهما طلبت اليهما الوقوف •

قالت السيدة سبارست انها لمصادفة ،ثم تابعت :

اخرجي ياسيدتي وكانت تكلّم آحدا ما في داخل العربة •

هنا خرجت المرأة العجوز الغامضة • صرخت السيدة سبارست بصوت عال اتركاها فلاأحد يلمسها ، انها لي،تعالي ياسيدتي،تعالي والآ فسوف نجرّك جرّا •

دخلت سيسي وراشيل والسيدة سبارست والمرأة الغامضة الى غرفة الجلوس في منزل السيد باي• قالت السيدة سبارست دعا السيد باي يأت الى هنا ،وأنت ياراشيل هل تعرفين من تكون هذه المرأة العجوز؟

أجابت راشيل :

انها السيدة بقلر •

أجابت السيدة سبارست بابتهاج :

كنت آعتقد ذلك، أحضرا السيد باي وليبتعد الجميع من هنا •

تمتمت العجوز بضع كلمات •

فقالت السيدة سبارست بصوت مرتفع :

قلت لك عشرين مرة اني لن أتركك حتىأسلّمك له شخصيا •

حضر الآن السيد باي بصحبة السيد غرند والجرو وقد كانوا مجتمعين في الطابق العلوي • بدت الدهشة أكثر من الترحيب على السيد باي اثر رؤية هذه المجموعة غير المدعوة في غرفة الجلوس، فقال :

والآن ماالموضوع ياسيدة سبارست ؟

أجابته :

سيدي من حسن حظي أني سأقدم لك شخصيا شخصا رغبت كثيرا في ايجاده ،وحرصا مني على راحتك نجحت في احضار هذا الشخص معي بعد تعرّضي لبعض الصعاب ،ولكن الصعاب من أجل خدمتك تعد متعة بالنسبة اليّ .

أجابها :

ماذا تعنين بذلك ياسيدة سبارست ؟

أجابته :

سيدي .

زمجر قائلا :

لماذا لاتهتمين بأمورك الخاصة فقط ،كيف تجرئين على أن تضعي أنفك في شؤوننا العائلية ؟

هنا جلست السيدة سبارست وكأنها مجمدة على الكرسي وهي تنظر بقوة الى باي .

صاحت السيدة بفلر وهي ترتجف : ولدي الحبيب لاتلمني، انها ليست غلطتي،فلقد قلت لهذه السيدة مرات عدة انّ ماتفعله لن يسرّك ،ولكنها فعلت ذلك .

سألها باي :

لماذا سمحت لها باحضارك ؟ ألم تستطيعي أن تضربيها أو أن تفعلي أي شيء آخر لها .

قالت له :

ياولدي لقد هددتني بأنه اذا لم أحضر فسوف تحضرني بالقوة.

وكانت السيدة بفلر تنظر بضجر نحو الجدران ثم قالت :

يابني العزيز عشت دائما بهدوء وسرية ،ولم أكسر الشرط مرة واحدة ،لم أقل قط اني والدتك،فقد كنت معجبة بك عن بعد،واذا كنت أحضر الى البلدة من وقت الى آخر فلأختلس نظرة اعجاب اليك ، كنت أفعل ذلك من دون أن يعرفني أحد ياحبي ثم لاألبث أن أذهب ثانية .

كان السيد باي يتمشى في الغرفة بعصبية ويده في جيبه عندما خاطب السيد غرند العجوز بقوله :

أنا أعجب ياسيدة من كونك تنادين السيد باي بياولدي وهو وأنت في سنّكما ،ولاسيما بعد المعاملة غير الانسانية وغير الطبيعية التي عاملته بها .

صرخت العجوز :

أنا غير طبيعية وغير انسانية تجاه ولدي الحبيب ؟

أجابها غرند :

نعم ياسيدتي فعندما هجرته وهو طفل لترعاه جدة سكيرة .

أجابت العجوز: أنا هجرت ولدي،فليسامحك الله ياسيدي على تحليلاتك الشريرة ،وعلى نذالتك حول ذكرى أمي العجوز التي توفيت بين يدي قبل ولادة جوزيه .

كانت تتكلم بجدية وبحزن،حتى انّ السيد غرند صدم ،وقال بلهجة أرق :

هل تنكرين اذا ياسيدتي أنك تركت ابنك لينشأ في حفرة ؟

أجابته :

جوزيه في حفرة ،لاشيء من هذا .

صحيح ياسيدي فابني الحبيب يعلم وسوف يعلمك أنه ،على الرغم من أنه نشأ في عائلة متواضعة ،ولكنها عائلة أحبته بقدر ما تستطيع ،وأنه بعد أن توفي والده ،وهو في الثامنة من العمر،ساعدته والدته لأنّ ذلك كان واجبها ،وكانت تجد متعة وفخرا في ذلك ، وجعلته شابا قويا ،ولقد شق طريقه بنفسه حتى أصبح غنياوناجحا، وسوف أدعك ياسيدي تعلم أنّ ابني،على الرغم من أنّ والدته كانت تعمل في دكان صغير يخصها في القرية ، الاّ أنه لم ينسها قط ،بل كان يرسل اليّ ثلاثين باوندا سنويا أكثر مماكنت أحتاج اليه . اذ كنت أقتصد منه ،وكان شرطه الوحيد أن أبقى بعيدة ،وألاّ أقوم بأية مباهاة به وألاّ أزعجه . وهذا ماحدث بالفعل فأنا لم أزعجه قط ، بل كنت فقط أختلس النظر اليه ،وأنا أشك في أنني اذا بقيت هنا فسوف أقوم بكثير من الأشياء غير الملائمة ،وأنا مسرورة بهذا الوضع ،وأستطيع أن أفتخر بابني جوزيه بيني وبين نفسي،وأستطيع أن أحب لأجل الحب فقط ،وأنا خجلة منك ياسيدي بسبب شكوكك وافتراءاتك .

هذا ماقالته أخيرا السيدة بفلر،ثم تابعت :وأنا لم أقف هنا من قبل ولاأريد أن أقف هنا عندما يرفض ابني الحبيب ذلك ، وأنا لم أكن لأكون هنا الآن لو لم أحضر من دون ارادتي. ومن العار أن تتهمني بأنني كنت أما سيئة لابني،الذي يقف الآن هنا وسوف يبرهن لك خلاف ذلك .

وقف الحاضرون في غرفة الجلوس وهم يتمتمون بشفقة مع السيدة

بفلر وشعر السيد غرند أنه قد وضع نفسه في موضع حرج،بينما قال السيد باي الذي لم يتوقف عن الذهاب والمجيء في الغرفة وقد تلوّن وجهه وأصبح أكثر امتقاعا :

أنا لا أعرف تماما كيف حدث هذا التجمّع في منزلي،ولكنني لست ملزما بأن ألقي محاضرة حول شؤوني العائلية ،ولا أنوى فعل ذلك،لذا فمن يتوقع أن يسمع شرحا مني حول هذا الفرع في الموضوع فسوف يصاب بخيبة أمل،ولاسيما توم غراد غرند. أما بالنسبة الى سرقة المصرف فهناك خطأ ارتكب ،وهذا الخطأ مرتبط بموضوع الشك في أمي. ولو لم يكن هناك أمور فوق العادة لما كان قد حدث ما حدث . وأنا أكره هذا النوع من الفضول ،لتصبحوا على خير .

وعلى الرغم من أنّ السيد باي قد أخذ الأمور بهذه الطريقة ، وهو يفتح الباب من أجل أن يغادر جميع الحاضرين،كان هناك نوع من الخجل يلفه ،وبدا عليه نوع من الذل،وكأنه قد بنى سمعته على الأكاذيب ، أما تفاخره فقد جعل الحقيقة بعيدة عنه بعدا كبيرا. حتى انّ المرأة غير المحظوظة السيدة سبارست التي سقطت من برج اعتزازها الى حافة اليأس لم تكن في حالة سيئة مثل سوء حالة السيد باي من كوك تاون.

غادرت راشيل وسيسي المنزل بعد أن تركتا السيدة بفلر لتنام في منزل ابنها تلك الليلة ،وقد تمشتا معا حتى مدخل ستون لودج حيث افترقتا . ولقد مشى معهما السيد غرند وهو يتحدّث باهتمام كبير عن ستيفن بلاك بول .

أما الجرو توم الشاب فكان دائم التقرّب من السيد باي،وكان

يشعر أنه في أمان مادام باي غير مستطيع اكتشاف أي شيء،ولم يعد،من ثم،يزور شقيقته قط ،وقد رآها مرة واحدة منذ ذهابها الى المنزل .

كان ثمة خوف قائم يعيش في تفكير شقيقته لويزا ،وهي لم تصرّح بهذا الخوف قط ،وهو الخوف المتعلّق بأخيها الذي يلفه الغموض. فقد كانت تشك في أنّ توم هو الذي سرق المصرف ،وهذا الاحتمال القائم بدا لسيسي أيضا في هذا اليوم،عندما تكلمت راشيل على شخص ما سوف يلحق الضرر بعودة ستيفن،ولذا فقد أزاحه من الطريق. لم تتكلم لويزا على اشارة أي شك حول موضوع أخيها وارتباطه بالسرقة ،ولم تتكلم صراحة هي وسيسي حول هذا الموضوع،بل انّ كل مافي الأمر هو أنهما تبادلتا نظرات عندما كان السيد غرند يتساءل عن السارق الحقيقي،وهذه النظرات كانت تدين توم ولكن من دون كلام. لقد فهمتا ذلك معا ليلة أخرى ويوما آخر،ولم يظهر ستيفن بلاكبول فأين الرجل ؟ ولماذا لم يعد؟

الفصل السادس نور النجم

كان هذا الأحد يوما مشرقا من الخريف . كان باردا عندما التقت سيسي وراشيل لتتمشيا معا في البلدة. مشتا بعيدا عن الدخان المنتشر في البلدة ووصلتا الى المحطة وهي نقطة وسطى بين البلدة واستراحة السيد باي. وعلى الرغم من أنّ أماكن كثيرة من الأرض ،كانت مليئة بأكوام من الفحم فقد كان هناك بقع خضر

أخرى ،وكانت الأشجار موجودة،والعصافير تغرّد،وكان هناك نسمات لطيفة من الهواء،والسماء صافية زرقاء،وكل شيء كان ساكنا ،والجو كان جميلا ومنعشا . كانت الفتاتان تمشيان عبر الحقول،وكانت أشعة الشمس مرتفعة . جلستا للراحة ولم تريا أحدا مدة طويلة ولم يخرق عزلتهما أحد .

قالت سيسي :

المكان هادئ جدا ياراشيل،والطريق يبدو وكأننا أول من يسلكه هذا الصيف .

ثم تابعت سيسي حديثها قائلة :

آه ياراشيل هنا وقع أقدام أيضا .

وركضت ووضعت يديها حول عنق راشيل فقالت راشيل :

ماالموضوع ؟

أجابتها سيسي :

لاأدري ،هناك قبعة ملقاة على العشب رجعتا معا . أخذت راشيل القبعة ثم بدأت تبكي وتنوح،فاسم ستيفن بلاك بول كان مكتوبا بخط يده على القبعة من الداخل .

الشاب المسكين،الشاب المسكين،لقد قتل هنا ، استفسرت سيسي قائلة: هل يوجد دماء على القبعة ؟ كانت الفتاتان تخافان من النظر الى القبعة ،ولكن وبعد فحصهما اياها لم تجدا أي أثر للعنف داخلها أو خارجها . كانت موضوعة هناك طوال أيام عدة لأنّ المطر والغبار مازالا عليها . نظرتا بخوف حولهما من دون حركة ،ولكنهما لم تريا أي شيء .

قالت سيسي :

راشيل سوف أمشي قليلا وحدي .

كانت تهم بالتقدم عندما أمسكتها راشيل بيديها الاثنتين وهي تصرخ،فأمامهما وعند قدميهما كان هناك حفرة مغطاة بعشب كثيف ،تراجعتا ،ووقفتا على ركبتيهما ،وكل واحدة تخبىء وجهها وراء رقبة الأخرى .

صرخت راشيل قائلة :

يا الهي،يا الهي انه هنا في الأسفل وأخذت تصرخ،ولم تستطع سيسي اسكاتها بأية طريقة ،وكان عليها أن تمسك بها بقوة حتى لاتقع في الحفرة . عزيزتي راشيل،راشيل بحق الاله فكري في ستيفن فكري فيه . وفي الأخير وبعد أن كررت عبارات كثيرة استطاعت سيسي أن تهدئها .

قالت لها راشيل :

ربما مايزال ستيفن على قيد الحياة . فأنت لن تتركيه ممددا ولو للحظة واحدة في هذه الحفرة اذا استطعت احضار نجدة له .

أجابتها راشيل :

كلا ،كلا ،كلا .

لاتتحركي من هنا من أجله . دعيني أذهب وأسمع ، اقتربت من الحفرة وصرخت بأعلى صوتها وهي تناديه ولكن أحدا لم يجب ، صرخت مرة ثانية وانتظرت ولم تسمع أي جواب . فعلت ذلك عشرين مرة أو ثلاثين،وأخذت حجرا صغيرا وألقته في الحفرة ،ولم تسمع سقوط الحجر. وقفت سيسي واليأس يملأ قلبها الشجاع ،وتطلعت حولها

ولمّا لم تر أحدا يساعدها قالت لراشيل :

يجب ألا نضيع دقيقة واحدة . يجب أن نذهب في اتجاهين مختلفين لطلب النجدة . سوف تذهبين في الطريق الذي آتينا منه ، وأنا سأذهب في الطرف الثاني، آخبري كل من ترينه بماحدث . فكري في ستيفن فكري في ستيفن .

نظرت سيسي الى وجه راشيل وأيقنت أنها تستطيع الاتكال عليها الآن، وبعد أن توقفت لحظات حتى تراها وهي تركض . استدارت وركضت كما لم تركض من قبل .

اركضي ياسيسي . اركضي بحق الاله لاتتوقفي ولو لأخذ النفس ، وكانت تقوّي نفسها وهي تفكّر تفكيرا طويلا في عدد من الأفكار .

كانت تركض من حقل الى آخر، ومن مكان الى سواه ، كما لم تركض كذلك من قبل حتى وصلت الى مأوى فيه محرّكات ، وكان ثمة رجلان يستلقيان طلبا للراحة .

فكرت أولا في ايقاظهما ، ثم باخبارهما مارأته ، كانت تتحدث وهي تلهث ، كانت أعصابهما على نار مثلها تماما . وكان أحد الرجلين قد شرب وهو سكران، ولمّا سمع أنّ رجلا قد وقع في الحفرة غطس رأسه بماء وسخ، وعاد وهو صاح، ركضت سيسي مع الرجلين ثم وجدا رجلا على حصان فذهب معهم لمساعدتهم من آجل حياة انسان أو موته ، وأرسلت رسالة الى لويزا مع الرجل صاحب الحصان، وفي هذه الأثناء كانت قرية كاملة على آتم أهبة للمساعدة ، وقد خرج رجالها وهم يحملون شموعا ومصابيح وحبالا وكل ماهو ضروري، وتجمعوا جميعا من آجل الذهاب الى مكان الحفرة القديم ، كانت قد مرّت ساعات

وساعات ،منذ أن تركت الرجل وهو مدفون حيّا في الحفرة ،ولم تعد تتحمّل أن تتركه أكثر من ذلك،وعادت مسرعة يصحبها نصف دزينة من العمال،ومن ضمنهم الرجل السكير الذي كانت الأنباء قد جعلته يصحو،وكان أفضل الجميع .

ولمّا وصلوا الى مكان الحفرة وجدوها بالوضع الذي تركتهاعليه. نادى الرجال في الحفرة واستمعوا كما فعلت تماما،وفحصوا حافة الحفرة ثم جلسوا بانتظار قدوم الآلات التي يريدونها من أجل البدء بالعمل على انتشال ستيفن من الحفرة .

كان صوت أية حشرة في الجو يحرّك أوراق الأشجار،وكل همسة بين الرجال كانت تؤدي الى ارتجاف سيسي،لأنها كانت تعتقد أنها تسمع صراخا منبعثا من قاع الحفرة ،ولكن الرياح كانت تصفر،ولم يصل أي صوت من الحفرة الى السطح.جلس الرجال على العشب ينتظرون وينتظرون،وبعد أن انتظروا بعض الوقت بدأت مجموعات من الناس التي سمعت نبأ الحادث تتوافد،ثم وصلت الآلات لتقديم المساعدة الحقيقية ،وفي وسط كل ذلك عادت راشيل،وكان برفقتها طبيب جرّاح، أحضر معه بعض الأدوية والخمر،ولكن التوقع في أن يكون الرجل مازال على قيد الحياة كان ضعيفا جدا.

كان هناك الآن عدد كاف من الناس ،للبدء بالعمل،والرجل الذي كان سكيرا وضع نفسه على رأس العمال،ووضع بموافقة من الجميع ، وكان أن صنع حلقة حول الحفرة ،والي جانب المتطوعين للعمل سمح في البداية لسيسي وراشيل بالوجود في هذه الحلقة ،ولكن بعد ذلك وفي خلال النهار،حضر السيد غرند ولويزا والسيد باوندر باي والجرو .

جلست سيسي وراشيل على العشب ،بينما نزل رجلان في الحفرة وهما مربوطان بالحبال وأصبحت الساعة الخامسة بعد الظهر في ذلك اليوم الخريفي،وتمّ ارسال شمعة لمعرفة مدى وجود الهواء في هذه الحفرة ،بينما وقف ثلاثة رجال أو أربعة يراقبون مايجري،وبعد أن شدّ الحبل الى أعلى وقف ماشتا الرجل والمرأة الذين كانوا يراقبون مايجري،بينما كانت تنفذ الطريقة التي تمّ بها انتشال جسم الرجل من الحفرة ،وبعد أن تمّ انزال المنقذ بدت هناك صيحة عامة ،هل هو ميت أو حي،وعندما صاح الرجل الذي كان سكيرا: انه حي،صدرت صرخة كبيرة جماعية ،وقد امتلأ الكثير من العيون بالدموع ، وأضاف الرجل الذي كان سكيرا: ولكنه مجروح جرحا كبيرا. أين الطبيب ؟ انه مصاب بجروح خطيرة ونحن لانعلم كيف سنعالجه .تشاور الجميع ،وتطلّعوا بقلق نحو الطبيب . عندما سئل بعض الأسئلة ،وأخذ يهز برأسه عندما تلقى الأجوبة ،كانت الشمس تغرب . انتهت المشاورات بأنْ عاد الرجل الى أسفل الحفرة وهو يحمل بعض الخمر وبعض الأشياء الأخرى الصغيرة معه . وتمت تعليمات الطبيب ، أحضر بعض الرجال حاجزا من العيدان وصنع الآخرون فراشا سميكا من الثياب وحمل الطبيب بعض الضمادات من المناشف والمحارم. وعاود الرجل النزول بعد أن زوّد بالتعليمات حول ماسيفعله ،وكان الظلام قد بدأ يخيّم على المنطقة .

أبلغهم الرجل أنّ ستيفن قد سقط على نفايات عبئت فيها الحفرة ،وأنّ السقطة كانت قوية وأنه مستلق على ظهره واحدى يديه معقوفة تحته حيث مازال ثابتا في مكانه ،أما يده الثانية فقد

حرّكها بعد أن تذكّر وجود بعض الخبز واللحم في جيبه ليلتهمهما.

كان ستيفن قد حضر توا بعد أن كتبت له راشيل، ومشى طوال الرحلة وكان في طريقه الى منزل السيد باي عندما سقط في الحفرة عندما كان يعبر هذه القرية الخطيرة في هذا الوقت الخطير. لقد كان بريئا من التهمة التي وجهت اليه، ولم يستطع أن يرتاح حتى يأتي ويبرئ نفسه. قال الرجل الذي نزل الى قلب الحفرة :

انه وبالرغم من أنّ ستيفن يستطيع التحدّث الآن الا أنه سوف يموت قريبا لأنّ اصابته خطيرة .

عندما أصبح كل شيء جاهزا الى هذا الحد، فانّ الرجل مازال يأخذ تعليماته من رفاقه ومن الطبيب، وبعد أن بدأت الرافعة بانزاله اختفى في الحفرة ومدّ الحبل. كان الجميع قد وقفوا ينتظرون، وبعد مدة أعطيت لهم الاشارة، وبدأ الرجال بالرفع حيث بدا لهم خيال شخص فقير محطّم يمسك بالحبل اضافة الى الرجل الآخر الذي نزل لانقاذه .

سرت تمتمة خفيفة مليئة بالشفقة، وبكت النساء بصوت عال، عندما تمّ نقله بهدوء تام ومدد على الفراش . في البداية لم يقترب منه أحد سوى الطبيب وحاول قدر الامكان مساعدته، ثم نادى راشيل وسيسي، وفي ذلك الوقت كان وجه ستيفن الشاحب ـ الواهن ـ ينظر الى السماء أما يده اليمنى المكسورة فكانت مستلقية عارية خارج الغطاء .

أعطوه شرابا ومسحوا وجهه بالماء، وعلى الرغم من أنه كان مستلقيا من دون حراك وهو ينظر الى السماء الا أنه تبسم وصاح :

راشيل .

جلست راشيل على العشب بقربه ،وانحنت عليه ،حتى أصبحت عيناها بينه وبين السماء

حبيبتي راشيل .

آخذت يده . ضحك ثانية وقال :

لاتذهبي .

سألته :

هل تشعر بألم كبير ياحبيبي ستيفن ؟

أجابها :

كنت متألما ،أما الآن فلا. آه ياراشيل انّ هذا لتشويش منذ البداية حتى النهاية .

تشويش ؟

بدا طيف نظرته القديمة يقول هذه الكلمات . تابع قوله :

لقد وقعت ياحبيبتي في الحفرة . قال ذلك من دون أن يغضب من أحد،وتابع حديثه الموجّه الى راشيل قائلا :

أختك الصغيرة باراشيل لم تنسيها أليس كذلك ؟ عليك ألاّتنسيها وأنا الآن قريب منها جدا. فأنت تعلمين كم يعاني المريض ،وكيف عملت من أجلها ،وكيف كانت تجلس طوال اليوم على كرسيها ،قرب النافذة وكيف ماتت وهي شابة صغيرة . آه ياللتشويش بالتشويش .

اقتربت لويزا منه ،ولكنه لم يستطع رؤيتها ، اذ كان ممددا ووجهه نحو السماء .

تابع حديثه الموجّه الى راشيل قائلا :

لو لم يكن كل الأمر مشوّشا لما كنّا محتاجين الى أن نأتي الى هنا. لو عرفني السيد باي معرفة صحيحة لما كان اتهمني بالسرقة، سرقة المصرف ولم يكن ليشك فيّ، ولكن انظري الى أعلى ياراشيل انظري.

تابعت راشيل نظرات عينيه فرأت أنه يحدّق في نجم في السماء.

وتابع حديثه :

انه يشع فوقي والألم والصعاب موجودة في الأسفل لقد أضاء في عقلي وأنا أفكّر فيك ياراشيل حتى لقد زال التشويش من ذهني. عندما استلمت رسالتك اعتقدت أنّ السيدة الشابة لويزا وأخاها قد أساءا اليّ معا، وأنّ هناك خطة قذرة بينهما. وعندما سقطت في الحفرة غضبت منها جدا، وتسرّعت، وكنت غير عادل معها، مثلما كان الآخرون غير عادلين معي. ولكن وفي خلال حكمنا على الناس، كما في أعمالنا، يجب أن نتحمّل وأن نصبر. وفي خلال ألمي صرت أرى بوضوح أكثر، وجعلت صلاة موتي أنّ على العالم كله أن يحتمل أكثر، ويفهم بعضه بعضا فهما أفضل.

بعد أن سمعت لويزا ماقاله، انحنت صوبه بالاتجاه المقابل لراشيل، حتى يستطيع رؤيتها. قال لها ستيفن بعد بضع دقائق صمت :

هل سمعت ؟ أنا لم أنسك ياسيدتي.

أجابته لويزا :

نعم ياستيفن سمعتك وصلاتك هي صلاتي نفسها.

قال لها :

أنت لك أب فهل توصلين هذه الرسالة ؟

أجابته لويزا :

انه هنا هل أحضره لك اذا أحببت ؟

عادت لويزا برفقة والدها ،وهي تقف ويدها في يده ويتطلعان الى معالم وجهه الحزينة .

قال ستيفن للسيد غرند :

ياسيدي سوف تبرئني وتجعل اسمي نظيفا بين الرجال . هذه المهمة سوف أتركها لك .

اضطرب السيد غرند وسأله :

كيف ؟

أجابه :

سيدي،سوف يخبرك أبنك كيف ؟ اسأله ،لن أقدم أية شكوى ، لن أترك أية كلمة . لقد رأيت ابنك،وتحدثت معه مرة واحدة فقط ، وأنا لا أطلب اليك سوى أن تبرئني وأنا أثق في أنك ستفعل ذلك .

استعد الحمالون لحمل ستيفن، أما الطبيب فكان قلقا ازاء نقله من مكان الى آخر،واستعد حاملو المصابيح للسير أمام الحشد وقبل آخذه ،قال ستيفن لراشيل وهو ينظر الى النجم : وأنا عندما أعود الى نفسي،وأرى النجم يشع عليّ من خلال الصعاب ،أفكر دائما في أنه النجم الذي يرشدنا الى موئل الخلاص . أعتقد أنه النجم نفسه الذي يشع الآن .

حملوه ،ففرح لأنهم يأخذونه في الاتجاه نفسه الذي يبدو أنّ

راشيل ياحبي لاتتركي يدي،ربما استطعنا أن نمشي معاالليلة ياحبيبتي .

أجابته :

سوف أمسك بيدك،وأبقى قريبة منك ياستيفن طوال الطريق .

فليباركك الله ،ثم حملوه برفق عبر الحقول وعبر الأرض الواسعة ، وكانت راشيل دائما تمسك بيده . همسات قليلة كانت تعكّر الهدوء الحزين،وكان موكب الجنازة بعد قليل. واذ ماتوفي ستيفن فقد دله النجم أين يستطيع ايجاد اله الفقراء ،وعبر الحزن والغفران ذهب الى راحته الأبدية .

الفصل السابع اصطياد الجرو

قبل أن ينفض الحشد من حول الحفرة ، اختفى شخص واحد من المجموعة ،لم يكن السيد باي وظلّه الجرو قرب لويزا ووالدها ،بل وقفا على الحياد عندما دعي السيد غرند الى المجموعة ،وقد كانت سيسي المتبرّمة لكل مايحدث قد ذهبت خلف ذلك الظل الحقيروالوغد ، وكان هناك خوف على وجهه وهمسة في أذنه ،ومن دون أن يدير وجهه تحدّث معها بضع دقائق ثم اختفى. اذن فقد اختفى الجرو من المجموعة قبل أن ينفض الناس .

عندما وصل الأب الى المنزل،بعث برسالة الى السيد باي،وهو يتمنى أن يحضر ابنه اليه فورا ،وجاءه الجواب لقد فقد السيد باي

ابنه بالحشد،ولم يره منذ ذلك الوقت وكان يتوقع وجوده في ستون لودج .

قالت لويزا :

أنا أعتقد ياوالدي أنه لن يعود الى البلدة هذه الليلة .

هنا تراجع السيد غرند ولم يقل أي شيء .

في الصباح ذهب السيد غرند نفسه الى المصرف عندما فتح،ولمّا رأى مكان ابنه فارغا ولم تكن لديه الشجاعة منذ البدء للتطلّع الى الداخل،عاد أدراجه لمقابلة السيد باي،حيث قال له :

انه وبسبب ظروف سوف يشرحها لاحقا،مضطر أن يرسل ابنه للعمل في مكان بعيد مدة قصيرة . وانه قد قطع وعدا على نفسه بالدفاع عن ستيفن بلاك بول والوصول الى السارق الحقيقي للمصرف . وبعد أن تركه السيد غرند بقي السيد باي واقفا مشدوها في الشارع،وهو منتفخ مثل فقاعات الصابون الكثيرة ولكن من دون جمال .

وذهب السيد غرند الى منزله وسجن نفسه في غرفته وبقي فيها طوال النهار. وعندما دقت سيسي ولويزا بابه قال من دون أن يفتح الباب :

ليس الآن يا أحبائي،بل في المساء.

وعندما رجعتا مساء قال لهما :

لست مستعدا حتى الآن اتركماني الى وقت آخر .

ولم يأمل شيئا طوال النهار،ولم يطلب شمعة بعد الظلام،لقد سمعتاه يمشي ذهابا وايابا حتى ساعة متأخرة من الليل .

ولكنه ظهر في الصباح على الفطور في الساعة المحددة،وأخذ

مكانه المعتاد على الطاولة ،بدا عليه الكبر والانحناء،ولكن بدا عليه أيضا أنه أصبح أكثر وعيا،ورجلا أفضل مماكان عليه عندما كان يريد في حياته الحقائق فقط . وقبل أن يغادر الغرفة حدّد وقتا لهما للقدوم اليه ،وذهب ورأسه الشائب منحن قليلا .

قالت لويزا عندما اجتمعت مع أبيها في الموعد المحدد :

والدي الحبيب ،مازال عندك ثلاثة أطفال،وسوف يكونون مختلفين وسوف أتغيّر ياوالدي بمساعدة من السماء،وأعطت لويزا يدها الى سيسي وكأنها تعني مساعدتها أيضا.

قال السيد غرند للويزا :

أخوك التعس ،هل تعتقدين أنه قد خطط لهذه السرقة عندما ذهب معك الى منزل ستيفن ؟

أخشى ذلك ياوالدي. فأنا أعلم أنه كان يريد المال كثيرا وأنه قد أنفق الكثير.

قال والدها :

والرجل الفقير ستيفن كان على وشك مغادرة البلدة ،فخطر على ذهن توم الشرير أن يثير الشبهات حوله ؟

أجابته لويزا :

أعتقد أنه قد فكّر في ذلك ياوالدي عندما ذهبنا معا الى ستيفن،بعد أن طلبت اليه أن يذهب معي،والزيارة لم تفلح معه .

سألها والدها :

هل تحدّث مع هذا المسكين على انفراد ؟

أجابته :

لقد أخذه الى خارج الغرفة ،وقد سألته بعد ذلك لماذا فعل هذا ،وقدم لي عذرا مقبولا ،ولكن منذ الليلة الماضية ياوالدي، وعندما أتذكر الظروف التي مرّت ينتابني خوف في أن أتخيّل حقيقة ماجرى بينهما.

قال لها والدها :

دعيني أعلم اذا ماكانت أفكارك تضع أخاك المذنب في الصورة القاتمة نفسها التي أضعه فيها.

أجابته لويزا وهي ترتعد: أخشى ياوالدي أنه يكون قد قدم بعض العروض لستيفن بلاك بول يمكنها أن تكون باسمي وربما باسمه والتي يمكنها أيضا أن تكون قد جعلته يقوم بايمان وشرف، بمالم يفعله من قبل في الانتظار أمام المصرف مدة يومين أو ثلاثة قبل مغادرته البلدة .

أجابها والدها :

هذا وضيع جدا، انه تصرّف وضيع جدا.

وغطى وجهه وبقي صامتا بضع دقائق،وبعد أن استرد أنفاسه قال : والآن كيف سنجده ؟ كيف سننقذه من العدالة ؟ كيف نستطيع ايجاده فقط ؟ عشرة آلاف باوند لي تحدث مفعولا ؟

أجابته لويزا :

سيسي قد أحدثت مفعولا ياوالدي .

رفع عينيه الى حيث تقف كحورية جميلة في منزله ،وقال بلهجة امتنان وشكر: دائما أنت ياطفلتي .

أوضحت سيسي وهي تنظر الى لويزا قائلة :

كانت لنا مخاوفنا قبل البارحة ،وعندما رأيتك البارحة وقد أحضرت الى جانب النقالة وسمعت ماحدث لأنني كنت قرب راشيل طوال الوقت ذهبت اليه ، أي الى الجرو توم ،حيث لم يرني أحد ،وقلت له :

لاتنظر اليّ . انظر الى حيث والدك . اهرب حالا من أجله ومن أجلك . كان يرتجف قبل أن أهمس له بذلك،ثم أخذ يرتجف أكثر وهو يقول :

أين يمكنني أن أذهب ؟ لديّ القليل من المال،ولا أعرف من سيخبئني ؟ هنا فكّرت في السيرك القديم الذي كان يعمل به والدي . فأنا لم أنس الى أين يذهب السيد سليري في مثل هذا الوقت من السنة . وكنت قد قرأت حول سيركه منذ يوم في الصحيفة . أخبرته أن يسرع الى هناك،وأن يخبرهم باسمه ،وأن يطلب من السيد سليري أن يخبئه حتى آتي . وقال لي: انه سيصل اليه قبل الصباح،ورأيته يتسلل من ضمن المجموعة . هنا قال الأب :

وربما نستطيع ارساله الى الخارج .

كانت البلدة التي دلّت سيسي توم عليها تبعد حوالي ثلاث ساعات عن ليفربول،ولكن الحذر كان واجبا في خلال الاتصال به ، لأنّ الخطر صار أكبر بعد أن أصبح توم في موضع الشك،وكان الخوف من السيد باي من أن يتهوّر في أية لحظة فيوءذيه ويبلّغ عنه .

لذا تمّ الاتفاق على أن تذهب سيسي ولويزا وحدهما اليه، بينما سوف يذهب الوالد التعس في الاتجاه المعاكس ،وسوف يسلك طريقا أطول من أجل الوصول اليهم ،وأنّ عليه ألّا يكشف عن نفسه للسيد سليري،حتى لايشكّوا في أمره ولئلا يهرب ولده ،ولكن الاتصال

يجب أن يتم بوساطة سيسي ولويزا .

وعندما تمّ فهم ذلك جيدا لدى الثلاثة سيسي ولويزا والأب بدأ وقت التنفيذ .

بعد الظهر ذهب السيد غرند من منزله مباشرة الى البلدة،لأخذ الخط الذي سيسلكه خلال سفره ،وفي الليل بدأت البنتان جولتهما ، وكان يشجعهما أنهما لم تريا أحدا ممن تعرفانهم .

سافرت الاثنتان طوال الليل،ومنذ الصباح كانتا على بعد ميل أو اثنين من القرية التي كانتا تقصدانها. وكان أول مارأتاه عند دخولهما البلدة ،هو أطلال سيرك سليري، اذ انّ المجموعة انتقلت البارحة الى بلدة أخرى،تبعد نحو عشرين ميلا. وكان الاتصال بين البلدتين يتم عبر طريق صغير، أما السفر على هذه الطريق فيحتاج الى التمهّل والبطء. تناولت الفتاتان افطارا سريعا من دون راحة ، وعند الظهر وجدتا مكان سليري،واقتربت سيسي ولئلا يثيرا أية شبهة وقفتا في الدور ودفعتا رسم الدخول،وكأنهما تريدان حضور السيرك. واذا ماكان السيد سليري هو من يتسلّم النقود فسوف يعرفهما بالتأكيد،وسوف يتصرّف بفطنة . واذا لم يكن هناك فسوف يراهما بالتأكيد في الداخل،وسوف تعلمان ماذا فعل بالهارب،وسوف يتصرّف أيضا بفطنة .

لذا دخلتا بقلبين خافقين الى الدكان الذي تذكرانه تماما. كانت اللافتة التي تحمل اسم سليري موجودة ،وكل شيء في مكانه ، باستثناء السيد سليري. أما السيد كيد منستر المعروف بكيد بيد فكان قد كبر في السن،ولم يعد قادرا على اللعب في السيرك،كما

كان في السابق،وهو في الوقت الحالي لم يعد يرى أي شيء سوى المال،وكان هو الواقف أمام الباب يأخذ المال من الداخلين لحضور السيرك. لذا مرّت سيسي من أمامه من دون أن يتعرّف عليها.بدأت العروض وظهرت ابنة السيد سليري،ودخلت لتقديم عرضها مع مهرّج جديد،وهنا ظهر السيد سليري،وهو يقودها الى الداخل. بدأ السيد سليري العرض بضرب المهرّج مرة واحدة بسوطه،وقال المهرّج: اذا فعلت ذلك ثانية فسوف أرمي الحصان عليه،وبعد هذا العرض فقط تعرّف السيد سليري وابنه على سيسي مباشرة،ولكنهما تابعا العرض بكثير من الفرح،ولم يظهر السيد سليري المزيد من التعبير ازاء وجود سيسي. بدأ العرض الطويل قليلا على سيسي ولويزا،وفي الأخير انحنت جوزفين تحية للجمهور،وترك المهرّج وحده في الساحة عندما لمست يده كتف سيسي،وأشير اليها أن تخرج .

أخذت سيسي لويزا معها،واستقبلها السيد سليري بشقة منفردة، وقال السيد سليري :

سيسيليا يسرّني جدا أن أراك. كنت دائما المفضلة معنا،وقد قدمت لنا الكثير من الأعمال الجيدة في خلال وجودك معنا. يجب أن تري رفاقنا ياعزيزتي،قبل أن نتكلّم على العمل،والاّ فانهم سوف ينزعجون كثيرا،وقلوبهم سوف تنكسر حزنا،ولاسيما النساء منهم . هذه هي جوزفين،وقد تزوجت من شيلدرز وأنجبت صبيا،وعلى الرغم من أنه لم يتجاوز ثلاث سنوات من العمر،لكنه يستطيع الركوب على أي مهر يكون أمامه . أما بالنسبة الى كيدر منستر فلقد تزوج أيضا. تزوج امرأة كبيرة كبرا يسمح لها بأن تكون أمه،وقد

أصبح لها ولدان،وأنت ياعزيزتي،بالطبع ،تتذكرين غوردون التي كانت بمنزلة أم لك، بالطبع تتذكرين ولاداعي لأن أسألك . حسنا لقد فقدت زوجها ،لقد تعرّض لوقعة قوية من على ظهر الفيل،وقد تزوجت ثانية .

هذه التطوّرات الكثيرة تحدّث عنها السيد سليري ببراءة وفرح كبير،وبعد ذلك أحضر ابنته جوزفين وزوجها وابنهما وكل أفراد الجماعة لرؤية سيسي، كانوا ينظرون الى لويزا وهم أشبه بمخلوقات مدهشة ملامحهم باهتة وردية ،وملابسهم ضيّقة ،ولكن منظرهم وهم يحومون حول سيسي كان كثير الابهاج،وكان من الطبيعي ألاّ تستطيع سيسي الاّ أن تبكي فرحا لرؤيتهم حولها.

والآن ياسيسي،وبعد أن سلمت على الجميع ،وقبلت النساء والأطفال،وسلمت على الرجال فلينفض الجميع وليحضّروا أنفسهم من أجل العرض الثاني .

وبعد أن ذهب الجميع ،تابع بلهجة منخفضة :

والآن ياسيسيليا أنا لاأريد أن أعرف أي سر،ولكنني أعتقد أنّ هذه السيدة هي شقيقته .

نعم انها شقيقته .

أتمنى أن تكوني بخير ياآنسة ،وأتمنى أن يكون والدك بخير كذلك .

قالت لويزا:سوف يكون أبي هنا قريبا ،وتابعت بقلق،وهي تريد أن تصل الى الموضوع ،هل أخي في مأمن ؟

أجابها في مأمن تام، أريد منك فقط أن تلقي نظرة على

العرض يا آنسة من هنا،وأنت ياسيسيليا أنت تعرفين المكان،فأوجدي فرجة وانظري منها .

تطلّعت الاثنتان عبر فتحتين،وأخذ سليري يشرح لهما العرض الذي تتفرجان عليه،ثم سألهما:

هل رأيتما كل الموجودين ؟

أجابتاه :

نعم .

قال لهما سليري :

انظرا مرة ثانية .

انظرا جيدا،هل رأيتماهم جميعا ؟

حسنا والآن،يا آنسة لديّ رأي،ولوالدك رأيه . أنا لاأريد أن أعرف ماذا فعل شقيقك فمن الأفضل ألاّ أعرف . أخوك موجود في العرض الذي رأيتماه أمامكما،وهو واحد من الخدم السود الواقفين في العرض،وأنتما لم تستطيعا التعرّف عليه،وسوف أبقي أخاك أيتها الآنسة هنا بعد انتهاء العرض . دعي والدك يأت الى هنا بعد العرض،وسوف تجدي أخاك وسوف تتكلمان معه أنت وأبوك وأنتما مرتاحان،ولايهم مظهره مادام مخبأ تخبئة جيدة .

وبعد أن شكرت لويزا السيد سليري كثيرا،تركت سلاما وحبا لأخيها،وكانت عيناها مليئتين بالدموع،وذهبت هي وسيسي لتعودا بعد الظهر .

وصل السيد غرند بعد ساعة،ولم يقابل أحدا ممن يعرفهم، وأصبح حاد الطباع،مع تأكيد سيسي بأن يذهب ابنه العاصي الى

ليفربول خلال الليل،لذا كتب رسالة الى أحد العملاء ممن يوثق بهم لنقل ابنه الى شمال أمريكة أو جنوبها، أو أي مكان آخر بعيد عن العالم،حيث يبقى مدة من الوقت . وبعد أن فعل ذلك انتظر حتى انفض السيرك من المشاهدين اضافة الى العاملين والخيول،وبعد مدة شاهد الثلاثة السيد سليري وهو يحضر كرسيا ،ويجلس قرب الباب الجانبي يدخن،وكأنّ ذلك اشارة الى انهم باستطاعتهم الاقتراب منه .

حيّاهم بقوله :

خادمكم الأمين، باستطاعتكم مناداتي هنا عندما تحتاجون اليّ، ويجب ألاّ تمانعوا في أن يعيش ابنكم هنا حياة هزلية .

دخل الثلاثة معا ،وجلس السيد غرند على الكرسي الذي يجلس عليه المهرّج وسط الحلبة ،وعلى أحد المقاعد الخلفية المخفيّة في وسط عربة المكان جلس الجرو الدنيء وهو كئيب جدا ،وقد كان لسوء الطالع يضطر السيد غرند الى أن يدعوه ابنه . كان توم يرتدي معطفا غير معقول، مثل شماس الكنيسة ،وكانت أطراف أكمامه وأطرافه مبالغا فيها مبالغة غير معقولة .كان لباسه كله غير مناسب ،فله مقاس أكبر من مقاسه بكثير،ولم يصدّق السيد غرند بأية حال من الأحوال أنّ أحد أطفاله المثاليين قد وصلت به الحال الى هذا الحد .

في البداية لم يقترب الجرو،ولكنه بقي في مكانه على بعد، ثم اقترب قليلا،ولكنه بقي بعيدا عن أبيه .

سأله والده :

كيف حدث هذا ؟

أجابه ابنه بحزن :

كيف حدث ماذا ؟

قال له الأب :

هذه السرقة ،قال ذلك وهو يرفع صوته .

أجابه توم :

فتحت الخزانة في تلك الليلة ،ثم أغلقتها بعد أن تركتها مفتوحة قليلا قبل خروجي،وكان المفتاح الذي وجد مرميا في الخارج معي،وكنت قد حصلت عليه منذ وقت طويل،ورميته في ذلك الصباح ، حتى يبدو وكأنه استعمل في السرقة ،ولم آخذ النقود،ولكن في الوقت نفسه ،تظاهرت بأنني أضع بقية الحساب شأني كل يوم في الخزانة ،ولكني لم أكن أفعل ذلك،والآن عرفتم كل ماجرى .

قال له والده :

لو نزلت صاعقة عليّ لكان ذلك أهون من هذا .

تمتم ابنه :

أنا لاأدري لماذا تشعر بذلك،فكثير من الناس وضعوا في مراكز ثقة ، أجل كثير من الناس ،والكثير منهم أيضا لم يكونوا أهلا لهذه الثقة . ولقد سمعتك تتحدث مئات المرات وتعلن انّ هذا قانون. كيف أستطيع مساعدة القوانين؟ فأرح نفسك .

دفن الأب وجهه بيديه بينما وقف ابنه ويداه الشبيهتان بيدي القرد في جيبه ،وكان المساء قد حل،وكان توم بين الفينة والأخرى يدير عينيه القلقتين نحو والده ،وكانت عيناه الجزءالوحيد في وجهه الذي يوحي بوجود حياة أو تعبير،وكان الصباغ حول

عينيه كثيفا جدا.

قال له والده :

يجب أن تذهب الى ليفربول ثم ترسل الى الخارج .

أجابه توم :

أعتقد أنه عليّ فعل ذلك،فأنا لن أكون أكثر تعاسة في أي مكان آخر أكثر مما أنا فيه هنا، اذ انني أتذكر أنني لم أكن سعيدا فيه قط .

ذهب السيد غرند الى الباب ،وعاد مع السيد سليري وقد سأله :

كيف نستطيع اخراج هذا التعس من هنا ؟

أجابه السيد سليري :

حسنا لقد فكرت في ذلك،وليس لدينا الوقت الكافي لنضيعه ، وعليك أن تقول نعم أو لا. فهناك عربة تقلّه خلال نصف ساعة الى المحطة حيث يأخذ القطار الذي يقلّه مباشرة الى ليفربول .

أجابه السيد غرند :

ولكن انظر الى شكله هل يستطيع ركوب أية عربة ؟

أجابه سليري :

أنا لا أعني أن يذهب بهذه الثياب المضحكة .وافق أنت وسوف أجعل منه سائق عربة نقل خلال خمس دقائق .

وافق السيد غرند سريعا ،وهنا أخرج السيد سليري من علبة ثيابا أعطاها الجرو الذي بدّل ثيابه سريعا خلف ستار .

قال سليري : والآن تعال الى العربة واقفز الى داخلها وسوف أذهب معك الى هناك،وسوف يعتقد الجميع أنك أحد العاملين معي،

ودع عائلتك سريعا .

قال له والده: هذه هي رسالتك، وكل الوسائل الضرورية سوف تؤمن لك، ولكن يجب أن يكون تصرّفك أفضل، وأن تتعظ بما حدث لك لأنّ ما فعلته كان صدمة حقيقية، ورأيت النتائج المخزية التي أوصلتنا اليها. أعطني يدك يابني المسكين، وليسامحك الله كما سامحتك .

تحرّكت مشاعر توم المذنب، وذرف بعض الدموع، بعد كلام والده ولهجته المؤثرة، ولكن عندما فتحت لويزا ذراعيها لمعانقته نفر منها قائلا: ليس أنت، لاأريد أن أتكلّم معك أبدا.

أجابته :

آه ياتوم هل تنتهي هكذا بعد كل حبي لك ؟

أجابها بقسوة :

بعد كل حبك؟ ياللحب الجميل بتركك باي وحده، وباساءتك لصديقي المفضّل السيد هارث هاوس، وبذهابك الى المنزل عندما كنت في مرحلة حرجة وخطرة. يالهذا الحب، بذهابك وأنت ترين الشباك تلتف حولي. ياللحب الذي قدمته لي. أنت لم تهتمي بي قط .

طلب اليهم سليري التقدم، فتقدم الجميع وخرجوا. كانت لويزا تبكي، وتؤكد لتوم أنها غفرت له، وأنها لاتزال تحبه، وأنه سيندم يوما ما لأنه تركها هكذا. وبينما هم في هذا الوضع كان أحدهم يركض ويقف أمامهم، وكان السيد غرند وسيسي أمام توم، بينما كانت لويزا لاتزال متعلّقة بكتفه فوقف الجميع وتراجعوا.

كان الراكض بيتزر وهو مقطوع النفس، كان وجهه الشاحب لا لون فيه، وكأنه قد ركض طوال الليل. وقف وهو يلهث ويستريح، ثم قال

لهم وهو يهز رأسه : آسف لأنني تدخلت في خططكم ،ولكن يجب أن آخذ معي السيد توم الشاب . يجب ألا يذهب ،وهاهو ذا انه الذي يلبس هذه السترة الطويلة ،ويجب أن آخذه .

الفصل الثاني فلسفي

عاد الجميع الى الدكان المتنقل،وأغلق سليري الباب ليمنع المتطفلين من الدخول، أما بيتزر فكان لايزال ممسكا بالمذنب من قبّة قميصه ،وكان يقف في الباحة وهو يتطلع الى سيده القديم عبر الظلام .

قال له السيد غرند وهو حزين جدا :

بيتزر هل عندك قلب ؟

أجابه بيتزر وهو يضحك من غرابة السؤال بقوله :

الدورة الدموية ياسيدي لايمكنها أن تتم من دون أن يكون لي قلب .

سأله السيد غرند بحدة :

هل يتأثر قلبك بأية تأثيرات عاطفية ؟

أجابه الشاب :

انّ قلبي يتأثر بالحقيقة والمنطق فقط ياسيدي من دون أي شيء آخر .

وقف السيد غرند وبيتزر ينظران الى بعضيهما بعضا ،وكان وجه السيد غرند أبيض مثل شخص ملاحق .

سأله السيد غرند :

أي دافع من المنطق دفعك الى أمر هرب هذا الشاب التعس ؟ والى سحق والده التعس ؟ انظر الى شقيقته هنا . أشفق عليها .

أجابه بيتزر :

ياسيدي بأسلوب منطقي وبطريقة رجل الأعمال وبما أنك سألتني عن الدافع الذي دفعني الى أخذ توم الى كوك تاون، فمن المنطق أن أخبرك أنني شككت في أنّ السيد توم هو الذي قام بسرقة المصرف وذلك منذ البداية . فقد كنت أراقبه قبل ذلك الوقت لأنني كنت أعرف أساليبه ، واحتفظت بملاحظاتي لنفسي ولكنني حصلت على دلائل ضده الآن. اضافة الى هربه والى اعترافه الذي سمعته عند وصولي، وقد كان لي المتعة في أن أراقب منزلك البارحة صباحا وتبعتكم الى هنا ، وسوف آخذ السيد توم وأعود به الى كوك تاون حتى أسلمه الى السيد باي، وأنا واثق من أنّ السيد باي سوف يرفعني ويسلمني مكان السيد توم ، وذلك سيكون ترقية بالنسبة اليّ وسوف يعود ذلك عليّ بالنفع .

بدأ السيد غرند كلامه بقوله : اذا كان الموضوع هو منفعة شخصية بالنسبة اليك ؟

قاطعه بيتزر بقوله :

أرجو المعذرة ياسيدي لمقاطعتك المنفعة الشخصية ، وأنا قد نشأت على ذلك كما تعلم .

سأله السيد غرند: كم تأخذ من النقود عوضا عن ترقيتك المتوقعة ؟

أجابه بيتزر :

أشكرك ياسيدي لأنك لمّحت لي بهذا العرض ،ولكنني لم أطلب أي مبلغ عوضا عن الترقية . فقد كنت أعلم أنك ستعرض عليّ ذلك فقمت بعملية حسابية بذهني ووجدت آنّ أخذي مبلغا من المال لن يكون آمنا وجيدا مثل وظيفة ثابتة وجيدة في المصرف .

قال السيد غرند وهو يمد يديه :

بيتزر .

وكأنه يريد القول :

تأمّل كم أنا تعس ؟ بيتزر مازال أمامي فرصة وحيدة لاقناعك لقد كنت طوال سنوات عدة في مدرستي، أرجو أن تراعي هذه الذكرى وتفيدني . أجابه طالبه القديم بأسلوب نقاشي : أنا أعجب ياسيدي من أخذك وضعا غير منيع . فدراستي كانت تدفع نفقاتها ، كانت مساومة ،وعندما انتهيت من الدراسة انتهت المساومة .

كان أحد مبادئ فلسفة غرند أنّ كل شيء يجب أن يدفع ثمن له . والقاعدة ألاّ يعطي أحدا شيئا أو يساعد أحدا من دون مقابل فوجود الانسان منذ ولادته وحتى مماته هو نوع من المساومة عبر الحساب .

وتابع بيتزر قوله :

انني لاأنكر أنّ دراستي لم تكلفني كثيرا .

كانت لويزا وسيسي تبكيان فقلق بيتزر قليلا بسبب ذلك ، وقال لهما : أرجوكما لاتفعلا ذلك،فلافائدة له . يبدو أنكماتظنان أنني أبغض السيد توم ولكني لاأكنّ له أية كراهية ،ولكن أريد أن

أعيده الى كوك تاون من أجل الأسباب التي ذكرتها، واذا ماقاوم فسوف أصرخ وأقول أوقفوا اللص ،ولكنه لن يقاوم،باستطاعتكما الاعتماد على ذلك .

السيد سليري وقف هنا وقال :

ياسيدي وكان كلامه موجها الى السيد غرند أنت تعرف تمام المعرفة وكذلك ابنتك وهي تعرف أفضل منك أنني قلت ذلك لها أنا لاأعرف ماالذي فعله ابنك،وأنا لاأريد أن أعرف ،فأنا قلت انه من الأفضل ألاّ أعرف .

مهما يكن من أمر،وبما أنّ هذا الشاب قد عرف مافعله ابنك من أنه سرق مصرفا ،وهذا شيء جدي، أجل هذا شيء جدي،ولكنني سأخبرك بما سأفعله ،سوف أوصل هذا الشاب وابنك الى سكة القطار لو تجنّب العرض هنا ،وأنا لا أستطيع أن أفعل أكثر من ذلك .

بكت لويزا كثيرا ،وحزن السيد غرند كثيرا ، اثر خيانة صديقهم سليري هذه ،ولكن سيسي نظرت اليه باهتمام كبير،وقد فهمته تماما ، وعندما كان الجميع يهمون بالخروج،نظر اليها نظرة واحدة وهو يرغب اليها أن تتمهل قليلا،حيث أخبرها أنه سيساعد توم على الهرب بمساعدة السيد شيلدرز،وتمّ تهريب توم خلال الليل بعيدا عن بيترز .

وبقي الثلاثة لويزا وسيسي والأب في حالة قلق حتى ظهر السيد سليري في الثامنة صباحا بروح مرتفعة ،حيث قال :

كل شيء في أحسن حال. ابنك الآن على ظهر سفينة في هذا الوقت . لقد أخذه شيلدرز من هنا بعد أن غادرناكم بساعة ونصف .

شكره السيد غرند كثيرا وسأله بحساسية كبيرة حول المـــال الذي يريده .

أجابه سليري :

أنا لاأريد مالا لنفسي،ولكن شيلدرز ـ وبما أنه صاحـــب عائلةـ واذا أحببت أن تعرض عليه خمسة باوندات فسيكون ذلـــك جيدا.واذا أحببت أن تعطي بعض الويسكي فأنا دائما مستعـــد لقبوله .

سرّ السيد غرند كثيرا ،ووعد بتنفيذ ماطلب السيد سليري،مـــع أنه رأى أنّ السيد سليري طلب أشياء جيدة جدا ،مقابل الخدمة التي أسداها اليه .

قال السيد سليري للسيد غرند :

اذا سمحت ابنتك فأود أن أحدثك بكلمة ونحن منفردان .

ذهبت سيسي ولويزا الى غرفة جانبية ،بينما وقف السيد سليري وهو يشرب الويسكي الممزوج بالماء ،وقال للسيد غرند :

منذ أربعة عشر شهرا كنّا مجموعة رجال السيرك في شستر،وكنّا وأولادنا في الغابة عندما أتى الى الحلبة كلب . كان قد سافـــر مسافة طويلة ،وكان في وضع سيء جدا،ولقد كان يعرج وكان أعمى، تجوّل من طفل الى آخر،وكأنه كان يبحث عن طفل يعرفه ،ثم أتى اليّ ورمى بنفسه بقربي،ثم لوّح بذنبه ومات ،وهذا الكلب كان ياسيدي ميري لك .

كلب والد سيسي .

نعم كلب والد سيسي،وأستطيع أن أخبرك ياسيدي، أنّ والـــد

سيسي قد توفي ودفن،قبل أن يعود الكلب اليّ،وقد تشاورت مع جوزفين وشيلدرز، اذا ماكنّا سنخبر سيسي بذلك أم لا،ثم قررنا ألا نخبرها.لماذا نشوّش أفكارها ونجعلها غير سعيدة؟

قال له السيد غرند :

انها لاتزال تحتفظ بالزجاجة التي أرسلها والدها لاحضارها، وهي موءمنة بعاطفته حتى اللحظة الأخيرة من حياتها .

هنا قال السيد سليري :

يبدو أنّ هناك شيئين باقيين بالنسبة الى الانسان .

قال ذلك وهو يتطلّع الى الويسكي والماء اللذين يشربهما . أحد هذه الأشياء أنّ هناك حبا في هذا العالم،وهذا الحب ليس محوره المنفعة الشخصية،بل انه شيء آخر مختلف تماما .

تطلّع السيد غرند عبر النافذة ولم يعط أي جواب .

أفرغ السيد سليري محتويات كأسه ونادى السيدات .

قال لسيسيليا :

حبيبتي قبليني وودعيني،ثم وجّه كلامه الى لويزا قائلا : سروري كبير جدا لأنك تعاملين سيسيليا كأخت لك،وأخت تثقين بها وتحبينها من كل قلبك. أتمنى أن يعيش أخوك حتى يستحق أن يكون لديه أخت مثلك،وحتى ترتاحي أنت .

ثم وجّه كلامه الى السيد غرند قائلا :

يجب ياسيدي أن يتسلى الناس ويعيشوا بفرح،فالانسان لايستطيع أن يتعلم فقط،وأن يعمل فقط . عليك دائما أن تفعل الشيء الأفضل والأعقل،ولتفعل دائما الأفضل،وليس الأسوأ .

وتابع السيد سليري قوله: انه لم يكن يعتقد نفسه كثير الكلام الى هذه الدرجة .

الفصل التاسع الختام

شعر السيد باوندر باي أنّ السيدة سبارست قد تدخلت بوقاحة في حياته وادعت أنها أذكى منه ،وكان باي غاضبا منها جدا لأنها اكتشفت أنّ السيدة بفلر هي والدته ،ومن ثم وصل الى قرار هو أنه من آجل ادانة هذه المرأة المعتدة كثيرا بنفسها لابد من أن يقول أمام الناس انها امرأة ذات أصل جيد وأرادت أن تلتصق بي وترتبط بي،ولكنني لم أوافق على ذلك وتخلصت منها.وهذا سيكون أكبر عقاب لها على تطفلها وتدخلها فيما لايعنيها.

دخل الى غرفة الطعام لتناول الغداء وهو معبأ بهذه الفكرة ، بينما كانت السيدة سبارست تجلس قرب المدفأة .

ومنذ موضوع السيدة بفلر،كانت السيدة سبارست دائما حزينة وتشعر بالندم ،وأصبحت دائما تنظر نظرات مكتئبة ،وكانت تنظر الآن نحو السيد باي باكتئاب ،وقد سألها بلهجة مقتضبة وقاسية:

مالموضوع الآن آيتها السيدة؟

أجابته السيدة سبارست مامعناه:

أرجوك ياسيدي آلآ تقطع لي انفي .

أجابها السيد باي وهو يرمي الشوكة التي قطع بها قطعة خبز محدثا صوتا قويا :

أنفك يجب أن يقطع لأنه يدّس نفسه فيما لايعنيه .

سألته السيدة سبارست :

سيدي .

أجابها :

نعم ماذا تريدين ؟ أجابته المرأة المجروحة :

هل يمكنني أن أسألك اذا كنت أنا السبب في فقدانك أعصابك؟

أجابها باي :

سوف أقول لك ياسيدتي انني لم أحضر الى هنا من أجل أن أتنزعج .

من المحتمل أن تكون سيدة ذات أصل رفيع ،ولكن ذلك لايفوضها في أن تتدخل في حياة رجل في مركزي وشؤونه لن أسكت عن ذلك .

رأى السيد باي أنه من الضروري أن يستمر على هذا النمط،لأنه رأى أنه اذا دخل في التفاصيل فسوف يهزم .

في البداية ترفعت السيدة سبارست عن الحديث ،ثم وضعت ما كانت تحوكه في العلبة المخصصة ووقفت تريد الذهاب .

قالت بسمو :

سيدي يبدو أنني أقف عثرة في طريقك في الوقت الحاضر،لذا سوف أذهب الى غرفتي .

أجابها باي :

اسمحي لي أن أفتح لك الباب أيتها السيدة .

أشكرك ياسيدي، أستطيع أن أفعل ذلك بنفسي .

آجابها :

من الأفضل آن تسمحي لي بذلك ،قال ذلك وهو يمسك قبضة الباب بيده قائلا :

لأنني أود آن أقول لك كلمة قبل ذهابك، فأنا أظن ياسيدة سبارست أنك تسببين لي تشنجا في الأعصاب من خلال وجودك في هذا المكان. هل تعلمين ذلك؟ وأنا أعتقد أنه بحب ستيفن المتواضع لايوجد مكان متسّع لسيدة في مثل عبقريتك،لتتدخل في شؤون الآخرين .

نظرت اليه السيدة سبارست باحتقار وقالت بأدب شديد :

حقا ياسيدي ؟

أجابها : لقد فكرت طويلا بالحوادث التي حصلت في الأيام الأخيرة ياسيدتي،ويبدو لي بحسب رأيي المتواضع .

هنا قاطعته السيدة سبارست وهي تقول بسخرية :

لاتذم رأيك ياسيدي،فالجميع يعلم كم هو صائب رأي السيدباي. آجل الجميع يملكون دلائل على رأيك الصائب . يجب أن يناقش رأيك في محادثة عامة .

ذم أي شيء في نفسك ماعدا رأيك ياسيدي. قالت ذلك وهي تضحك لهذا .

تابع السيد باي وهو مرتبك ووجهه مكفهر :

يبدو لي ياسيدتي أنّ مسكنا من نوع آخر يليق بسيدة تملك قدراتك،كمسكن قريبتك السيدة سكاد جزر. ألا تعتقدين أنه يمكنك ايجاد بعض الأمور هناك تتدخلين فيها .

أجابته :

لم يخطر ذلك ببالي ياسيدي،ولكن مادمت ذكرت أنت ذلك فعليّ أن أفكر فيما قلته تفكيرا جيدا .

تابع باي وهو يضع مغلفا فيه حوالة مالية بالسلة الصغيرة التي تحملها :

اذا تستطيعين أن تأخذي الوقت الكافي من أجل ذهابـــك ياسيدتي،ولكن في خلال ذلك الوقت أرجو أن تأكلي بمفردك وألا أراك خلال ذلك الوقت ،وأود الاعتذار اليك من أنني جوزيه باوندر باي من كوك تاون قد وقفت في طريقك طويلا .

أجابته السيدة سبارست بسخط واحتقار :

أرجو ألاّ تذكر ذلك ياسيدي،واذا استطاعت تلك الصورة المعلّقة بالحائط أن تتكلّم وهي صورة السيد باي المعلّقة في غرفة الجلـــوس كانت استطاعت أن تقول لك: انني ومنذ مدة طويلة كنت أناديها بصورة الأبله .

هذا الاحتقار الذي أظهرته السيدة سبارست تجاه السيد بـــاي جعلـه مرتبكا من رأسه حتى أسفل قدميه .

هنا تركته السيدة سبارست وذهبت،فأغلق باي الباب ،ووقـــف أمام المدفأة يتطلّع الى صورته ويفكّر في مستقبله .

أما السيد غرند ففي اليوم نفسه والساعة ذاتها كان يجلـــس متأملا في غرفته . ترى مانظرته للمستقبل؟ هل رأى نفسه وقد غزا الشيب رأسه ؟ هل اعترف وأقرّ أنّ نظرياته ومثالياته لم تعـــط النتائج المرجوة منها ؟ وهاهي ذي لويزا وفي اليوم نفسه تراقـــب

المدناة ولكن وجهها كان أهدأ وأكثر الفة .

فكرت لويزا كثيرا فيماحدث لها . فكرت في والدها ،في ستيفن وماحدث له ،وشقيقها ،ولكن ماذا عن المستقبل ؟

أما راشيل المرأة العاملة المكافحة فبعد مدة مرض طويلة عادت الى الظهور ثانية ،وكانت تلبس السواد دوما ،ولكن طباعها كانت دائما هادئة ومحببة ،وكانت هي الوحيدة التي تبدي تعاطفا واهتماما نحو امرأة سكيرة ومنهارة ،هي زوجة ستيفن ،تعمل راشيل وهي مسرورة بعملها هذا ،وستبقى تعمل حتى تصبح عجوزا لاتقدر على العمل .

ماذا حدث لتوم شقيق لويزا ؟ كان على بعد آلاف الأميال يكتب ورقة مبللة بالدمع ، اذ انّ كلمات شقيقته وقد أصبحت حقيقة بالنسبة اليه ،وانّ كل كنوز الأرض ترخص أمام نظرة من وجهها الحبيب . وكان توم يود رؤية شقيقته ،فسافر يريد العودة لرؤيتها ،ولكنه تأخر عن الوصول بسبب المرض ثم وصلت الى لويزا رسالة غريبة تخبرها أنه قد توفي بحمّى وهو في المستشفى،وهو نادم جدا ،وأنّ آخر كلمة تفوّه بها كان اسم شقيقته لويزا .

أما لويزا فلم تتزوّج وكانت تعلّم الأطفال في مدرسة القرية، وقد زرعت فيهم المتع والمباهج الخيالية اضافة الى الحقائق .

وقد رقي بيتزر في عمله ووصل مكان توم ،وهذا ماكان يطمح اليه . أما باي فقد توفي في شوارع بلدته المليئة بالدخان .

لقد خسرت السيدة سبارست مركزها وغرند خسر مثله ومعتقداته وراشيل خسرت صديقا مخلصا وستيفن بلاكبول خسر حياته .

أما سيسي فقد تزوّجت وعاشت حياة سعيدة هي وأطفالها ،وكـان أطفال سيسي يحبون لويزا كثيرا ،وسيسي هي الوحيدة التي أثبتـت نجاحا وتفوّقا في حياتها .

انّ الشيء الوحيد الذي لم يتغيّر هو سيرك سليري .



الفهرس

صدر عن دار القلم العربي بحلب

* اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء في ثمانية أجزاء .
للعلامة محمد راغب الطباخ الحلبي .

* التشخيص التفريقي في الأمراض الداخلية .
للدكتور علي حداد ورفاقه .

* دلالات وتفسير النتائج المخبرية .
للدكتور سيد الحديدي .

* نظرية النقد الأدبي .
للدكتور عصام قصبجي .

* الأيام العصيبة .
لتشارلز ديكنز ،تعريب الأستاذة ناديا أسعد .

* تماثيل الوحوش الزجاجية .
لتنسي وليامس ،تعريب الأستاذ محمد رجب باشا .

* قواعد لغة البيسك في الرسم على الكومبيوترات الدقيقة .
للمهندس فوزي الراغب .

* ديوان ابن الفارض .
للعلامة شرف الدين أبو حفص عمر الشهير بابن الفارض .

***
*

